ABU ABDO ALBAGL

نبيل الملحم

بانسيون مريم

إذا أعجبك الكتاب, فرجاءً حاول أن تشتري النسخة الورقية.
تذكر أن الكتاب العرب معثّرون والكل يستوطي حيطهم
دعنا لهم يضمن استمرار عطائهم.
(أبو عبدو)

بانسيون مريم

نبيل املحم

بانسيون مريم

روايــة

بانسيون مريم ـ رواية
نبيل الملحم

الإخراج الفني: فايز علام
لوحة الغلاف: منيف عجاج
تصميم الغلاف: فادي العساف

الطبعة الأولى ـ 2012
ISBN: 978-9953-583-02-0

جميع الحقوق محفوظة للناشر. لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأية طريقة سواء أكانت إلكترونية، أم ميكانيكية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل، أو خلاف ذلك إلا بموافقة كتابية مسبقة من الناشر ومقدماً.

الناشر:
أطلس للنشر والإنتاج الثقافي ش.م.م
شارع الحمرا ـ بناء رسامني
ص.ب: 6435 / 113 بيروت ـ لبنان
هاتف: 750054 1 961 +
فاكس: 750053 1 961 +
بريد إلكتروني:
atlasbooks@gmail.com

التوزيع:
الفرات للنشر والتوزيع
شارع الحمرا ـ بناء رسامني
ص.ب: 6435 / 113 بيروت ـ لبنان
هاتف: 750054 1 961 +
فاكس: 750053 1 961 +
بريد إلكتروني:
aflurat@aflurat.com
التوزيع عبر الإنترنت:
www.aflurat.com

الإنسان نكتة يبتكرها الموت!

الإهداء:

سلام، زين، والآتون... أحفاد ليندا.
أورثناكم العزلة، افتحوا الستائر
بأصابعكم!

ـ 1 ـ

مرة أخرى، ذبلت عينا أنيس وأوشك أن يغفو، وكعادته، كان من الصعب عليه أن يدعها بمفردها، وهي تحيك لوحتها، غرزة إلى جانب غرزة، ناسجةً في فضاء الكانفا طيراً متكرراً في كل منسوجاتها، التي غالباً ما تأخذ طريقها إلى الخزانة، وكأنها تودع تاريخاً خاصاً بها، تاريخ تسجّله فوق ألوانها الراقصة على غير ألوان بانسيونها الميتة.

للمرة الثالثة يكبو أنيس دون أن تلحظه، وفي الكبوة الثالثة، ذهب إلى نوم قصير، نوم تخلله منام متكرر أيضاً، منام يرى نفسه فيه منحشراً في ممر قطار، وهو يجاهد، شاقاً لخطوته طريقاً، عكس سير جحافل من البشر، بشر يجرفونه حتى يرتمي تحت قضبان سكة القطار الذي يكرر بدوره صوتاً أشبه بعواء كلب فولاذي متوحش.

التفتت مريم إلى أنيس، وكان قد فتح جفنيه المتورمين، وقد ضاعف تورّمَهما ازرقاقٌ أحاط بمخدتيهما، وقالت له:

ـ اذهب إلى غرفتك، ونم!

ـ لا. أجابها أنيس، وأضاف: ما زال الوقت مبكراً.

كانت دمشق، أكثر صمتاً من أية حقبة من سنوات عمرها الفائتة، وكان صوت التلفاز يصدر أزيزاً متقطعاً، فيما الشريط الإخباري، ينبئ

عن وصول مجموعة تفتيش من جامعة الدول العربية، مكلفة بمراقبة مجريات الموت في مدن سورية متباعدة، ربما كان أكثرها دموية، ما تشهده مدينة حمص التي تركّز الموت على هوامشها، فقد غرقت منطقة «بابا عمرو» بالموتى، وحطت سبطانات الدبابات على مداخل حي الخالدية ومفارقه.

حين نهض ليغلق النافذة، حرص أنيس على مداراة خطواته، وكعادته، قلّما أحدث ضجيجاً في هذا المكان الأكثر صمتاً من كفن.

قالت له:

ـ ابحث في المحطات عن فيلم!

رسالتها الصوتية هذه، أنعشت فيه إحساساً يخبو ثم يشرق، وبدا عليه فائض من الامتنان لسيدته التي بدت وكأنها تظن أنها قلقة عليه، وكان على يقين من أنه قادر على السير نحو أي من زوايا الصالة وأركانها، ومن أنه قادر أيضاً، على شق دربه إلى المطبخ كي يحتفي بإعداد دورق من عصير الجزر، الذي لا بدَّ أن يطيل من بريق عيون مريم، التي أرهقها تتابع التدقيق في تفاصيل لوحة الكانفا.

حين قلّب المحطات باحثاً عن فيلم، كان النوم قد زال من عينيه، وبدا أكثر إشراقاً مما كان عليه تحت سكة الكلب الفولاذي، الذي طارده في منامه طيلة عمره، منام تتبّعه مذ كان مراهقاً، فرجلاً، فكهلاً، كما حاله اللحظة، منام لا يتسع لأي من المبررات السيكولوجية، التي يمكن أن يسوقها مفسرو الأحلام ومتتبعو الكوابيس البشرية، وكان يتكئ في تبرير تتالي عيادة الكلب الفولاذ إلى نومه، على أول قراءة لأنطون تشيخوف، حين قرأ باللغة الفرنسية قصة موت الكاتب الروسي، وكانت حكاية استبدال جثة الكاتب المنفي، بجثة جنرال القيصر، تحتل رأسه.

كان أنيس أكثر اتساعاً من ذاكرة أمته، فالولد ذو الحدبة، طالما

أنفق الوقت في قراءة الآداب الفرنسية، كان كذلك، ربما ليسوّي ظهره ويسدّد خطواته خارج أقانيم البشر المتكررين الذين يمتلكون أعمدة فقرية متشابهة، تحافظ على استقامتها سنوات طوالاً، ثم تبدأ بالانحناء، منذرة بنهايات عمر يقف على حافته، ليهوي لاحقاً في تابوت يشارك فيه موتى آخرين، قد يكونون من محنيي الظهر أيضاً.

منذ أن اتجه أنيس إلى التلفاز حاملاً حدبته ليضغط جهاز البحث عن المحطات التلفزيونية، أطلت جوليا روبيرتس... بدت وهي تتسلق بئراً، كما لو أنها وعد لبشرية تغرق في قاع عالم يحط الموت في كل مفرق من مفارقه، وحين كرر النظر إلى مريم، كانت مريم ما تزال غارقة في خيطانها وفي إبرتها، وهذا ما منعه من رفع صوت التلفاز، ليكتفي بمشاهدة الفيلم، وقراءة شريط الترجمة، وعينه تتأرجح ما بين مريم وبين الشاشة التي تتنقل فوقها ممثلته الفاتنة التي غالباً ما اعتقد أنها درّة السينما الأمريكية.

لم يكن بوسع مريم تكرار نظراتها المطمئنة إلى أنيس، وكان منذ ما يزيد عن ثلاثين عاماً، حريصاً على أن يقرأ مريم، وفي كل قراءة، كانت بالنسبة إليه نصاً أكثر إشكالية وغموضاً من أن يتفهمه أو يفكّكه. كانت بمنديلها الأسود، الذي يربط شعرها ويغطيه، وبملابسها السوداء التي لم تتغير، وبصمتها الدائم وهي تنسج لوحاتها، أعقد من أن تفتح نوافذها لأحد... أي أحد، وحين كانت تحكي، كانت ترشّد لغتها، وربما لم تكن تحتاج في كل استخدامات اللغة سوى أن تعلن أوامرها، أوامر من نوع:

ـ اطفئ إنارة السقف يا أنيس... يكفي إنارة قنديل الزاوية.

كان هذا حالها منذ أن عرفها، وكانت قلّما التفتت إلى الضوء المتسلل من غرفة ناصر، الذي يكشفه زجاج الغرفة المطل على صالة

البانسيون، وهو خيوط ضوء لا يختلف عن الظلام إلّا قليلاً، ضوء يكسر عتمته همهمات القطط المتسللة من غرفة ناصر، وهو من يحكي مع القطط حكايا عمره، ويجهد بكثير من الحرص، على منع مزاوجة قطته، بقطّه ألكسندر، تاركاً قطته، مثل ذاكرة، لعائلات القطط المتسلسلة، فيما تثابر القطة، على نثر وبرها فوق وسادته وفراشه وملاءاته المبعثرة، تاركة أنفاسها فوق سرير يفضح نومه، وهو يباشر التزاوج مع نفسه.

نعم، كان ناصر حريصاً على أن يتزوج من نفسه، وقد اتخذ قراره هذا منذ أن نبت شعر ذقنه، ودون أية تبريرات يمكن أن يقدمها لوالدته الوحيدة التي ما زالت تعيش في مدينة الرمثا الأردنية، والتي افتقدت ولدها حين غادر عمّان في أعقاب أيلول الأسود، وكان شاباً صغيراً، يتأمل بعينين مستطلعتين بندقية الكلاشينكوف، بسبطانتها، ومغلاقها، ومشط رصاصها المحدودب.

حدث ذلك يوم غادر الرمثا مع القوات الفلسطينية، التي اتجهت مبدئياً إلى جنوب سوريا وبعد ذلك إلى بيروت، كان ناصر قد حط رحاله في هذا البانسيون، بعد رحلة لا بدَّ أنها أوسع بقليل، ولم يبرحه إلى أي مكان آخر، وكان صمت المكان بالنسبة إليه، يفتح نافذة واسعة ما بينه وبين قطته، نافذة لحوار تموء فيه القطط ويموء معها، وكان هو وقطته حريصين أن لا يكسروا صمت المكان أو أن يحدثوا فيه أية جلبة.

كان هذا حاله مع قطته، التي لم يشاركه حياته أحد سواها، باستثناء بنات فندق القيروان، اللواتي يأتين مخمورات في نهايات ليل ثقيل، ليودعن قيئهنَّ سلالم الفندق المقابل لنافذة غرفته، وبعدئذ يتابعن تبديل ملابسهن، ليمنحنه فرصة الزواج من نفسه، عبر خيال الظل، المتسلل من الستائر الشفافة للفندق، والتي كلما أُغلقت، أغلقت معها بوابة شريكه الجنسي الثاني الذي هو: جسده.

حين انطفأت أضواء البانسيون على نحو مفاجئ، ومعها انطفأت شاشة التلفاز، نهض أنيس ويداه ممدودتان أمامه متلمساً طريقه في العتمة، وقدماه المكسوتان بجوربين سميكين تلامسان برودة أرضية الصالة، ولم يكد يصل إلى المطبخ، حتى كان رعد الأسمر قد فتح باب غرفته، وبيده قنديل شمع مضاء، توسط صالة البانسيون وهو يقف أمام مريم ضاحكاً، ومن ثم يقول لمريم، بلهجته العراقية التي لم تتبدل:

ـ أخوات القحبة، يقطعون الكهربا!

من الصعب على مريم تقبل الشتائم، أو المفردات البذيئة أياً كان قائلها، ولكنها منذ أن سكن البانسيون، غالبت نفسها أن تتقبل لغة رعد الأسمر هذا، وهي لغة تتصل بالبذاءة نطقاً وحركة أصابع ويدين، وطالما استثمر رعد الأسمر انقطاع التيار، ليخرج من غرفته كاسراً وحدته، وكان رعد الأسمر كلما توسّط الصالة، ليقف في مركزها، استحضر الكثير من الأيام الخالية، تلك الأيام التي عمل فيها تحت جناح الرئيس صدّام حسين، وكان آنذاك، الرسام الشخصي للرئيس المتقلب المزاج، الذي لا يتوانى عن إصدار أحكام الإعدام على الأشخاص الأكثر قرباً من قلبه، ثم ترفق مآتمهم بأكاليل فخمة. ولم يكن بوسع رعد الأسمر أن يفارق كوابيسه ولو للحظة واحدة، كوابيس دامت سنين، وهو يرسم بورتريهات السيد الرئيس، التي تأخذ طريقها للصحافة الحكومية، لتواكب رسوماته تقديس السيد الذي لن تُظهر جمالياته الصور الفوتوغرافية، بالقدر الذي يمكن لخيال رسّام بحجم رعد الأسمر من إظهارها.

وقد كانت صور السيد الرئيس، على الغالب، بورتريهات جانبية، وكان السيجار الكوبي الفاخر لا يفارقها، وكانت، إضافة إلى احتلالها واجهات الصحف اليومية، قد احتلت الكثير من ساحات بغداد ومدن العراق الأخرى، وحين حطت وساوس الخوف على رعد الأسمر، ما بعد

تضاؤل خياله في إضافة جماليات جديدة إلى رئيسه، وحين بات اعتقاده راسخاً بأن فقر الخيال سيتحول إلى مؤامرة على الرئيس، اتخذ قراره البالغ الشجاعة، وفجّر راحة يده اليمنى ببندقية صيد شلّت يده على أثرها، وبعد ذلك أعفي من خدمة السيد الرئيس، مصحوباً بثناء على هيئة صفحة مذّهبة، ممهورة بتوقيع مؤسسة الرئاسة، التي قدّمت بالغ شكرها للفنان المبدع، الذي غادر بغداد ووصل دمشق ليحط في هذا البانسيون، وقد بات ساكناً مؤقتاً.

ـ أكو فد وجه إلهي!

قال رعد الأسمر وهو يتأمل وجه مريم، وكان كلّما وقف أمام مريم يقول لها إن يده اليسرى التي تدربت على الخط والكتلة واللون، تشتهي أن ترسم وجهها.

كرر ذلك منذ أن وطأت قدماه هذا البانسيون، وكان ذلك قبل سقوط بغداد بأشهر قليلة، ومع إلحاحه على طلبه، كانت مريم تخفي ابتسامتها، متيقنة أنه يطلب لترفض، فيد الرسام اليسرى، لم تبلغ من الكفاءة حتى اللحظة ما يمكّنها من ولوج أخاديد وجوه الناس وذاكرتهم، وربما لم تتجاوز في مهاراتها، مساحات لونية، هي اعتراف صريح بأن روحاً ماهرة مبتورة اليد من يصيغها، ألوان مرشوقة فوق مساحات كبيرة، عكست على البانسيون تناقضاً صارخاً ما بينها وبين مجموع أثاث البانسيون ومفرداته: مفرداته التي تشمل ستائر من برتقالي كاحت، وأرضية من بلاط، على شكل رقعة شطرنج من الأسود والأبيض، وأثاث خشبي يعود إلى أكثر من مئة سنة، أثاث تآكل بفعل زمن لم يتجدد.

وحدها أيقونة سيدة دمشق، بألوانها المذهبة وهالة السيدة العذراء، كسرت تثاؤب المكان الذي يكاد أن يغفو تحت ذاكرة سنين، عَبَرَه فيها

الكثيرون ممن يبحثون عن وسادة لليلة واحدة، يلقون فوقها رؤوسهم، ثم يغادرونها، برؤوس لا تتسع لتذكار يتجاوز ربما اللافتة النحاسية المزرنخة، اللافتة التي كُتب فوقها بخط نسخي بالغ الإتقان: «بانسيون مريم».

حين عاد أنيس من المطبخ، وهو يحمل شمعته المضاءة بيده، مصوّباً نظراته إلى مريم، كان رعد الأسمر يستدرج شمعته صوب وجه مريم، كان وجهاً، لا مفرّ من الاعتقاد بأنه أكثر إضاءة من الشموع التي يحملانها: أنيس وهو.

كانت نظرات أنيس توّبخ رعد الأسمر، فثمة عتمة كان يسعى وحده لإنارتها، إنها مهمته هو وحده، وكان على هذا العراقي أن يمكث في غرفته بانتظار أن يصل أنيس بشمعته. وحده أنيس من يضيء وحدة مريم.

نظرات أنيس الموبّخة لم تحل دون أن يمد رعد الأسمر يده برقعة الماركة وقد وضعها تحت إنارة شمعته.. «انظري!» قال لمريم.

لم تلتفت مريم إلى رقعة رعد الأسمر، وكانت الرقعة هي (لوغو) لماركة جديدة تخص الملابس التحتية النسائية، وهو الذي صنع الكثير من رقع الماركات، التي تثبّت على القمصان والبيجامات والبذلات الرجالية، والتي استحوذت على اهتمام المستهلكين السوريين، كما اهتمام أصحاب مصانع الألبسة، والتي أظهرته بصفته من أفضل مصممي الرقع، دون أن تتجاوز في قرارة نفسه كونها مورداً للرزق، مورداً لم يسعه الاعتراف به، باعتباره موهبة جديرة بأن يبدد عمره من أجلها.

بدت الرقعة كبيرة، بل وكبيرة جداً على أي من السروايل التحتية النسائية، بل بدت وكأنها بحجم خلفية السروال نفسه، ما جعل مريم

تكتم ضحكتها، وجعل رعد يمضي إلى التأكيد لمريم أن:

ـ مفرجش باوعي بيها... ماركة رح تضرب السوق وتولع أسعار الكلاسين!

جرأة رعد الأسمر، ربما تولدت من كونه رجل بلا ماضٍ يمكن تسجيله، سوى بشهادته هو، كما يمكن إحالتها إلى كونه بلا مستقبل، في مدينة كان منذ البدء قد اتخذ قراره بأن تكون مدينة الإقامة المؤقتة، ريثما يحمل أمتعته ويغادر إلى الدانمارك.

انتظار رعد الأسمر للمغادرة، وقد طال كل هذه السنين، ما زال كما حاله على الدوام، وما زال رعد الأسمر يعرّف نفسه بأنه:

ـ لاجئ سياسي في الدانمارك.

على الدوام، كان يتوقع قبول لجوئه السياسي، في الوقت الذي لم يتقدم إلى السفارة الدانماركية بطلب لجوء، أو حتى بطلب تأشيرة دخول، كما لم يبذل أية محاولة للاتصال بالمؤسسات الأهلية التي يمكنها أن توفر له ذلك اللجوء، وكانت أخباره منقطعة تماماً عن اللاجئين العراقيين الذين بوسعهم إعانته في تحقيق حلمه، وفوق هذا وذاك، فمنذ أن دخل دمشق، دخلها ليستأجر سريراً مفرداً عند مريم، ولم يغادر سريره سوى إلى معامل الصناعات النسيجية التي تابعت الإقرار بقيمة موهبته، وإن شكا معظم الزبائن من أن ماركاته تسبب حكة في جلدهم، خصوصاً ماركات الكلاسين النسائية، التي كان يثبتها في المقدمة، لتحك الشعر الناتئ أسفل بطون لابساتها، عكس ما درج عليه هذا النوع من الصناعات الذي يثبت رقع الماركات في خلفية القطعة، بما لا يسمح لها بأن تخدش مؤخرات النساء اللواتي يرتدينها.

كان رعد، كلما أنجز تصميماً عرضه على مريم، ومع أن مريم لم تعلّق ولو لمرة واحدة على تصاميمه، فقد كان يعتبر أن مجرد صمتها

هو إعجاب بالتصاميم، عكس أنيس الذي يشي صمته باحتجاج مبالغ به، على ما اعتبره هذراً تنسجه الصناعات الوطنية التي لم تعر التفاتة تذكر إلى القطن السوري، وقد استبدلته بخيوط، هي خليط من بوليستر وقطن، كانت على الدوام، تعبيراً عن غش في الصناعات، تتواطأ فيه الحكومات على أجساد الأمة، خصوصاً أجساد النساء، فيما احتكرت الحكومة تصدير القطن الوطني، وفتحت مؤسسة التجارة الخارجية فيها، كل الأبواب لاستيراد خيوط القطن الممزوج بالبوليستر.

حين عاد وصل التيار الكهربائي، رفرفت شعلة شمعة رعد الأسمر، وكان رعد قد نفخ بفم مفتوح الشعلة، فانطفأت راسمة خيطاً رفيعاً من الدخان، فيما شعلة أنيس ما تزال متقدة، تؤرجحها حركة روب الديشامبر الذي يرتديه طيلة أيام الشتاء الباردة.

ـ2ـ

ليلة الصقيع تلك، كان الجنود المدثرين بالخوذ والأسلحة وواقيات الرصاص، قد باشروا مداهمات متفرقة في أحياء المدينة وهوامشها، وكانت قوات النخبة، بزيها المدني الذي يختاره لابسوه وفق ما يشاؤون، قد مشّطت جزءاً من أحياء دمشق وأطرافها، وامتدت مستهدفة شباباً تضمنتهم قوائم اسمية، وشى بها مخبرون متملقون، وقد طالت مجموعات كبيرة من البنات والصبيان، وتضمنت أسماء أهلهم، شباب تتراوح أعمارهم ما بين الخامسة عشرة والخامسة والعشرين، وكان جزء منهم ممن يتقنون اللغات الأجنبية، ويتداولون نشاطاتهم على الشبكة العنكبوتية، ويصيغون الكثير من الحوادث اليومية على هيئة أخبار عما يجري في البلاد لحظة بلحظة، وكانوا يسجّلون يوميات المدينة على كاميرات هواتفهم النقّالة، وبعد ذلك يروجونها على مواقع اليوتيوب والفيس بوك.

كان من بين «الأكثر خطورة»: الطالب الجامعي رضا بركات، طالب كلية الحقوق المتنقل من ميدان إلى ميدان، وكانت الوشايات قد طالت مكان مبيته، وهو المكان المتبدّل ما بين ليلة وليلة.

قال له رفيقه جلال:

ـ علينا مغادرة الحجر الأسود... في الحال!

بدت كلمة في الحال، وكأنها إنذار أخير، بدت أكثر خطورة، وبدا معها جلال وكأنه خارج للتو من سن الشباب الى سن الكهولة المبكرة.

كان موقع إلكتروني وطني، ادّعى بأنه حصل على قوائم اسمية لأخطر المطلوبين من قبل القوات الأمنية، وكان من بين الأسماء: رضا عبد الباقي بركات، مواليد 1989، طالب في كلية الحقوق جامعة دمشق.

فهم رضا خطورة اللحظة، ولكنه وكما يفعل على الدوام، كان يقلب مزاج الخوف إلى مزاج المزاح، ولهذا تقلّب في مكانه وقد تلبّس شخصية رهوان، وهو ينفث أنفاساً متقطعة مسموعة مذعورة.

فور أن سكّن ارتجافه وأنفاسه، أكد جلال ثانية خطورة اللحظة، وكان بيت الشباب، قد جمع، إضافة إلى رضا وجلال: ريتا الباشا، وسوسن الحمود، وكانت الأولى طالبة في المعهد العالي للموسيقا، فيما كانت سوسن ممثلة محترفة لم تحظَ بفرصة طيبة في المواسم الدرامية التي تنشط في شهر صيام الإسلاميين، ولكنها حضرت في معظم مواسم المسارح الحكومية.

كانت ريتا، مفتونة بقصائد الشاعر الفلسطيني محمود درويش، خصوصاً تلك القصيدة التي تسجل اسمها كمطلع لها (بين ريتا وعيوني بندقية)، وريتا مصابة إضافة إلى العشى الليلي، الذي يسد منافذ الرؤية بالنسبة إليها، كانت مصابة بسلس بولي طالما جعلها تبلل نفسها إذا ما دخلت دائرة الخوف، أو الضحك، أو الانفعالات العاطفية الحادة التي تصيب البنات، ومع إصابتيها الصريحتين، لم تكن ريتا لتداري تنقلاتها الليلية، ما يجعلها تتخبط وهي تصطدم في طريقها صوب أهدافها بالأرصفة والجدران، كذلك كان حالها وهي قادمة قبل لحظات قليلة إلى الحجر الأسود عابرة أزقة ضيقة، موحلة، بين عمارات شاهقة بنوافذ مفتوحة على النوافذ، وستائر محكمة تخفي

وراءها عائلات راغبة بالتكاثر ومقبلة عليه، ما تكشفه أصوات بكاء الأطفال التي تخترق وحشة المكان، ليضيئوا ببكائهم خوفاً سيطول البنت المتحدرة من أرقى أحياء دمشق، الحي المجاور للقصر الرئاسي، الذي إذا ما عبرته، فلا بدّ من أن تعبره بين حراس متشككين، حراس ببذلات سوداء تشبه بذلات ندل المطاعم، حراس يبذلون الكثير من الجهد، لإخفاء أسلحتهم، وتوزيع ابتساماتهم على المارّة، خصوصاً من أهالي البيوت المحيطة بالقصر الرئاسي.

كانت مخاوفها في الطريق إلى بيت الحجر الأسود، قد أفرغت مثانتها تماماً، وكان خط سيرها من شارع الثلاثين نحو الحارات الموغلة في الصمت والعتمة، قد جعلها ترتعش، لا من الصقيع الذي أنذر بسماء قاسية، بل من المجهول، مجهول أمكنة، ربما لم يتح للبنت التي رقدت في أحضان مربيات مستأجرات حتى بلوغها، أن تتعرف إليه، وكانت رحلتها التي تخبطت فيها بالكثير من حفر الأزقة، واصطدمت بالكثير من الجدران، قد ضاعفت من وطأة المجهول الذي بلل بنطالها، لتجففه، وهي تفتح ساقيها واقفة فوق مدفأة الكهرباء، والبخار يتصاعد منها، وحرارة المدفأة تلسع ساقيها ومؤخرتها.

بطبيعة الحال، لم يكن من الوارد أن يطلب من ريتا معرفة هذا النوع من الأماكن التي تحيط بالمدينة، فلقد كانت حركتها على الغالب ما بين منطقة المالكي، ومنطقة أبو رمانة، كذلك دمشق القديمة، حيث مقاهي الشباب المتناثرة في أحيائها، وحيث بات من الصعب التمييز ما بين أبناء الطبقات الوسطى، وأبناء الطبقات الثرية، فالتقليد الذي اتبعته الصناعات السورية، سمح بنسخ أهم ماركات الأحذية والملابس الأجنبية بما لا يسمح بتمييزها إلا باستخدام التدقيق والخبرة، وكذلك، لا بدَّ أن تكون الثقافات ما بين الشباب متقاربة، فالمتاح على الشبكة العنكبوتية، وكذلك المتاح من وسائل المعرفة، يسمح لأبناء الفئات

الوسطى من التزوّد بها، بما يجعلهم يتفوقون على أبناء الطبقات الثرية في تحصيل المعرفة، ولكن السؤال الذي ما زال يختبئ في رأس سوسن الحمود:

ـ ما الذي يدفع بنتاً من مثل ريتا إلى الانتظام في حركة الشباب هذه؟

ليس سؤال سوسن قابلاً للتعميم، فهذا النوع من الأسئلة، لم يكن من الوارد أن يُسأل في اللحظة السورية أبداً... فما يحدث في البلاد، ليس حركة حزبية تتطلب التماثل، وليس تنظيماً عقائدياً يحتكم إلى الطاعة، كما ليس حركة احتجاجية محصورة بمهنة أو فئة، ما يحدث كان فتح بوابة القفص، أمام أجيال مكثت فيه ما يزيد على أربعة عقود، سنوات ورثها الأبناء عن آباء متهمين ومشكك بهم، ومتهمين ومشككين بأبنائهم.

سنوات من المجاملة الطويلة، والنفاق الممتد من علبة الكونسروة التي تطبع عليها صورة الرئيس القائد، وصولاً إلى المناهج المدرسية، وقد ثبّت في كراريسها صورة الابن الوريث، بموازاة صورة الأب الراحل، بما جعل أجيالاً متعاقبة تتساءل عن كثب، عن المؤامرات التي تحاك على بلادهم، فيما لم يعثروا ولو لمرة واحدة، على إنجاز يوازي القفص الذي وضعتهم فيه قيادة البلاد بحزبها الوحيد وأجهزة استخباراته وهي تكافح لكسر ناب المؤامرة. كان القفص أشد وطأة، وأقسى من أن يبقى مغلقاً، بعدما رفرفت رايات كسر الأقفاص في مناطق أخرى، تبدت ساحات تونس، وميدان التحرير المصري، أكثرها إغراء وجاذبية.

لم تكن ريتا راغبة أبداً بالاستمرار في دراسة البيانو في المعهد العالي للموسيقا، كانت مسكونة بموسيقا الروك أندرول، وموسيقا البوب، وبفرقه المتناثرة في أصقاع مختلفة من العالم، وكان البيانو بالنسبة

إليها، ليس أكثر من إرضاء لشهوات أمها وإذعاناً لمناهج المعهد التي حرّمت موسيقا الروك واعتبرتها مجرد (صرعة).

بدت ريتا وكأنها تكن احتقاراً عميقاً لهذه الآلة، وأعلنت احتقارها هذا في رحلة شبابية إلى الساحل السوري، إذ لم يكن بوسعها نقل البيانو في باص الرحلة لتعزف. رحلة اكتشفت على أعقابها أن الطبلة أكثر حيوية وحضوراً وفعلاً من البيانو، فعلى إيقاعات الطبلة رقصت الرحلة، وتعرّق الشباب الراقصون حتى خلعوا قمصانهم التي نضحت بتعرقاتهم، ومنذ ذلك اليوم دخلت في مشّادات عنيفة مع أستاذها في المعهد، أستاذها الذي طالما تحرش بها وهو يستعرض مهاراته في الضرب على أصابع البيانو متنقلاً من مقطوعة إلى آخرى، خالطاً ما بين لحن الجنازة، والألحان التي تبعث على تأملات لن تبتكر في سوداويتها ما يبتكره الموت أبداً.

حين حملها جلال، وهي تلف ذراعها حول عنقه، خارجاً بها من قسم الموسيقا في المعهد العالي نحو سيارتها ليضعها خلف المقود، طلبت منه أن يقود هو السيارة، وكانت بللت قميص جلال. كانت ريتا مارست احتجاجاً بيولوجياً بحتاً على أستاذها المسخ، احتجاجاً مكث فوق قميص جلال وتسلل إلى قميصه الداخلي وبلل جلده، وفي الطريق نحو بيتها كانا يطلقان ضحكات صارخة، طلبت ريتا بعدها من جلال التوقف أمام دوّار عدنان المالكي لتقول لجلال:

ـ تعال نضحك روك أندرول!

لم يفهم جلال ما معنى أن يضحكا روك أندرول، مع أن لريتا مجموعة لا تحصى من الضحكات: ضحكة بوب، ضحكة جاز، ضحكة كونشيرتو، ضحكة ميلودي، ضحكة هارموني، ولها ضحكة هي الأقرب إلى الخطابات الرسمية التي يفتتح بها وزير الثقافة مهرجانات المسرح

والسينما السنوية التي تستضيفها العاصمة المسترخية. ضحكتها بصحبة جلال في رحلة البلل هذه، اختلفت عن مجموع حصاد الضحكات التي خزّنتها، لقد أطلقت ضحكاتها بأصابعها وذراعيها وبكامل جسدها، وعبثت أقدامها بالزجاج الأمامي للسيارة ما دفع طلبة معهد غوته القريبين من سيارتها إلى التحلق حولها، وما خلق لاحقاً شيئاً من البلبلة الأمنية في المكان الأكثر حساسية من بين الأمكنة الحسّاسة في العاصمة.

للمرة الثانية يصادف جلال ريتا وهي مبللة لملابسها، وكانت ريتا تنظر إلى جلال متوقعة أن يعاتبها، قالت له:

ـ وهل سأخرج معكم من هنا؟

ـ كلنا سنغادر.

ـ إلى أين؟ قالت ريتا.

ـ أنت تتابعين إلى بيتكم وأنا وسوسن إلى بيت سوسن.

ـ ورضا؟

لم يجب جلال عن سؤالها هذا، وحين التفت رضا إلى جلال، بعينين مستخفتين متسائلاً، همس جلال:

ـ بانسيون مريم.

ماذا سيكون بانسيون مريم بالنسبة إلى رضا؟

هو اشتقاق من هوس الأسئلة، هذا حال البانسيون بالنسبة إليه، وهو من تشكك على الدوام بخيال جلال، معتبراً في سريرته أن جلال يمثّل رجاحة العقل، ما يعني ضمناً بأنه يعني جفاف الخيال، وإذا ما كانت هذه هي رؤية رضا لجلال، فربما سيكون مبعث ذلك هو الاستسلام للانطباعات الأولية، التي جعلت رضا يشكّل هذا الانطباع عن زميله في الجامعة، وقد تعرف إليه منذ التحاقهما قبل ثلاثة أعوام بالجامعة..

جلال بالمعهد العالي للموسيقا، ورضا بكلية الحقوق بجامعة دمشق، وكان من نتائج هذا الاعتقاد، أن طالما احتج رضا على هذا التوزيع الذي يفتقد إلى العدالة الإلهية بما دفعه على الدوام للقول:

ـ كان عليك أن تكون في كلية الحقوق، وكان عليّ أن أكون في المعهد العالي للموسيقا... ليتابع بالكثير من الثقة:

ـ خيالي للموسيقا، ولكن ماذا سأفعل بالمهارات؟! أنت ماهر.. مهاراتك تتفوق على مهاراتي... على كلٍ، عمال التمديدات الصحية وكذلك الحلاقون والجزماتية يحتاجون إلى المهارات.. ثم:

ـ كان عليك أن تكون دبّاغاً.. أو حلاّقاً، لا يجدر بك أن تكون مصلحاً اجتماعياً.

قلّما استطاعت ريتا استيعاب هذا الكلام الذي يباشر فيه رضا اللحظات الأولى من لقائه بجلال، مع أنها تعرف باليقين أن جلال يقرض المال لرضا، دون أن يسترد ما أقرضه ولو لمرة واحدة، كذلك يمنحه ملابسه الجديدة، وفوق ذلك يسعفه بالأغذية من مشتقات الأجبان والألبان، التي تأتيه من جدته لأبيه في الساحل، وأكثر من ذلك هو دائم الإصغاء إلى حكايا رضا ومغامراته النسائية، التي تطول نساء من نوع: شرطية، قاضية، قيادية في الاتحاد النسائي، أستاذته في الجامعة، وحتى نساء من الكلية الحربية التي تخرّج ضابطات حريصات على أخذ ملامح الرجال، إضافة طبعاً إلى سلسلة من بنات الفيس بوك اللواتي يعيش معهن حياة افتراضية، ثم لا يلبث أن يقودهن إلى السرير، مستخدماً غرفة جلال وسريره ومنشفة حمامه اليتيمة.

فرج العلي فياض، القلق من انقطاعه عن أداء الصلاة، وقد كان الأكثر قرباً من الشيخ صلاح الدين عز الله، بل وتلميذه الحريص على متابعة الدروس، ثم التبشير بما يلقنه مرشده، كان متذمراً على الدوام

من صحبة رضا لجلال، وهو وإن كان متيقناً من كونه سينال مكافأة الآخرة عن كل ما يهذي به رضا، ومن هذياناته التجديف والتعريض بالدين ورجال الدين، كان فرج العلي فياض يبوح بموقفه من رضا، وكان إذا ما نطق اسم رضا، فلا بدَّ أن يستبق نطقه بالاستغفار من الله والاستعاذة من الشيطان. مع ذلك، لم يَحُل تديّن فرج العلي فياض وعقلانية جلال، واستهتار رضا بالدنيا والآخرة، لم يحل ذلك دون تقبّل علاقة ساقتهم على الدوام إلى المطعم الصحي، حيث ندل المطعم الكرماء، الذين يضاعفون صحن رضا، أقلّه خوفاً من بذاءته واستلطافاً لنكاته الجنسية التي يرشقها في وجوه ندلاء المطعم الذين يطالبونه بإعادة النكتة، حتى يتسنى لهم حملها إلى زبائن آخرين يذرفون بسببها ضحكات دامعة، مرفقة بالمزيد من الإكراميات والبقشيش.

لم يتفهم جلال سبباً لهمسات ريتا التي قادته إلى زاوية المنزل لتقول له:

ـ أسوأ رذيلة هي النصيحة، ولكن هل تسمح باقتراح؟

ـ قولي... أجابها جلال.

ـ لا تأخذه إلى بانسيون مريم.. سيدمّر إيمانها بك.

قالت ريتا ذلك، بلغة مختزلة، كما ظهر ذلك في اقتراحها، وكانت تتردد في التعبير عن نفسها، أو عن مجاراة رفاقها في التعبير عن أنفسهم ومواقفهم عبر الكلام، كما كانت قلقة من عجزها عن الذوبان في الطمأنينة التي يستشعرها شباب ينظرون إليها باعتبارها ملاكاً، ثم يبتهجون بكل ما تقوله، وهي تزمّ شفتيها المتشققتين، ثم تتابع وكأنها تتهجى الحروف، وبعدها تتدفق وهي سعيدة جداً، ثم تكتشف أنها تحكي كلاماً ليس له صلة بأي من همومهم، وبعدئذ تتوقف عن الكلام، متيقنة أنها ليست الثمرة الناضجة بعد.

مع أنه طالما كسّر قاعات الأسرار التي واكبت حركة الاحتجاجات منذ ما يزيد عن أحد عشر شهراً، بدا رضا، وكأنه قد أخذ اقتراح جلال بنقله إلى بانسيون مريم على مأخذ الجد، وبطبيعة الحال، فإن جلال لم يأخذ بنصيحة ريتا وقد نطقتها بصيغة رجاء، ولكنها، كانت أكثر توتراً وإرهاقاً منهما كليهما، بل وأشد قلقاً من ثقل اللحظة الراهنة، أقلّه لأنها ستكون مرغمة على العودة من الأزقة ذاتها التي أوصلتها إلى بيت الحجر الأسود، وهي ما تزال مرتدية بنطالها الرطب، وروحها مرطّبة بالخوف، وما يزيد قلقها هو العشى الليلي المدمر، ولا بدَّ أنه سيكون أكثر ضغطاً على أنفاسها وهي تمسك بيد سوسن الحمود، التي تكنّ الكثير من الغيرة المتعالية على ريتا، والتي لا بدّ أن تجد في العشى الليلي والسلس البولي لريتا، نافذة لإهانتها، إهانتها لدوافع، تبدو في ظاهرها نتيجة للفوارق الاجتماعية ما بين البنتين، كما باعتقاد سوسن الراسخ، بأن ريتا لا تنتمي إلى عالم من لحم ودم، إنها تنتمي إلى بشرية حمقاء يمضغون أوقاتهم وراء ملابسهم، وهم يخلعون ويرتدون في دور الأزياء، وهذا ما كرّرته مراراً على مسمع جلال، وتخطته إلى أن تقول لريتا:

ـ يا بنتي أنتم ناس البسكويت، وحدها المعاناة تخلق الإنسان الفولاذ!

سوسن الحمود، التي بدت بالغة الاستمتاع وهي ممسكة بيد ريتا، متنقلةً بها من زقاق إلى زقاق، استمتعت بإطالة الطريق، أكثر من ذلك استمتعت بقيادة ريتا وإدارتها، وبإلقاء الأوامر والتنبيهات والتحذيرات:

ـ هنا حفرة.. انتبهي.. الجدار على مسافة ذراعين من وجهك احرصي أن لا تصطدمي بالجدار.. كان عليك أن لا تخرجي في هذا الوقت من الليل.. لاتكرري ذلك.. أنت بنت مرفهة لا لزوم لتنجرفي

إلى عالمنا.. أنت معتادة على التنقل وأنت تقودين سيارتك... ساقاك فائضتان عن الحاجة.

لم تكن سوسن لتدعو إلى العفة أبداً، كانت مسكونة، وقد تجاوزت الثلاثين بقليل، باعتقاد راسخ، اعتقاد خلاصته أن الحب ليس سوى حرب مستعرة منذ البدء، وأن المرأة والرجل في المحصلة هما طرفا هذه الحرب، وليس الحب سوى الخطيئة التي ترتكبها المرأة، في سعيها إلى الفوز بهذه الحرب.. كانت تتنقل في خطواتها، وهي تقفز فوق فوهات المجارير المفتوحة، لتُبلّغ ريتا باستخلاصاتها، وأكثرها توهجاً: أن تقديس الحب، ليس سوى تلك الفكرة التي تقود إلى الفوهة ذاتها، الفوهة التي تندمل فيها المرأة بما يشبه هذه المجارير، وأشارت إلى أن الحب هو فعل معاكس للطبيعة البشرية، فالطبيعة هي:

ـ الإنجاب.. الإنجاب فقط.. تنجبين طفلاً ليستعبدك، لتكوني عبدة.. حسناً، إنها العبودية الرائعة التي يقتلني الحنين إليها.

بين ممرات معبّدة بالحصى، وبوابات متراصة، صامتة، صدئة، وبعد توجيهات من أطفال يتعثرون بالبرد وقد جمّد أصابعهم، قطعت ريتا وسوسن شبكة متعرجة من أزقة الحجر الأسود، وصولاً إلى مطلع مخيم اليرموك، ولم تكن ريتا لتفهم، ما الذي يعنيه أن تحكي سوسن قصة طردها من اتحاد الشباب الديمقراطي التابع للحزب الشيوعي، ولم تكن لتتفهم اندفاعات الحزب، وقد بات واحداً من فصائل السلطة في البلاد، كما لم تكن قادرة على تفكيك متاهة الصيغة السورية، وقد وقفت على مشارف حرب أزقة، وكل ما كان يضغط على أنفاسها، أكوام الوحول التي علقت بكندرتها، كما المياه الآسنة التي تتفجر لتغرق الطرقات.

تجسّمت أبعاد مسرح سوسن، كانت ريتا تتسلل من كواليس المكان

إلى الخشبة، ومنها إلى النص، ومن النص إلى مقاعد المتفرجين، وكانت وهي ممسكة بيد سوسن، تستذكر هذه الممثلة التي تستأثر بأدوار الكراهية في أكثر من عرض مسرحي.

كان على ريتا، أن تبعد شبح الكراهية عنها في هذه اللحظة.. أن تعثر في سوسن على ما يمكن أن يُحَب، وحين استغرقت سوسن بالسعال الناتج عن التدخين، التقطت ريتا ثمة جماليات في هذا السعال.. بدا سعال سوسن، وكأنه يكشف عن وجع عميق، وحين توقفت سوسن عن السعال طلبت منها ريتا:

ـ سوسن.. اسعلي ثانية.. إيقاع سعالك جميل.. كرري السعال، بالله، كرري السعال!

كان صوتها المهموس يصل إلى سوسن بجلاء تام، وكانت وهي تثب فوق حفر الشوارع مدارية أن تقع، قد وطّدت إرادتها أن تتجاوز مشكلتها المزمنة من العشى الليلي، غير آبهة بما ستؤول إليه مغامرتها، مع وثباتها القصيرة، وسط تنبيهات سوسن، وهي تكرر:

ـ احذري يا بنت.. احذري!

ـ3ـ

لاحظ أنيس وهو يكوّم القمامة في الحاوية المزروعة أمام بوابة البانسيون، أن الشارع خالٍ من المارّة، ليس ثمة عابر واحد للشارع الذي يطل عليه بانسيون مريم من الشرفة، ثمة جندي واحد بعمر لا يتجاوز العشرين، يجلس القرفصاء متكئاً على بندقيته، جندي هو واحد من الجنود المخصصين للمؤسسة الاجتماعية العسكرية، التي تبيع المواد الغذائية والملابس المدرسية ومناشف الحمّام والقطنيات للعسكريين بأسعار متهاودة.. واجهتها مغلقة، ولكنها ما زالت تعرض من وراء الزجاج، الملابس الرخيصة وعلب الزبدة، وتعلن عن رخصة كبيرة على مشتقات الحليب المجفف، وبدت السيارات العابرة لشارع العابد، المتقاطع مع شارع بانسيون مريم، بدت شحيحة على غير عادتها، وحين مشى باتجاه ساحة السبع بحرات، لاحظ أمام بوابة المصرف المركزي رافعة كبيرة محاطة بمجموعة من رجال العتالة وهم يثبّتون ركحاً مسرحياً مخصصاً لاحتفالات ومسيرات تضامنية مع الحكومة، سيشهدها الصباح.

في طريق العودة إلى البانسيون، وقد اتخذه أنيس عبر ساحة السبع بحرات مروراً بشارع 29 أيار، توقف أنيس أمام واجهة مخبز نعمة الله، ثم دلف إلى الداخل ليخرج بخبز محمّص هو الخبز الذي اعتادت مريم

أن تتناوله مع إفطارها الصباحي، وحين وجد نفسه ثانية أمام بوابة البانسيون، كان الجندي الحارس كعادته يجلس القرفصاء وبندقيته بيده. تقدم أنيس من الجندي الحارس، وناوله قطعة من الخبز.

ـ أنت بردان؟ سأله أنيس. ثم خلع روب الديشامبر الذي يرتديه فوق بيجامته، وناوله للجندي.

ـ خذ البسه!

بإيماءة من رأسه، رفض الجندي العرض السخي، فتابع أنيس مشيته متئداً نحو مدخل بناء البانسيون، وقد لف روبه فوق ذراعه.

ليس من السهل تمييز الألوان الحقيقية للبيجاما المخططة التي يرتديها أنيس، بسبب انعكاس أضواء النيون الذي يلقي إنارته فوق الشارع وواجهات المحال، وكانت أضواء أخرى، تنبعث من فندق القيروان بلافتته الكبيرة المعمّرة، وقد خمدت نيوناتها بفعل ابتكارات الزمن والهواء الملوث بسخام المدينة، ألوان هي الأخضر والأحمر والقرمزي، وتحت اللافتة غرف محكمة الستائر: ستائر برتقالية أفقدها الزمن أيضاً حسّ القماش فباتت متصلبة، ستائر أخذت وقتاً ربما سيضاهي ما سبق من عمر ناصر، الذي رقد وراء نافذة غرفته في البانسيون، منتظراً أن تُفتح الستائر ليلتقط الأسرار الدفينة التي تحملها بنات الليل، اللواتي ما زلن في غرفهن، ينبشن الخزائن، استعداداً للمغادرة إلى الملاهي الليلية، وهن يبدلن ملابسهن بصمت، ليعدن فجراً، برفقة قافلة من سيارات التاكسي، والسيارات الخاصة، التي تفجر أبواقها في فجر البانسيون، ثم تهدأ الانفجارات وتتسلل ضحكاتهن الثملة، وهن يصعدن سلالم فندق القيروان، وبعدئذ، يهدأ كل شيء، ويحل الصمت وراء ستائر تحكي عري أجساد، كل ما يسترها خيط من القماش يلف مؤخرات بنات، تاركاً سراً رفيعاً كما الخيط أيضاً، غالباً ما تضيف إليه حمالات الأثداء أسرارها، سر الجسد وقد لعب برأس حيوان

مازوخي، سر لا شك بأنه يدفعه صوب فظاعة الزواج الذاتي، الذي ستكون مراسمه على الدوام، خارج منظومات الجسد الواقعي، مرفقةً بتشنجات عميقة، يبتكرها شيطان الخيال.

بدا السلّم الذي يقود إلى البانسيون، بدا عامودياً أكثر من حقيقته، وبدا أطول مما هو في العادة. خطوات أنيس المتثاقلة لم تُعنّ جسده المُرهَق، ولكنه ما زال على ثقة بأنه سيطرق باب البانسيون، سيمسك بالمطرقة النحاسية التي أخذت شكل رأس نمر، ويرفعها ثم يطرق الباب طرقات متتالية، طرقات مدوية تكسر صمت هذا الليل المخيف.

حين وضع أصابعه فوق المطرقة النحاسية، ضغط قليلاً، ثم رفع المطرقة، وبهدوء يشبه الهمس أعادها إلى مكانها، المكان الذي ثُبّتت فيه، منذ ما يزيد على العقود الثلاثة، يوم ذهب أنيس إلى سوق المناخلية وابتاعها، ثم ثبّتها فوق الباب، ومعها ثبّت لافتة نحاسية كتب عليها (بانسيون مريم)، ليتحول هذا البيت، من بيت للسكن العائلي، ثم من بيت يؤجر غرفة مفردة، كان أول ساكنيها أنيس، إلى بانسيون، هو بانسيون مريم، الذي لم يحظ بشهرة رغم عمره المديد.

لم يطرق أنيس الباب، كل ما فعله أن أدار المفتاح، بهمس أيضاً، وفتح الباب هامساً، ودخل صالة البانسيون وهو يزحف على رؤوس أصابع قدميه الهامسة.

ناصر حداد، طالما توجّس من أية حركة داخل صالة البانسيون، كان يتوخى أن تكون مريم مطأطئة فوق قماش الكانفا، وأن يمكث أنيس قبالتها متأملاً صامتاً، وأن يبقى هو كما حاله دائماً، عيناه تمتدان من وراء زجاج غرفته إلى سلم درج القيروان حيث تتكسر أضلاع الصمت تحت وابل من طقطقات الكنادر النسائية ذات الكعوب العالية،

معزوفة ليلية تكرر إيقاعاتها منذ أن حط رحاله في دمشق مغادراً بيروت، معزوفة ربما باتت الصلة الوحيدة له بعالم الزواج الذاتي الذي قرره، ليبقى متحرراً من الإنجاب والنساء الحقيقيات اللواتي ستتكلف مضاجعتهن الكثير من الوعود التي ستأتي بعد رحلة شاقة من التعريف بالنفس، تعريف سيبدأ بالمكان، ويمتد إلى العائلة والجذور، ومن بعدهما إلى النشأة حيث بدايات منظمة التحرير الفلسطينية، والسحر الجاثم لراحلها ياسر عرفات، وعلى كل مفترق من مفارق التعريف سيبدو ناصر، مجرد ظل لحالة، وفي أفضل الأحوال صدى لرجل من رجال الصوت الذين شهدتهم ستينيات القرن العشرين ومطالع سبعينياته، وهو الفتى الذي قرأ أعمدة الحكمة للورنس، وفتنته تلك الشخصية المتسائلة، بما يجعلها ملكة السؤال، وملكة البحث المجازف عن الإجابة التي تمتد إلى السؤال الجديد بما يفرّخ من كل سؤال سؤالاً.

كل كتبه التي حملها من عمّان إلى دمشق، ثم إلى بيروت، فنيقوسيا، ومن ثم في رحلة العودة من نيقوسيا إلى بيروت فدمشق، ما زالت بحوزته، ولم يضف إليها سوى كتاب واحد، كتاب اشتراه من مكتبة رصيف بسعر متهاود، وحمل الكتاب عنواناً هو: «1984»، موقّع باسم: جورج أورويل.

دون شك، استهواه الكتاب، وإن كان أقل شأناً من مجموعة كتبه التي حملها في رحلة البداية من عمّان، وهي على وجه التحديد: اللامنتمي، ما بعد اللامنتمي، ضياع في سوهو، وأعمدة الحكمة السبعة، وبإضافة 1984 صار لديه مكتبته، وكتبه التي يخط تحت الجمل المؤثرة منها خطوطاً بقلم الرصاص، ثم يثبت على هوامشها حرفان لاتينيان هما: IM وهما اختصار لكلمة important، بما جعل هوامش كتبه ممتلئة بالكلمة الإنكليزية نفسها، نتيجة لتكرار قراءة هذه الكتب، وقد

اختصرت له حكمة الحياة برمتها، وأغنته عن كل إنجازات النصف الثاني من القرن العشرين، تماماً كما أغنته عن العودة إلى القرن التاسع عشر بما حمل. ودون ريب، فقد كان ناصر يشارك قطعه شيئاً من استخلاصاته، ويكرر على مسامعها الجمل الأثيرة لديه، وهو ما كان يتسبب بخلق لغة مشتركة ما بينه وبين قطعه، لغة تغلب عليها اللغة الفلسفية الجادة، لا لغة التدليع التي يثابر مربو الحيوانات المنزلية على اتباعها، وبطبيعة الحال، لم يكن هذا لينطبق على علاقته بالكلاب التي يرعاها في مزرعة السيدة نور، والتي لم تتجاوز بعلاقاتها مع ناصر، تطلّبها الذي لا ينتهي لرؤوس وأجنحة الدجاج، في نباح صاخب ينتهي بأصوات أنيابها وهي تطحن عظام الدجاج النافق.

حين فتح أنيس باب البانسيون، ودخل حيث مركز الصالة، تعثر بطاولة المنتصف، لم يسبق أن حدث مثل هذا لأنيس الذي يراعي خطواته وأناقته، ويواظب على تصفيف شعره الفضي الكثيف وكيّ بيجامته، ولكن ما حدث كان قد حدث، ووقعت الواقعة.

في غرفة ناصر ارتفع مواء القطط، ومع موائها ارتفعت ارتجاجات سريره، وبين كل اهتزاز واهتزاز، كان الصوت يخمد من جديد ومعه تخمد أصوات القطط.

بالفعل، كان ضجيج الصالة، قد أحدث انقلاباً في الأمعاء الكدرة للقط ألكسندر، فبات يلتف حول مركزه، بقائمتين مرتجفتين وعقل ثقيل، وكان قد أفرغ معدته فوق أرضية الغرفة، دون أن يستطيع اللحاق بإناء الزاوية المفروش بالتراب، والمخصص لفضلات القطط، ولا بدّ أن حدثاً كهذا سيبعث في ناصر إحساساً بأن وراءه فألاً سيئاً.

لم تحدث مثل هذه الجلبة في بانسيون مريم من قبل، ولكنها حدثت، وبات على مريم أن تتوقف عن حياكة الكانفا وتنظر إلى أنيس نظرات معاتبة، فيما ينظر أنيس إليها نظرات مواسية، ليهرع رعد الأسمر،

بيده المعطوبة، وهو يحمل قطعة الرقعة الماركة ملوّحاً، بأن:

ـ أكو فد شي ست مريم.. أكو انفجار؟ مفخخات؟ وحين اطمأن أن لا شيء من ذلك قد حدث، ابتسم وهو ينظر إلى أنيس:

ـ خرا بربك، قشمرتني!

لاحظ رضا رائحة الصمت وهو يدخل ردهة بوابة عمّارة البانسيون، ولم يكن يرى من طريقه سوى ظلال درجات السلّم التي تضيئها النيونات البخيلة لفندق القيروان، وبعد خطوات، كان قد أنجز فيها المرحلة الأولى من صعود الدرج، توقف هامساً لجلال:

ـ لو كانت ريتا معنا لتبللت ثانية.

كان لدى رضا في تلك اللحظات مشاغل أخرى، فالمؤكد، أن رضا لم يكن لديه لغة مشتركة تجمع ما بين روحه، وتعبيرات جسده، لهذا تجاوز الغموض الضاغط للسلم، وهو يُنقّل أقدامه كالسيدات الإنكليزيات الثقيلات الحركة، وكان يغالب مخاوفه وهو يهمهم بصوت خفيض، مُقلّداً مذيعات التلفزيون اللواتي يشغلن الشاشات، وهن ينقلن أنباء الحروب الدائرة في أمكنة متباينة من عالم يحترب.

حين كان يفعل ذلك، كان في قرارة نفسه يعرف أن هذا السلم سيقوده إلى مكان جديد، وبداية جديدة، فقد اعتاد، على الرغم من صغر سنه، على البدايات الجديدة، أقله في علاقاته العاطفية، وقد تنقل من بنات المرحلة الإعدادية اللواتي يخفين النقاط الراشحة على سراويلهن الصغيرة ما بعد تباشير الدورة الشهرية، وصولاً إلى البنات الجامعيات اللواتي يفردن خريطة الكرة الأرضية وهن يعتقدن غريزياً، بأن هذه الكرة مملوكة لهن.

حين سمع دوران مغلاق الباب، فتح عينيه على وسعهما، ثم رفع راحتيه للأعلى وكأنه يدعو، وبعد هنيهة، ملأت ابتسامته وجهه.

ـ4ـ

ما لا يعرفه رضا، وكذلك جلال، هو حقيقة عائلة ريتا، وإذا ما كانا يدّعيان بأنهما يعرفان، فكل ما يعرفانه سلسلة السيارات الفارهة التي تتوقف أمام عمارة أهلها، العمارة التي تكشف أسوار السفارة الأمريكية، كما تكشف الحواجز الأمنية للقصر الرئاسي القديم، وكذلك لا تخلو مداخلها من الحراسات التي تتوزع في معظم دائرة حي المالكي الدمشقي، وما لا يعرفانه أيضاً، هو أن والد ريتا، قدري دروبي، ليس رجل أعمال متخصصاً بالشحن البحري والاتجار العقاري فحسب، بل هو أكثر من ذلك، مجرد أكثر، فالمتداول عن قدري أنه: يصيد السمك حتى في البحيرات الخالية من الأسماك. ولهذا فهو:

ـ أكثر من ذلك؟ كان سؤال ابنته.

سؤال لم يتسنَّ لريتا أن تسأله أبداً، وهي من سمعت هذا التعبير من والدتها التي افتتحت محلاً لبيع التحف القديمة، في محيط مطعم ست الشام، ثم أغلقته بعدما اكتشفت ما بعد اليوم التاسع عشر من افتتاحه، أن بضاعتها من التحف التقليدية، ستذهب هدايا لرجال متنفذين، يُسهّلون أعمال زوجها قدري، بما جعلها وكأنما حارسة لزبائنه.

ـ ولماذا تتساءلين؟ إنه أبوك وحسب، ألا يكفيك ذلك؟

أجابت والدة ريتا عن سؤال ابنتها المؤجل، ومضت إلى غرفة ملابسها استعداداً لارتداء ما يلائم سهرتها الليلة، وحين لحقت بها ريتا ملّحة على السؤال، أجابت الأم:

ـ نحن لا نسأل هذا النوع من الأسئلة، يكفيك أنك ابنة لرجل ناجح... إن البيانو الذي اشتراه لك، يساوي مهور عشرين فتاة من الفتيات اللواتي تصاحبينهن، اللواتي يأخذن مالك ويستعرن ملابسك.

من الواضح أن ريتا لم تُقر، ولو لمرة واحدة، بالنعمة التي تركها والدها كادخار لها في المصارف السورية واللبنانية، والأكثر وضوحاً، أنها لم تكن قابلة ولو للحظة واحدة بالانتماء إلى عائلة مسكونة بالمجهول: المداخيل الخرافية التي لا يحققها الشحن البحري، الجلسات الطويلة وراء الأبواب المغلقة لرجال لا يبعثون على الاطمئنان، وكذلك ليالي الحريم التي تمضيها السيدة الأم، وهي محاطة بنساء، يأتين إليها، ولكل منهن خزانتها حيث الملابس الحريمية المثيرة، والعطور المأخوذة من عشب البخور، ليضاف إلى المجموعة النسائية الدكتور فريد، صاحب الضحكات المجلجلة التي تنقل عدواها إلى الحريم الضاحكات.

حين قرع باب بيت السيد قدري، وأطل الدكتور فريد ليقف بمواجهة ريتا، دخل دون تباطؤ شاقاً طريقه إلى الصالة الكبيرة، وقد ضم ريتا إلى صدره، ثم قبّلها فوق جبينها بحرارة، وسأل عن صحتها باللغة الإنكليزية، وتابع أسئلته عن حياتها الموسيقية باللغتين الألمانية والفرنسية، وحين جلجلت ضحكته ثانية، قال لها باللغة العبرية، إنه يكره الملابس، وحين طلبت منه أن يتحدث باللغة العربية، قال لها، كاشفاً عن طبيعته المتباهية، بأن:

ـ الإنسان خُلق عارياً تماماً من الملابس، وأن الملابس لا تعدو كونها منتجات رأسمالية تبتز نقودنا.

قال ذلك، وهو يخلع معطفه، وكما بدا ملحوظاً، لم يكن كلامه هذا تبريراً لخلع المعطف، لقد كان الدكتور فريد، مهووساً بالاستخلاصات التي يشكلها في تداعياته، وكانت تداعياته تسوقه إلى الاحتفال بها، ومن ملامح احتفالاته، إبلاغ أول من يصادفه بما آلت إليه أفكاره، بما يجعل سامعه يستهجن ولوج الدكتور إلى مواضيع ليست شاغلاً لسامعها، مواضيع تثير ريبة السامع، وتسوقه إلى الاعتقاد بأن الدكتور فريد يعاني اختلالاً عقلياً.

ليس هذا حاله على الدوام، فالقرّاء الذين يتابعون بحوثه، التي صدرت على شكل سلاسل كتب، كانوا يُكنون احتراماً بالغاً لباحثهم، كان من أمهر الباحثين في التراث الإسلامي، ولم يكن ليقع في هذا الاختلاط الذهني الذي يشوب صورته في بيت السيد قدري... كان عاجزاً عن تمثل أهميته، وهذا ما أدركه السيد قدري على الدوام، ولم تكن وسائل التعبير لتخون قدري، وقد قال له ذات يوم، وبلغة جارحة:

ـ أنت بغل يا دكتور، بغل يجر كنوزاً هائلة.

عاد الدكتور فريد، إلى إطلاق ضحكاته ثانية، مفترضاً أنه سينقل عدوى الضحك إلى ريتا، وبدا إصراره على نقل العدوى حين دخلت الأم إلى الصالة، حيث تابع ضحكاته وهو يتطلع إلى ريتا، فيما التقطت ريتا تفاصيل صغيرة في الدكتور فريد، تفاصيل مثل: نتفه لحاجبيه، أردافه المتكورة، رائحة العطر النسائي التي تنبعث منه، الأساور المحيطة بمعصميه، وشعر صدره الحليق.

وعندما استكملت استطلاعاتها، كانت يد الأم تربت فوق كتف ريتا آمرة بأن:

ـ ادخلي إلى غرفتك.. حان وقت النوم!

ـ سيدة انتصار... دعيها تسهر معنا! قال الدكتور فريد.

ضغطت انتصار شفتها السفلى بأسنانها، وتابعت التربيت على كتف ابنتها:

ـ هيا... حان وقت النوم!

حين غادرت ريتا نحو غرفتها، وهي تتلفت إلى الدكتور فريد، كان فريد يفتح حقيبة يده وكأنه سيخرج كنزاً عظيماً، وكان الكنز عظيماً بالفعل، فإضافة إلى إتقانه مجموعة كبيرة من اللغات، ومن بينها لغات ميتة، كان الدكتور فريد قد انفتح على المنجزات العلمية الصينية، ومن أبرزها منجزات على صلة بالمنشطات الجنسية، والمثبطات الجنسية، وكذلك غشاء البكارة الصيني، وقد حمله هذه المرة إلى سهرة انتصار وحريمها.

بعد توافد فريق الحريم، وهو مؤلف من ثلاث نساء، كانت الحفلة أكثر هدوءاً من الحفلات السابقة التي شهدتها صالة انتصار، فالأحاديث كانت بصوت أكثر انخفاضاً، وكذلك لم يدخلن إلى خزائنهن، كما درجت العادة، ليستبدلن ملابسهن بما يتناسب والإثارة الجنسية المطلوبة، فقد كانت انتصار حريصة أن لا تبدد مخاوفها بأوهام الحريم المحتفلات، وكانت تعرف شيئاً من حقيقة ما يجري في البلاد، حقيقة أن السيد قدري واحد من موردي سلاح القنّاصة التي أصابت الكثير من المتظاهرين في الرأس، والتي توزعت ما بعد موجة الانتفاضات العارمة على طول البلاد وعرضها.

كانت قلقة على مستقبل عائلتها، فقد ذهب نشطاء، وسياسيون، ورجال من العاملين في مجموعات حقوق الإنسان، إلى إعداد قوائم بمن مارس القتل أو وفّر السبل إليه، وكان عدد القتلى يرتفع يوماً بعد يوم، بما جعل أخبار القتل، مجرد أرقام تتحرك على الشريط الإخباري للمحطات التلفزيونية.

لحظ فريد افتقاد انتصار للروح الاحتفالية المرحة... روحها الملوّنة بالشهوات، ولكنه أجّل استفساراته وتساؤلاته، وأخرج من حقيبته علبة غشاء البكارة الصيني، وقال لانتصار:

ـ بهذا تعودين بتولاً!

وفرقع ضحكته متلفتاً في النسوة الثلاث اللواتي لم يبتسمن.. لم يبتسمن كما استطاع أن يُخمّن، لأن انتصار فرضت مناخاً معتماً، مشوباً بالاكتئاب، قال الدكتور فريد لانتصار:

ـ خيراً ما الذي أصابك؟ لست على الحشيشة.

حين نهضت انتصار من مقعدها، والتفتت إلى الدكتور فريد، أجابته:

ـ ألا ترى ما يحدث؟ أولاد الكلب سيدمرون سوريا.

ـ من هؤلاء الذين سيدمرونها؟

ـ الكلاب أولاد الكلاب.

فرقع فريد ضحكته، وكما اعتاد حين انفعالاته، رفع صوته ليجيبها بالعربية والإنكليزية والفرنسية:

ـ لا أحد يستطيع تخريب سوريا... لدينا من الرصاص ما يكفي لستين شعباً مثل الشعب السوري.

يقول لدينا...! وما علاقة الدكتور فريد بالقتل والرصاص؟

لا بدَّ أنه ليس من السهل بمكان اللعب بعقل انتصار، فقد انغمست هذه السيدة في المجتمعات السياسية، كما امتدت في مجتمعات الحريم، وليست نزواتها نحو المثلية الجنسية، لتقلل من حس المسؤولية لديها، وهي من رافقت قدري سنواتٍ طوالاً، لم ينجبا خلالها أطفالاً إلا بواسطة الزرع، وها هي ذي اليوم، تشحن حدسها للاعتقاد بأن كل شيء سيتداعى وينهار: أراضي الصبورة وعقاراتها، السيارات

المصطفة في المرآب، الأموال المودعة في المصرف التجاري السوري، وكذلك التحف التي لا بدَّ أن تخرجها حالاً من البلاد، فالفوضى ستعم كل شيء، والجوعى سيحصدوننا. قالت للدكتور فريد هامسة، وكان فريد يلصق أذنه بفم انتصار:

ـ اسمع يا فريد، لا أثق إلا بك، لديك صلات وطيدة بالأمريكان، وحدهم سيحموننا.

ـ سيدة انتصار، وماذا عن السيد قدري؟

ـ كل يوم نقرأ قوائم جديدة بالحصار، سيكون اسمه منشوراً على القوائم السوداء عما قريب.

ـ وريتا ابنته؟

ـ ريتا ليست ابنته... إنها مزروعة في رحمي زرعاً.

ـ لم أفهم.

ـ لا بدَّ من أن أحتاط لآخرتي... إذا ما حدث له مكروه، فلا بدَّ أن أنجو وابنتي بريشنا.

منذ 2005، كان فريد قد عزّز اعتقاداً لمحاوريه، بأنه على صلة بالسفارة الأمريكية، كما أشاع عن دائرة علاقات واسعة له، مع شخصيات من الكونغرس الأمريكي، ومن وزارة الخارجيّة الأمريكية، وكان يطيل التأكيد أنه سيكون مدعواً هذا العام ليكون محاضراً في برنامج الزائر الدولي، ومحاضراً في جامعات أمريكية، وناطقاً بلسان العلمانيين السوريين، وكان يستبق أي سؤال يوجه إليه بالقول، إن دعوة عاجلة وصلته من الخارجيّة الأمريكية، ومن:

ـ صديقتي، إيلين روس، نعم، إنها من أعز الأصدقاء!

كان يقول ذلك لزبائن صيدليته، زبائن سيتطلعون بالكثير من الحيرة والبلاهة، وهم يحاولون تكرار الاسم، خاصة أن الدكتور

فريد، يحاول أن يلوي حرف الراء، بما يجعله أشد صعوبة وأكثر التصاقاً باللهجة الأمريكية، وكانت بلاهة زبائنه، لا تحتاج إلى الكثير من التحريض، فقد كانوا بمعظمهم، من النساء العاهرات اللواتي يرسلهن إلى طبيب تجميل، ليعدن بأنوف مبتورة ومشوهة، طبيب أعمل مشرطه في مئات الأنوف، لنساء يأتين من الأرياف القصية، ليعدن إلى مراعيهن، بخيال يوطد العزم على أن يكن متشابهات مع صديقته السيدة إيلين روس.

لم تكن السلطات لتعير بالاً إلى نشاطات الدكتور فريد، ولا إلى أحاديثه الساخرة، التي تتناول بالكثير من الهجاء شخصيات حكومية بارزة، فحين تفاقمت أزمة المازوت، وتحولت محطات الوقود إلى قيامة متجمدة، أطلق فريد ابتكاراً علمياً ألصقه برئيس الحكومة، وكتب خبراً على صفحته في الفيس بوك، ليقول في خبره:

ـ إن الحكومة أنتجت حبوباً بديلة عن المازوت.. حبة واحدة في برميل ماء تحيل البرميل إلى مازوت أخضر.

أكد الدكتور فريد، أن سمعة الجيش باتت مضغة في الأفواه، وأن الانشقاقات توالت بين صفوفه، وطالت رتباً متوسطة، وجنوداً شكلوا فراراً والتحاقاً بالمحتجين، وحين ينهار الجيش ينهار النظام... هذا ما قرأه الدكتور فريد في مقال للغارديان البريطانية.

وما زاد في اعتقاده بالانهيار الوشيك للحكم، أن صِبية صغاراً، باتوا يتوقفون بصدور عارية أمام الدبابات... لم يكن لا من السهل، ولا الوارد، ولا الممكن، ولا المتوقع أن يحدث هذا في بلاد، الخوف إحدى سمات سكّانها، خوف متأصل، لا بدَّ معه أن يكون اسم الرئيس، مسبوقاً بلقب: السيد، حتى في الجلسات العائلية، كانت الأمور تنحو هذا المنحى، وكانت صور (السيد) تنتشر في طول البلاد وعرضها.

هو الحال كذلك، فالتقديس الذي أحاط بالرئيس الشاب، بدا في لحظة ما، وكأنه من صناعة أجهزة بالغت في الحرص على سلب إرادة السكان، ودمج إرادتهم بإرادة الرئيس:

ـ الرئيس هو الوطن... الوطن هو الرئيس... سقفنا هو الوطن والسقف هو الرئيس.

وسيضاف إلى الأجهزة التي عملت على توطيد هذا الدمج، مجموعات واسعة من السكان المستفيدين من الفساد، ومن بينهم كان الدكتور فريد، وقد شحن صناديق من البكارة الصينية، لخديعة رجال سيمارسون الدخلة على زوجات عذراوات، وكان قادراً على إقناع جدات أرستقراطيات متصابيات، بترف العودة إلى العذرية، ثم:

ـ ما لكنّ وشهادات أزواجكن وثرثراتهم؟! كان يؤكد.

حال السيدة انتصار، لا يشبه أبداً حال زوجها قدري، ففي الوقت الذي تحسبت انتصار، لانتصار انتفاضات السكان، كان متيقناً أنه أمام فتح جديد لسوق السلاح السوداء، سوق بدت ملامحها تظهر في اقتناء الأرياف للسلاح الفردي، ثم في تجليات بذور حرب أهلية استقرت في خطابات النظام وإعلامه، بالتشارك مع إسلاميين متطرفين، أطلقوا دعوات التكفير على مجموعات من الأقليات، وكذلك من مرجعيات لاهوتية مسيحية، حذّرت من تهجير المسيحيين كما الحال في العراق... خطابات احتكمت إلى الفعل ورده، ثم اتخذت شكل الاختطاف والاختطاف المتبادل، أقله في هوامش مدينة حمص، ومنطقة الحولة، ومدن أخرى، وكانت التداخلات المذهبية تنذر بمخاوف لا حصر لها... مخاوف توطد قلق الهوية السورية التي تشظّت تحت عقيدة الحزب الواحد، ونتّفتها عبادة الزعيم، وزادت على هذا وذاك الاحتقانات الاجتماعية، وقد بات ثلثا السكان يعيشون تحت خط

الفقر، حيث الصقيع يحل بأوردة سكّان الهوامش، وأثداء المرضعات تجففت من سوء التغذية وفساد الدواء، فيما ازدحمت مفارق المدن وشوارعها بالبضائع الجنسية التي تقدمها عاهرات هاويات، لا يميزن ما بين الدعارة والتسول، بما يضعف من شأن بضائعهن، ويحط من قدر أسواقهن، ويجعلهن أكثر عرضة للابتزاز، وبعضهن من زبائن صيدلية الدكتور فريد.

حين جال الدكتور فريد ببصره، مستطلعاً وجوه الحريم الثلاث، كانت انتصار عادت من المطبخ حاملة صينية مُفضّضّة وفوقها كؤوس شاي مُفضّضّة أيضاً، وقبل أن تضع فناجين الشاي في أمكنتها، أكدت أنها ليست في المزاج الملائم لاستكمال الليالي الفائتة، التي كانت مجموعة الحريم فيها، يمارسن شتى أشكال الاستمتاع بالتناوب على لعب أدوار الذكور، ومن ثم أدوار الإناث، ليثبّتن زجاجة شمبانيا فوق أرضية الصالة، ويطلقنها في دورات متتالية، وحين تستقر الفوهة أمام واحدة من المجموعة، فعليها أن تطلب من رفيقات اللعبة ما تشاء وعليهن الإذعان.

نعم.. كانت لعبة تُبدّد الأيام الموحشة لانتصار، وكان فريد مُنشّطاً ممتازاً لسهراتهن التي تنتهي على الغالب في فراش جماعي، ولا بدَّ من أن وصول قدري المتأخر، أو سفره على الدوام، لا بدَّ أنه سيعطي فسحة واسعة للمزيد من اللعب حتى فجرهن. ووحدها ريتا، بدت وكأنها تتآكل تحت تأملات وحدتها، في غرفتها الصغيرة، حيث الأسطوانات القديمة لسمفونيات موتزارت وباخ، وحيث أقراص مدمجة لأغانٍ فلاّحية، ليس من الوارد أن يرتفع صوتها، وفق التعليمات الصارمة لوالدتها التي لا تريد لابنتها أن تكون من العوام.

الدكتور فريد، الذي عثر على ثغرة ستوصله إلى غرفة ريتا،

استماح انتصار عذراً في أن يمضي نحو الممر الذي سيأخذه نحوها... بدت أرضية الممر المفروشة بالسجاد الأحمر الثمين، وكأنها قرعات طبول مخصصة لكبار الضيوف، وحين فتحت ريتا باب غرفتها وأطل الدكتور فريد، بدت وكأنها عاجزة عن تقديم أي من أشكال المجاملة أو الترحاب، قال لها وهو يرفع قدمه اليمنى، وقد أحاط الباب فاتحاً راحتيه:

ـ ليس ثمة ما هو أجمل من غرف الطلبة!

ثم دلف إلى غرفتها دون استئذان. وقال لها متابعاً دون انقطاع:

ـ أمك متوجسة من انتفاضات الشباب.

ثم نظر إلى جدران الغرفة مستطلعاً كما لو كان يتفحصها بعدسة مجهر:

ـ فاغنر... آه على هذا الرجل، لدي كل مؤلفاته الموسيقية، هو ونيتشه مخلوقان ألمانيان يستحقان أن يكونا معبودين للبشرية، للعلم أنا مؤمن بالنازية!

ثم أطلق ضحكته الأنثوية المجلجلة. وحين تأمل صورة تجمع ريتا بجلال، وإلى جانبهما رضا، قال ضاحكاً:

ـ يبدوان من الشباب الثوريين.

لم تتوقف ريتا عند استخلاصه هذا لتسأله: ومن أين استقيت هذا الاستخلاص؟ لكنه تابع بثقة قائلاً أن الكوفية الفلسطينية التي يلفها كل من الثلاثة حول عنقه، أوحت بهذا الاستخلاص، ثم انتحى جانباً ليجلس على كرسي هزّاز ويقول:

ـ حين كنا طلبة كانت الكوفية تحمل هذا الرمز.

ـ وهل كنت ترتديها؟ تساءلت ريتا.

ـ لا... لم أفعل ذلك ـ ثم أضاف ضاحكاً ـ أبناء العائلات الكبرى، كانوا بعيدين عن مثل هذه الرموز. في الجامعة كنا نرتدي الشارلستون، كنا نخيط بناطلينا عند الخياط ساكو في مطلع الصالحية، كنت أختار بناطلين السموكن الأشبه بالحرير.

ـ دكتور، اعذرني، دعني بمفردي لأنني سأنام!

ـ أوه!

أجابها فريد. ثم وقف متأملاً قسمات ريتا وكأنه يستكشف بئراً عميقاً، وحين همّ بالمغادرة، توقف بشكل مفاجئ ليقول لريتا:

ـ كل الحركات في الغرب، نادت بحق المثليين، لا أدري، أظن أنك من شباب الانتفاضات الديمقراطية، أليس كذلك؟

روح ريتا الطيبة، جرفتها نحو المزيد من الصبر على ثرثرات فريد، وهي البنت التي اعتادت أن تسجن نفسها في غرفتها في كل ليلة من ليالي الحريم التي يشهدها بيتهم الثري، ولكنها ستكون أكثر شقاءً هذه الليلة من أي من ليالي الحريم السابقة، فقد ذهبت بها خيالاتها إلى احتمال اعتقال رضا، ومداهمة بيت جلال، كما استغرقت في صور مجموعة من زملائها الشباب، الذين اختفت أخبارهم، وباتوا بحكم المفقودين في أعقاب تظاهرات حي القابون وضاحيتي دوما وداريا، وكانت مواجهة السلطات لهاتين التظاهرتين، من المواجهات العنيفة، وقد باتت الأسلوب الوحيد الذي تتبعه قوات النظام.

ـ سأنام! صرخت ريتا بوجه الدكتور فريد.

وقف مغادراً، وحين وصل إلى باب الغرفة استدار نحوها ليقول:

ـ أرجو أن تكوني قد شفيتِ من...

لم يكمل الدكتور فريد، وكان يقصد القول «من السلس البولي»، ولأنها اعتقدت بأن سؤاله انتقامي أجابته:

ـ ياه يا دكتور، أرجو أن لا أشفى منه أبداً... إنه وسيلة التعبير الوحيدة التي تعينني على الحوار مع من هم مثلك.

ـ أعتقد أنك تهينينني.

ـ لا أبداً.. أقول لك وسيلة حوار.. هل تريد أن تكون الوسيلة رشقات رصاص؟

قالت ذلك، وكأنها تخطو نحو حسم ترددها في التعبير عن نفسها بالنطق، وكانت في قرارتها قد قررت أن تتكلم، دون أن تتحسب لعثرات التعبير، أو لتلك الأخطاء الجزئية التي يقع فيها المتكلمون، وكانت قد اجتازت مسافة كبيرة حين عقدت العزم على الإقرار بأنها هدرت وقتاً ثميناً، وهي تثابر على تواضع كاذب، من نتائجه ترددها في التعبير نطقاً، تواضع مبعثه وهمها بأنها لم تنضج بعد، وقد كرّست كل وقتها للموسيقا، باعتبارها استجابة للغرائز العميقة فيها، بما جعل الكلام غريزة مُغبرة، مؤجلة، وأفقدها لاحقاً حس التواصل مع مفردات الحياة اليومية.. الحياة التي تُخبّئ في ثناياها ما يدعو للصراخ.

بدت ريتا، وهي تقول ما قالت لفريد، وكأنها قد تغيّرت تغيُّراً مفاجئاً، عميقاً، وحاسماً.. على الأقل هذا ما اعتقده فريد وهو يغادر غرفتها.

ـ 5 ـ

لم يصل رضا إلى باب بانسيون مريم، قبل أن يتوقف، لأكثر من مرة. في أول وقفة تساءل عن الجندي حارس المؤسسة الاجتماعية العسكرية، ولبضعة أسباب تبدو أكثر وضوحاً مما هي في الواقع، همس لجلال ضاحكاً، بأن وزارة الدفاع لا تملك معاطف لتغطية جنودها، وأن الجيش الذي أنزلته بمواجهة الناس، لا بدَّ وأن تجده في مواجهتها عما قريب وقريباً جداً، وأضاف قائلاً:

ـ هل يعقل أن يحرس جندي مؤسسة وهو يتكتك من البرد؟

في الوقفة الثانية وقد استغرقت وقتاً أقل من الأولى، سأل جلال:

ـ قل لي.. هل أصلّب؟ أم أدخل بقدمي اليمنى إلى بانسيون مريم؟

وفي الوقفة الثالثة، وكانت يده فوق مطرقة باب البانسيون، تساءل:

ـ ما رأيك بأن نعود أدراجنا؟

ثم رفع مطرقة الباب، وطرق طرقات ثلاث بإيقاع منتظم، منتظراً أن يفتح أحد ما باب البانسيون.

انتظار ناصر لأن تتحرك أي من ستائر غرف فندق القيروان، وقد همد قطه في حضنه، دون أن يلمح ظلال امرأة وراء أي من ستائر الغرف، وكذلك آلام العينين والحرقة التي حلت بجفنيه، بات انتظاراً

شرساً، انتظاراً يُنبئ بأن تلك الغرفة قد باتت مهجورة. استخلاصه القلق هذا، جعله متحفزاً وشديد الحساسية إزاء الأصوات، جعله يلتقط همسات الشارع، بل جعله مثقلاً بقراءة الاحتمالات.. احتمالات من مثل أن أصحاب الفندق أو مستثمريه قد باعوا الفندق لمستثمرين جدد، واحتمال آخر أن تكون شرطة الآداب قد شمّعته بالشمع الأحمر لمخالفة مسلكية من قبل نزيلاته، احتمالات من مثل أن تكون إدارة الفندق قد أخلته بقصد ترميمه أو إعادة تأثيثه، وأكثر الاحتمالات الذي أثقل ناصر، كان احتمال أنه فقد حدة بصره، وقد كان على ثقة، بأن بصره طالما أعانه على التقاط نساء القيروان، من وراء ستائر غرفهن وهن يخلعن ملابسهن، استعداداً للرحيل إلى الملاهي الليلية التي تحيط بالعاصمة أو تتوسطها.

بدت الطرقات على باب البانسيون، وكأنها صدمة رهيبة لن تمضي بلا أثر، فالمطرقة النحاسية المتآكلة المثبتة على الباب، مطرقة مهجورة، متروكة هكذا، مجرد كتلة منسية من النحاس، في المكان المنسي الذي سُمي مجازفة: بانسيون مريم، مكان منسي في مدينة بدت خالية على غير عادتها، وبدافع من مقاومة الصدمة، أحدث سرير ناصر سكسكات تحولت إلى دوي في أذنيه، فأخمد سريره بأن تغطى باللحاف حتى غمر كامل جسده ووجهه.

المفاجأة لم تكن أقل حدة لدى مريم، التي استوت مصححة جلستها، وعيناها مثبتتان على باب البانسيون، التفتت نحو أنيس الذي كان أكثر تحفّزاً منهم جميعاً، وقد نظر إلى مريم بعينين متسائلتين:

ـ ماذا عليّ أن أفعل؟

انهض وافتح الباب! قالت مريم موجهة نظراتها إلى أنيس، قالت ذلك دون أن تنطق بكلمة واحدة، بل حتى دون أن تتوقف عن حياكة

لوحة الكانفا المستغرقة فيها منذ قرابة ثلاثة أشهر، وأكثر من ذلك فلم تُسدد نظراتها إلى باب البانسيون، أقله لتستفسر من الطارق، أو لتعبّر عن قلقها الداخلي عبر حركة من جسدها.

كصياد يتربص بفريسته، مشى أنيس على رؤوس أصابع قدميه نحو باب البانسيون، وبالحرص ذاته على عدم تحفيز الطريدة، أدار مغلاق الباب، وكمن يمسك بمفتاح قنبلة ستنفجر في يده، فتح باب البانسيون مضيئاً بذلك سفرة الدرج إضاءة خفيفة، كشفت عن ظلين بشريين يقفان مقابله.

حين نظرت مريم إلى ظليهما، استعادت شعوراً، شعوراً أضاعته منذ عشرات السنين الفائتة، شعور الخوف والتوجس، شعوراً يعني بأن ثمة من يُهدّد حياتها في هذه اللحظة، شعوراً ربما لم تستطع أن تترجمه إلى صوت، أو إلى حركة، ولكنه كان مقروءاً في بؤبؤي عينيها اللذين أشعا بالترقب، ولكن لماذا؟

لم تأخذ مريم فرصتها لتجيب عن سؤالها المباغت، فقد أزاح جلال أنيس من طريقه ودلف إلى الصالة، ودخل خلفه رضا.

ابتهاج أنيس بجلال، والحفاوة التي واجه بها شريكه القديم في غرفته في البانسيون، لم يحولا دون أن ترتجف عظام مريم، في هذه اللحظة، صلّبت مريم طالبة من الرب إزاحة كوابيس القادم عنها، وقد استعانت بصورة يسوع المسيح مستسلماً لهالته، وقد حضنته أمه.

على الرغم من هذا كله، وحده رعد الأسمر لم يهتز أبداً، كل ما انتابه كان شعوراً مبهجاً بأن ثمة قادماً جديداً إلى هذا الصمت، وبأن كل ما عليه هو أن يحمل وسامه، ويقول للقادم: «شوف أخوي.. هذا أعطاني إياه صدّام حسين»، ثم يستغرق في حكايات لقاءاته بالسيد الرئيس، وهو يتابع تأملاته في قسمات الرئيس ليرسمه، وعليه أن يجمّل

الرئيس مزيلاً أية شعرة شائبة من رأسه فلتت من الصباغ الأسود، ومُصحّحاً كرش السيد الرئيس بما يجعل قوام السيد الرئيس أكثر رشاقة من واقع حال سيد بات في العقد السابع من عمره، وبعد ذلك لا بدَّ أن يُقدّم شرحاً وافياً للرقعة الجديدة التي يرسمها لكلسون نسائي جديد سيثبّت عليه في هذه المرة رأس أرنب.. رأساً بالخطوط فقط، رأساً يخلو من الكتل التشريحية التي تنسج رأس الأرنب البيولوجي، وهو بذلك سيعيد الروعة إلى الاختزال بالخطوط، تماماً كما بيكاسو الذي رسم ثوره بالخطوط فقط، ولا بدَّ أن يستذكر رعد الأسمر يمناه المشلولة، ليحكي بثقة عظيمة، عن إمكانيات الإرادة الحرة، التي تُمكّن رسّاماً، استخدم يمناه طيلة حياته، من التحول إلى استخدام يده اليسرى.

مكثت مريم جالسة على كرسيها المُغلّف بالتوجس، وحين رفعت عينيها مستطلعة وجه رضا وقامته، ثمة إحساس مضاعف بالخطر استولى على قلبها... عيناه الزيتيتان اللتان يؤرجحهما الضوء هما عيناه، وطوله الفارع هو طوله الفارع، وابتسامته التي تكشف عن أسنان شهوانية هي الأسنان ذاتها، وشفتاه المقلوبتان هما شفتاه، حتى المعطف الأسود الطويل الذي يتأرجح فوق جسده، هو المعطف الأسود ذاته الذي تأرجح أمامها ذات يوم منذ عقود خلت، عقود كانت فيها قد افتتنت بوالدها، وكان من الحمق أن تزيل صورته من ذاكرتها، وقد ثبتت فيها مرحه وشجاعته، لتطغى صورته الأخيرة، وهو مُسجى، وحدقتا عينيه مفتوحتان على آخرهما.

قال لها جلال:

ـ ست مريم، هذا رضا صاحبي، إنه يدرس الحقوق في الجامعة، ولد مهذب وبحاله.. همه دراسته ولا هم لديه سواها.. صدقيني بأنه سيكون ساكناً محترماً في البانسيون، ثم تابع:

ـ أظن أن العم أنيس سيعثر له على مكان إلى جانبه في غرفته.

بدا رفض مريم قاطعاً، فقد قالت ودون مواربة: لا مكان له عندي.

ـ ولكنني أرجوك، قال جلال ومضى يؤكد أن رفضها يعني أن ينام رضا في الشارع، و: «تعلمين ظروف الفنادق» و: «أظن أن لي مكانة في قلبك»، ثم: «دعيه يسكن في البانسيون ليوم أو يومين فقط ريثما يتدبر أموره».

بعد أن جالت برأسها عليهم واحداً واحداً، وكأنها تستفتي آراءهم، أومأت مريم بعلامة الموافقة، فعلت ذلك وكأنها تضع الورقة الاقتراعية في صندوق انتخابي سيكون صوتها هو الحاسم فيه، ولكن صوتها هذا، بدا وكأنه همسة إلهية لوضع حد لما تبقى من حياة أنيس، وكان واقفاً وراء جلال منحنياً، وخطوط بيجامته ترسم اعوجاج ظهره.

قال لها أنيس: ليبقَ، ولكن ليس في غرفتي.

ـ ليس في غرفتك؟ تساءلت، وكما لو أنها عاندت قدرها قالت: إذن ضعه في غرفة ماشاالله.

غرفة ماشاالله؟ أول ما تراءى لرضا أن غرفة ماشاالله هي مزار، أو ضريح مسجى في هذا البانسيون، ضريح مكتوب فوقه: «ضريح القديسة ماشاالله»، وأنه سيمضي ليلته الأولى مع الموتى، فروح الموت ترفرف فوق هذا المكان بأجنحة ذابلة، ولأنه طالما كان مندفعاً وراء التجريب، همَّ بحركة تنبئ أنه يبحث عن غرفة «ما شاء الله» هذه.

قبل أن يتحرك ولو خطوة من مكانه، قالت مريم ووجهها إلى جلال، وبلغة جازمة:

ـ اسمع، إذا أراد أن يبقى معنا، حسناً، فليبقَ، ولكن أولاً، ليس لأكثر من أسبوع واحد، ثانياً، ممنوع استقبال الأصدقاء هنا، ثالثاً، ممنوع عليه دخول بقية الغرف، رابعاً، ممنوع إنارة لمبة غرفته بعد الساعة

العاشرة ليلاً، خامساً، الاستحمام مرة واحدة في الأسبوع، سادساً، ممنوع الكلام الذي لا لزوم له.

وضعت مريم قائمة من الاشتراطات أمام رضا، قائمة كان أنيس يتمنى أن تصل إلى المئة، كان يتمنى أن تبلغ حداً يستدعي من رضا الرفض.

ـ ليته يرفض واحداً من شروطها، فتذهب الصفقة هباءً ويعود هذا الصبي من حيث أتى..

كان يقول ذلك لنفسه راجياً الله أن يستجيب لرغبته.

راح رضا يُحدّق في السقف، بعينين نصف مغمضتين، وعادت مريم إلى صمتها، وبعد إطالة في الصمت، والكل يترقب إجابة رضا، قال رضا بتذلل:

ـ سيدة مريم، الليلة، الليلة فقط دعيني أتأخر إلى ما بعد الساعة العاشرة، فقد جئت بلا حقيبة ملابسي، وعليّ العودة لإحضارها، وكما ترين الساعة الآن تجاوزت العاشرة.

نظرات أنيس المتسائلة، تحوّلت إلى رجاءات تتوسل مريم أن ترفض، غير أنها وافقت بإيماءة من رأسها، بدت موافقتها وكأنها اليوم الأخير في حياة أنيس، الذي بلغ السبعين عاماً، وبدا أنيس وكأنه سيغرق في قاع بلاط الصالة، الذي كان من لونين اثنين الأسود والأبيض، كان أشبه بألوان بيجامة أنيس وتخطيطاتها.

على السلم حدثت جلبة، جلبة لم تعهدها مريم، فقد كان رضا يقفز درجتين درجتين، على قدم واحدة، وحين وصل إلى مدخل عمارة البانسيون توقف بانتظار وصول جلال الذي وقف إلى جانبه:

ـ يا ألله، قال رضا، أيّ سجن هذا؟

ـ رضا، قلت لك مسبقاً أن لا تحاول العبث مع مريم.

ـ ولكنني سأعود، سأعود يا جلال، سأعود إليها وسأنفذ البروتوكول كلمة كلمة، اطمئن سأتقيد بكل شروطها، ولكن قل لي ما هي غرفة ماشاالله هذه؟!

ـ لا أعرف.

ـ ولكنك سكنت في البانسيون.

ـ صحيح، ولكنني لا أعرف.

ـ إذن تعال لنحتفل!

ـ نحتفل بماذا؟

ـ بالموافقة المعجزة.

ـ كيف؟

ـ نذهب ونتعشى في مطعم إسكندرون مع قرفة عرق.

ـ رضا.. أنت مطلوب!

أطلق رضا ضحكة انتهت بسعال حاد هتك قفصه الصدري، وحين أنهى ضحكته بالقول: أوف، تابع:

ـ يا رجل هل تصدق أنني مطلوب وأنهم سيعثرون عليّ في كوم القش هذا؟! كل السكان مطلوبون، سكان القبور مطلوبون أيضاً!

قال ذلك وتابع طريقه متجهاً إلى الجندي الحارس الذي مالت بندقيته على كتفه... تقدم من الجندي ممازحاً:

ـ ما رأيك بأن تترك حراسة هذه الزبالة وتذهب إلى السُكر معنا؟!

بدت ابتسامة الجندي الريفية، وكأنها تنم عن سريرة طيبة، وعوز لا نهاية له، أجابه الجندي:

ـ من جهة زبالة هي زبالة، ولكن الجيش جيش وليس زبالة... العسكرية هي العسكرية، معك سيجارة؟

ـ أنا لا أدخن.

ـ تسكر ولا تدخن؟

ـ أسكر ولا أدخن.

ـ مثل بارودتي.. بارودة بلا مخزن ولا ذخيرة.

مثقفو العاصمة وكتّابها وفنانوها انقسموا إلى فئات ثلاث: مجموعة صغيرة التحقت بالانتفاضة الشعبية، لدوافع مختلفة، ومجموعة التحقت بالسلطة، لدافع واحد هو الرهان على سقوط الانتفاضة وانتصار السلطة، ومجموعة ثالثة أسندت ظهورها إلى الحائط مترقبة، وهي تمارس نقد السلطة ونقد الانتفاضة معاً، وكان النقد هو الوسيلة الأكثر يسراً من الدخول في استحقاقات بدت مميتة وقاتلة، وسيلة لن تكلف أصحابها أياً من احتمالات المستقبل، المجموعة الثالثة هذه احتكمت إلى الشعر، وإلى الكتابات الغامضة فوق جدران الفيس بوك، وإلى الكتابات الصحفية المتنوعة، كتابات تنقذها لغة متقلبة يمكن تأويلها كيفما شئت، لتبقى على صلة بالغد، دون أن تفقد صلتها بالأمس، وقد بدت واضحة وجلية، وكانت أحوال النخبة لا تبتعد كثيراً عن أحوال الجمهور، جمهور مُساق بدوافع القبول والاستكانة للسلامة، ورهاب المستقبل وغموضه، يقابله جمهوران، أولهما يموت من أجل الإبقاء على السلطة، وجمهور يموت من أجل إسقاطها.

في شهرها العاشر، كانت قوائم موتى الأطراف الثلاثة، قد تجاوزت العشرة آلاف قتيل وفق الأرقام التقريبية للمنظمات الحقوقية، وكان السلاح قد بات أكثر وفرة في أيدي الجميع، رغم الارتفاعات الهائلة التي وقعت على أسعاره، دون نسيان الانتهاكات الفظيعة التي شهدتها حدود البلاد، التي تسلل السلاح من تشققاتها.

في مطعم إسكندرون، قلّما حضر رفيق الجرو دون رزمة من

قصائده، وكان رفيق يتلو قصائده رافعاً نخبها ليتسلل صوته من ثنايا دخان موقد الشواء، وكان وهو يلقي قصائده يلقي معها رذاذ السَلطات والخضار والحُمّص المُدمّس.

كان مطعم إسكندرون، يمنح إحساساً بالأمان، فضيق المكان، والحس الأبوي الذي يمنحه صاحب المطعم، والمعرفة المرحة التي يقدمها لزبائنه من المثقفين العرب المشردين المقيمين في سوريا أو العابرين المؤقتين، كانت بمجموعها تدفع المثقفين لإنفاق ما في جيوبهم في هذا المكان، ودون شك، كان السكارى يقفزون فوق الموروث من الأخلاق.

حين دخلا إلى المطعم الضيق، ذي الموائد المحدودة العدد، بديا غريبين عن إسكندرون وزبائنه، وكان رفيق يجلس منفرداً وأمامه شطائر اللحمة، وقد غُرزت في سيخ معدني، وصحن واحد من الحمّص المدمّس.. فور دخولهما، أشار لهما أن يجالساه، ودون تردد أخذ رضا مكانه قبالة رفيق الجرو.

طلب رفيق أن يعرّفاه باسميهما، وبثقة ليس من الوارد أن تحوم الشكوك حولها، كان متأكداً من أنهما يعرفانه، إن لم تكن معرفة شخصية فلا بدَّ أنهما تأثرا بقصائده.

ـ جيلكم بات غريباً عن الشعر، وحده الشعر ينقذ البشرية من خرائها! قال لهما.

كرر ذلك لمرات ثلاث، ثم نهض رافعاً كأسه وهو يحوم حول الطاولة، وفور أن توّقف رفع كأسه ثانية:

ـ بصحة قصيدتي القادمة.

ـ قصيدتك القادمة؟ تساءل رضا.

ـ نعم، ما بعد بعد بعد الحداثة، قصيدة العراء المطلق، الرغبة التي لا تتوقف أمام جدار.. قصيدة ستسجل للشعر العربي قدراً جديداً.

ـ يا الله! قال رضا باحتفالية كاذبة، وأردف: وأي قدر؟

ـ قدر الحرية.

ـ وما الذي كانت عليه أحوال القصيدة قبلك؟

ـ كانت أسيرة الإيديولوجيا.. أسيرة البعث بأحزابه، من الشيوعي، إلى القومي السوري، إلى الجبهة الوطنية التقدمية والرفيقة وصال.

ليس السُكر وحده ما أطلق لسان الشاعر رفيق الجرو، كان لسانه وقد تيبس في فمه لعقود خلت، قد بات مجرد الأداة الثالثة للجنس الذي يمارسه مع عشيقته الوحيدة التي تأتيه في آخر لياليه لتسحبه من مطعم إسكندرون مخموراً إلى بيتها الشقي في أقبية الطلياني، وكان رفيق المثابر على حضور اجتماعات الفرقة الحزبية لشعبة الميدان، يأخذ قيلولة طويلة ما بين ترداد شعار البعث، وفاتورة النقد والنقد الذاتي التي يجلد فيها الحزبيين أنفسهم.

ـ أنا منيّك يا رفيق!

قال رفيق ذلك لمسؤوله الحزبي، مكرراً رجاءاته أن تُتخذ عقوبات مسلكية بحقه:

ـ نعم، أنا منيّك يا رفيق!

قالها مؤكداً أنه لم يعد منشغلاً بالأمة العربية الواحدة، وأن أفكاراً سوداء تجتاحه، ومن بينها، أن بمقدوره أن يتخلى عن استعادة الجولان ببطحة عرق.

وفرقع ضحكته مؤكداً لرضا:

ـ ما الذي بوسعي أن أقوله حتى يطردونني من الحزب القائد للدولة والمجتمع؟

ـ أنا سأطردك، أجابه رضا.

ـ كيف؟

ـ حين تنتصر الثورة.

ـ أية ثورة؟

ـ ثورة السوريين... ربيع سوريا.

في تلك اللحظة، كان التلفزيون الحكومي يبث حواراً مع طبيبة في التغذية، وكانت الطبيبة قد كرّرت محاسن الغذاء النباتي، مؤكدة على أهمية نسيان الأغذية الدسمة التي تقود إلى البلاهة وَتصلب الشرايين والتوحش، وكان حوارها يتقطع بإعلانات تتصل بالمحطة، إعلانات تقول: أصل الخبر ومعناه، وأخرى تؤكد: حيادية بروح قومية.

كان صوت مذيعة الفاصل يفتقد إلى الشهوة، كان مثل نشارة الخشب، وكانت تسعى بكل جوارحها لإضافة شيء من زفراتها لتؤكد أنها أنثى.

حملته على الأخلاق، استقاها من التاريخ، وبدقة أكبر استقاها من أبو النواس، وكان قد كرر مراراً على مسامع ضيوفه:

ـ الحقيقة الوحيدة في التراث الشعري العربي هو أبو النواس، أهم قصائده وهجائياته، وأعظم ما في سيرته، أنه لم يكن يدفع فاتورة العرق والحمّص المدمس، وكان يكره المخلل... برونو؟ كان يضيف.

حسب اعترافاته بعد زجاجة العرق الثانية، أنه ومن معطيات حملته على الأخلاق، هو أن عليك أن تدع ضيفك يدفع فاتورة سُكْرك... وهذا ما فعله رفيق الجرو بضيفيه، وهو ما كان يفعله بكل القادمين الجدد إلى مطعم وخمَارة إسكندرون، وربما كان رفيق الجرو قادراً على الإيقاع بطريدته مرتين أو أكثر، وهو ما حدث مع كل قادم جديد إلى إسكندرون، وهم قلة على وجه العموم، ولن يستطيع القادمون الجدد الوصول إلى تسديد فواتير رفيق، لأنهم محدودو العدد من جهة، ولأنه

مثابر من جهة أخرى، ولكن ضيفيه اليوم، كانا نقطة ماء في صحراء قائضة، فقد شحّت أعداد زبائن مطعم وبار إسكندرون، بدءاً من مطلع الأحداث التي تشهدها المدن السورية، وباتت الحركة حذرة كما بات السكّان يُرشّدون احتياجاتهم، وهو ما طال جميع فئات الشعب، وبضمنهم السكرجيّة الذين لا تنطبق عليهم قوانين العرض والطلب التي تتطلبها قوانين السوق، كما تتطلبها حالات الهيجانات الشعبية القصوى.

ـ أسحب يدي حالما تمتد يدكم إلي!

كانت هذه هي قاعدة رفيق المتبعة مع طرائده، ولهذا فقلما صادف أن غرق بالصداقات، أو تذكّر رفاقه المخمورين وهو يتلو قصائده وهم يقهقهون ضاحكين من المفردات الغريبة التي تحملها، مفردات من الصعب العثور على ترجمة لها في أي من اللغات الحيّة أو الميتة، ومن بينها (المسّاس) تلك المفردة الغائرة في القدم، والتي عنوّن بها آخر قصائده التي ستمتد إلى ما بعد بعد بعد الحداثة، وهي تعني تلك العصا المنتهية بمسمار، التي توخز بها ثيران الحراثة، وقد انقرضت مع انقراض نمط الزراعة هذا، وفيها امتدح رفيق الجرو قيادة البلاد التي استخدمت هذه الأداة في إدارة أزماتها، معتبراً أن الشعب مجرد قطعان من الثيران، وأنهم الأحوج إلى (المسّاس) لإدارتهم، وكانت المحطة التلفزيونية ذاتها، قد أكدت استخلاصات الشاعر، ومضت، عبر مهاتفيها في بثها المباشر، تؤكد وتركّز على القبضة الحديدية التي لا بدَّ أن تُساق بها البلاد، وقد جاءت هذه المكالمات بعد منتصف ليل العاصمة، فيما تعالت أصوات الأغاني التي تمجّد محبة الرئيس الشاب، وقد انبعثت من مكبرات صوت ضخمة، وصلت أصداؤها من ساحة السبع بحرات إلى شارع الباكستان، إلى تقاطع شارعي العابد والصالحية، وبطبيعة الحال أيقظت رفيق الجرو من نشوة الخمر.

قال رفيق لهما: حسناً، يبدو أننا سنكون أمام احتفال طويل في الغد، ولا بدَّ أن أرتب نفسي.

ـ تُرتب نفسك من أجل ماذا؟ سأله رضا.

ـ كي أشارك.

ـ تشارك بماذا؟

ـ بالاحتفالات.

ـ احتفالات ماذا؟

ـ ليس مهماً... الاحتفال هو الاحتفال.. إن ما ينعش بلدنا هو الاحتفالات، شيء واحد ينقص هذه الاحتفالات وسأطالب القيادة بتحقيقه، أتعلمون ما هو؟ أن تصاحبها موائد شواء، وأن توزع الحكومة مع كل هتاف بطحة عرق وسيخ كباب حلبي!

قال رفيق الجرو ذلك، وكان يدقق النظر وراء زجاج مطعم وخمارة إسكندرون... لم يحجب بخار أنفاس الساهرين وجهها عن الزجاج، كانت عشيقة الشاعر واقفة وراء الزجاج، ملتحفة بمعطف فضفاض، ضاعف حجمها، بانتظار أن تحمله على كتفها وتمضي به إلى حيث سيتقيأ وينام ويهذي.. بدت من وراء زجاج الخمارة أمّاً أكثر مما بدت عشيقة، وحين غادر مُصوّباً أقدامه نحو الفتحة النصفية لباب الخمارة، تلقته بكامل صدرها وأسندته على كتفها، ليتركا معاً فاتورة تشمل كيلو كاملاً من الكباب الحلبي وزجاجتي عرق، وثلاث زجاجات بيرة، إضافة إلى الحمّص المدمس، وسلطة الجرجير التي يُنصح الرجال بتناولها تعويضاً عن المنشطات الجنسية، المرتفعة الأثمان، وغير آمنة العواقب.

حين نظر جلال إلى ساعته، قال لرضا:

ـ انبسطت؟ احتفلت؟ ومن أين سندفع الفاتورة؟

بأناقة وثقة، توجّه جلال إلى نادل المطعم، قال له بما يشبه الرجاء إنهما لم يكونا جاهزين لهذه الفاتورة الباهظة، وأنه جاهز ليرهن ساعة يده مقابلها.

ـ خذها إن شئت أو اقبلها رهناً!

لم يجب عرفان صاحب المطعم على اقتراح جلال، كل ما فعله أنه طلب منهما مساعدته في جلي الصحون، وتنظيف أرضية المطعم، وشكا لهما من الزبائن، الذين يدخلون بأحذيتهم الموحلة، كما شكا من عمره الذي طال أكثر مما يجب، مؤكداً:

ـ مشكلتنا أننا نعيش أكثر مما نحتاج، ونكافح من أجل أن نتبهدل!

في هذا الموضع، بدا عرفان شديد الحزن، ربما لأنه سيعود إلى بيته، ويُسوّي سريره، لينام مع طموح يحفّزه الخيال، طموح أن يكون من مشاهير البلاد.. مشاهير سيكونون أقل شأناً منه، لا لأنه يُقرضهم النقود، ويطعمهم شواء، لا.. ليس الأمر على هذا النحو، فالحقيقة الحقيقية أن عرفان، كان واسع المعرفة، وكانت روحه روح فنان، كما أنه سئم عمره بعد أن ترمّل، إذ تركته زوجته مع وحدته، وسيضاف إلى كل هذه الأسباب، أنه كان يرى بعين المستقبل.. نعم، كان يرى البلاد وقد تمزقت قطعاً، فالسلاح الأبيض والسواطير، ومئات الجثث التي يُحتَفل بموتها وهي تُساق إلى المقابر بحماس غريزي، وسط زغاريد ذويهم، قد أثخنت جراحات الناس، فبات القتل يتجول من مكان إلى مكان، وبات الخلاص أقرب إلى المستحيل.. هذا هو الحال.

لم يكن هذا حال عرفان فحسب، كان هذا حال آخر زبائن خمارة إسكندرون، أبو حطب، الروائي الذي لم يكتب رواية في حياته، والذي لا يأتي إلى الخمارة إلّا حين يكون قد تيقّن من أن الخمارة قد أقفلت، فيُطل عليها بنصف جسده، ليؤكد لعرفان خلاصة عمره، خلاصة تقول:

«كم من الآلام ينبغي على المرء أن يتحمل، ليجعل من نفسه سخيفاً إلى هذا الحد؟»، ثم يلتفت إلى أي من الزبائن الذين يستعدون للمغادرة قائلاً، وكأنما يبرئ نفسه من سلوك شائن:

ـ لست أنا من يقول ذلك.. إنه هاملت!

حين كان جلال يدلق المياه أمام بوابة المطعم، وأبو حطب يقفز متحاشياً أن يتبلل، سأله رضا ممازحاً:

ـ ما الذي يجعلك تشعر بالسخافة؟

نظر أبو حطب إلى رضا، كمن يتجول في رأس سامعه:

ـ أنت من شباب الاحتجاجات، ها؟

لم يجب رضا عن سؤال أبو حطب، ولم يكن أبو حطب بانتظار إجابة من رضا، فقد رفع بنطاله إلى الأعلى، وصحّح سحّابه، ليقول لرضا:

ـ وأنا من كهول الاحتجاج، صحيح أنني لا أتظاهر، صحيح، ولكنني أوزع بخّاخات الدهان على الشباب، ليكتبوا على الجدران شعاراتي: يسقط الصحو.. يعيش السُكر.. يسقط الموت، تعيش الحياة.. يسقط الصمت يعيش الصوت.

قال أبو حطب ما قاله، ومشى خطوتين، ثم استدرك عائداً:

ـ إنها عملية مُكلفة، علبة الدهان أعلى سعراً من قنينة العرق.. خلص أفلست، لن أتابع الثورة.. العرق أولاً!

ثم، استدار أبو حطب، وكمن يقوم بفعل بالغ الخطورة والسريّة، رفع من جيب معطفه علبة دهان بخّاخ، ثم ناول العلبة لرضا، ليؤكد:

ـ إنها فارغة، كل ما تبقى فيها هو الهواء، وسأكتب بهوائها فوق الهواء.

لم يفهم رضا ما كتبه أبو حطب، كل ما فهمه، أن أبو حطب رفع

علبة بخّاخه إلى الأعلى، وأنزل خطاً عامودياً قصيراً، ثم حرك خطه إلى اليسار راسماً خطاً مستقيماً طويلاً، ومن ثم تابعه ليرسم دائرة صغيرة، وبعدها ما يشبه البيضة، ليتوقف منزلاً خطاً عامودياً يستتبعه بوقفة ثانية، ومن ثم يرشق نقطتين على الدائرة الصغيرة، وقد نسي أن يرشق نقطتين تحت بداية ما كتب.

همس أبو حطب: كتبت يسقط.

كانت خيوط الفجر تتسلل إلى الشارع، وكان رضا يُصالب ذراعيه آخذاً وضعية المُعلّم الذي يأمر... قال رضا لجلال، وكأنه بوغت باستخلاصات أبو حطب:

ـ يا لطيف.. لقد تجاوزنا الساعة العاشرة.. لا بدَّ أن تكون الست مريم قلقة علينا... عن إذنك، أكمل أنت شطف الشارع وسأعود إليها.

ما بين خمارة إسكندرون وبانسيون مريم، ما لا يزيد عن مئتي خطوة... كان هذا هو تقدير رضا للمسافة الفاصلة بينهما، فخلال سيره نحو البانسيون كان يخطو خطوات متساوية ويعدّ: واحد، اثنان، ثلاثة، وحين تجاوز المئة خطوة بخطوة، بات يقفز كما الكنغر بقدميه الاثنتين ويداه تحيطان بصدره.

مستكشفو الفجر، ومعظمهم من الرجال العجائز المترملين، أو العتالة الذين ينتظرون بيأس وصول شاحنات الأثاث المنزلي، أو المخبرين الذين يتركون آثار النوم فوق أعينهم، تلفتوا إلى رضا، وكان كلما تلفت إليه واحدٌ منهم، تحول رضا إلى كنغر يقفز في مكانه، ما جعل واحداً من المارة البدناء، يصطدم بمحل لبيع الدهانات، ويحدث جلبة كبيرة في فجر شارع العابد المغلق، وهو يقفز مقلّداً رضا.

لم تكن رقصة الكنغر هذه غريبة عن رضا، وهو الذي يُفاجئ الجميع باقتراحاته كل لحظة، بما يجعل توقع ما سيفعل ضرباً من

الخيال واللعب مع الغيب، كان رضا يحث خياله في كل لحظة على ابتكار مقلب مع الحياة، ولهذا فرفاقه العارفون بخباياه، كانوا متقبلين لكل ما يفعل، أقله أنهم، إن لم يتقبلوه كما هو، فليس أمامهم سوى رفضه كما هو.

رقصة الكنغر، التي انتهت عند مدخل بناء بانسيون مريم، صادفت القليل من المارة المذهولين، غير أن الرقصة انتهت تماماً استعداداً للحظة لاحقة، لم يكن ليتحسب لها أو يعرف كنهها.

وهو يصعد السلم، انجرف رضا مع خيال مريم، وجهها المرهق وقد رسم الزمن حكاياته فوقه، وأنفها المغرور، وشفتيها المتقوستين وقامتها الزاهدة، جميعها صور حَلّت برأس رضا وهو يتابع صعود السلم.

لم يكن ليعير التفاتة إلى أنيس، ولم يلتقط خلجات الرجل العجوز، ولم يصغِ إلى أنين روح الرجل السبعيني المرهقة، ففور دخوله إلى صالة البانسيون، وقف وكانت مريم ما زالت مستيقظة، قال لها:

ـ سيدة مريم، حضرتك تعرفين مدى امتناني وشكري لقبولك لي، وهو ما لن أنساه طيلة حياتي، إن مجرد دخولي إلى هذا المكان، يعني بالنسبة لي أنني في عائلتي، بين ناس يمكن أن أشبّههم بحبات الرمان، حبات مصطفة، الحبة إلى جانب الحبة وأنت وحدك من تجمعينهم.. سيدة مريم، أظن أن اسمك الأساسي (آن مريم)، وأظن أن أصابعك التي ترسم هذه الكانفا معمولة لتكون زارعة، لتكون اليد الخضراء.. لا أدري حجم الخيبة التي عاشها جيلنا.. هذا الجيل الذي لم يتح له أن يعايش فاتن حمامة وأيام كلاسيكيات الثقافة والموسيقا والأزياء والحياة... يا الله لو لم أكن أكره الثرثرة لقلت الكثير.. كل ما لدي في هذه اللحظة هو أن أقول لك: سامحيني، لقد بدأت بارتكاب الأخطاء منذ الليلة الأولى التي سأبيت فيها في البانسيون... لا يجدر بي فعل

ذلك، ولا حاجة لتقولين لي أنت مطرود... سيدة مريم بوسعي أن أطرد نفسي إن شئت، وكل ما أطلبه منك هو أن تقولي لي: معليش، ليس مهماً أنك ارتكبت هذا الخطأ الصغير، وبعد ذلك لن أسامح نفسي، وسأطرد نفسي بنفسي، وسأعتذر منك البقية المتبقية من حياتي، وسأحاول التكفير عن ذنبي هذا، فقد قاربت الساعة الرابعة فجراً، ولا يصح لرجل محترم أن يعود إلى بيته في هذا التوقيت، وقولي لي ما ينبغي أن أقوله.

رفعت مريم كفيها عن أذنيها وصرخت:

ـ يكفي، معليش، ليس مهماً أنك ارتكبت هذا الخطأ.

حالما أكملت مريم، التفت رضا إلى أنيس ليقول له:

ـ سيد أنيس.. بوسعك اصطحابي إلى غرفة ماشاالله!

بدءاً من وصول رضا إلى البانسيون، بات أنيس يفكّر بأن يكون لديه مهمة أخرى، مهمة لن يكون فيها مجرد رجل يغسل الخضار والفواكه، ويُدقّق في الزبدة المتحوّلة إلى قوالب في ثلاجة مريم.. أكثر من ذلك لن يكون: «الجحش» بعد اليوم أبداً.. اتخذ قراره هذا، وهو يسير وراء رضا نحو غرفة ماشاالله، حيث توقف للحظات متلفتاً في وجه رضا ومُدقّقاً في قسماته.

بدا رضا، وكأنه كتلة من رغبات متوقدة.. رغبات طازجة.. بدا ذكَراً بقبضة يد جوّالة لم يتعرض إلى سوء الهضم بعد.

كانت غرفة ماشاالله، مقبرة لأسرار لم يعرف أحد من سكان البانسيون كنهها، وبدت مغاليق أبوابها، وكأنما قد ضاعفت من حس السر المختبئ في داخلها، والذي سيضاف إلى اسمها الغريب الذي يشير إلى ساكنة قديمة، وما ضاعف من سرّها أن لا أحد من سكان البانسيون سأل مريم: من تكون ماشاالله هذه؟!

حين دلف رضا إلى الغرفة، التي شحبت إنارتها بسبب الغبار العالق فوق مصباحها، رأى أول ما رأى كرسياً نقّالاً ضخماً، بمقعد من جلد أسود، وساعدين مُفضّضَين، وكذلك عجلات مُفضَّضَة، وحين تأمّل سريرها ذي الناموسية المرتفعة والمقابض النحاسية، بدا سريراً مهجوراً من ممتلكات الموتى.

حين غادر أنيس الغرفة تاركاً رضا بمفرده، كان رضا أحوج إلى الصراخ، وكان بحاجة إلى أن يتقدم من أنيس بالرجاء متوسلاً:

ـ نم معي.. لا ترحل.. امكث إلى جانبي!

قال ذلك في قرارة نفسه، وكان أنيس قد عاد إلى مريم ليدقق في قسماتها وفي لمعان عينيها، وكان يقرأ ملامح امرأة... امرأة متحفّزة كما راقصة، هذا ما تراءى لأنيس وقد ضاعف من تهيؤاته، عودةُ رضا المفاجئة من غرفة ماشاالله إلى الصالة.

وقف رضا أمام مريم ليقول لها:

ـ سيدة مريم، لقد بزغت الشمس.. يا الله ما أحلى ضوء النهار!

قال ذلك واتجه إلى ستارة الصالة وأزاحها..

ـ ما الذي تفعله؟ دع الستارة مكانها!! صرخت مريم، ثم: سيكون هذا آخر صباح لك عندي! ثم أردفت وكأنها ستبكي: أعدها!

حين أعاد رضا الستارة إلى وضعها الأزلي.. بدت مريم وكأنها ترغب في أن تقول له: أعد فتحها من فضلك!

وكان أنيس يُنقّل النظر بينهما، كما لو أنه نقيض المتدهور، وبعدها كما لو أنه رحّالة مُستكشِف.

منذ أن وصل إلى هذا البانسيون، لم تسأله مريم من أين جاء، ولم تتعرف على أي من فصول ماضيه، وكل ما آل إليه أنيس بعد ثلاثة عقود

من العيش في بانسيون مريم، أن بات له ماضٍ.. كان شديد الحرص، أن لا يُعكّر صفوها بالتحدث عن ماضيه السابق على هذا البانسيون، وكان ماضيها مختبئاً في شعرها المعقوص على هيئة كعكة في مؤخرة رأسها، وقد انغرزت فيه دبابيس الشعر في عنادٍ معلن، يشير إلى أنها لن تنثر شعرها فوق كتفيها أبداً.

كانا قد صاغا عقداً مُضمَراً، عقداً صاغاه على نحو يتصل باللحظة فقط، بمعطيات الكانفا، واحتياجات المطبخ، وإحكام إغلاق الأبواب قبل النوم، كما إحكام إغلاق الستائر وتتبُّع غبار المناضد وإزالته عن القرود الصينية الثلاثة التي: لا تسمع، لا تتكلم، لا ترى.

بعد صمت بات ثقيلاً، تقدّم رضا خطوة باتجاه مريم، وحين نظرت إليه، وهي ما زالت في مقعدها، بدا طويل جداً، وكانت أصابعه وهو يحكي، كما لو أنها أصابع عازف كمان.. قال لها:

ـ سيدة مريم، يبدو أن لديك كل الحق في إبقاء الستارة محكمة.. الطفيليون لا بدَّ أن يتلصلصوا على بيوت الناس من نوافذها.. آسف سيدة مريم، إن سيدة بمثل أنوثتك، لا بدَّ أن تغوي مراهقاً يمد أنفه من شقوق النوافذ ليتلصلص.

بدت إشارات رضا بالنسبة إلى أنيس، وكأنها ملامسات جنسية لمريم، فالحفريات اللغوية في الذاكرة، لا بدَّ أن تؤدي إلى إنعاش المَنسي في المرأة، وإذا ما كانت مريم قد قطعت كلام رضا بما يشبه إشارة من يدها، فلا بدَّ أن كلامه الملفوظ بنَفَس عميق، والغني بالصوت الخشن المُعشّق بالسهر، قد هزّ فيها الأنثى، بينما أنيس، الذي حجزته مريم لثلاثين عاماً وهو يتأملها، كان يطفح بالتعرق، وهو يراقب رضا ليقرأ ملامح هذا الشاب، وقد هبط ليرجّ الحياة الهادئة لحارس الملكة.

كان أنيس حارس الملكة، وكانت مريم، التي تجاوزت سن الرشد

منذ عقود طويلة، تتململ في مقعدها وهي تخطف بصرها باتجاه رضا، ثم كانت زفرتها، أكثر من مجرد زفرة بالنسبة إلى أنيس، فقد رأى فيها أمراً خطيراً، بل خطيراً جداً.

ـ سيدة مريم.. ألن تنامي؟

سألها أنيس. وكان في سؤاله هذا، يُلمّح إلى رضا بأن يغادر نحو غرفة ماشاالله التي باتت غرفته، ولكن مريم أجابت، وكانت قد غرزت رأسها تحت إبطها:

ـ لا.. وأضافت مبتسمة: ما زال الوقت مبكراً.

بدت إجابتها، وكأنها بطاقة مرور لرضا، بطاقة مرور ستُمكّنه من المكوث في الصالة واقفاً مقابل مريم، ليقول لها:

ـ سيدة مريم، إن أجمل الاستكشافات التي يمكن للمرء أن يستكشفها، هي الكشف عن سر الفجر.. يا الله كم ستكون رحلة الفجر في شوارع دمشق مبهجة.. إنها تُنشّط الذاكرة والدورة الدموية معاً، وتمدّنا بالبهجة.. أنت خلقت للبهجة سيدة مريم!

بالرغم من نسمات باردة كانت تتسلل من تشققات أبواب الشرفة باتجاه صالة البانسيون، طلبت مريم من أنيس أن يناولها واحدة من المحارم الورقية الموضوعة على منضدة صغيرة في زاوية الصالة، وحين مسحت تعرقاتها، قالت لأنيس:

ـ أشعر بأنني أتعرّق كثيراً.

التفت رضا إلى مريم، ليقول لها:

ـ الموتى لا يتعرقون، إنها الحياة سيدة مريم، إن التعرّق دليل عافية، ليتك تفكرين بمغادرة هذه الصالة والخروج في فسحة صغيرة في هذا الصباح المبكر.

قال ذلك والتقط لوحة الكانفا مدققاً فيها، ثم:

ـ انظري.. إنك تحيكين الشمس، ها هي ذي الشمس تضيء لوحتك.

ثم دقّق في لوحة الكانفا: أنت هذا الطائر، أليس كذلك؟

أية مصائد يحيكها هذا الولد حول مريم؟ تساءل أنيس، ولأول مرة منذ أن سكن هذا البانسيون يخرج أنيس عن طوره، فقد انتزع قطعة الكانفا من يد رضا ليقول له:

ـ إنك تضجرها..

قال ذلك بنزق، وبروح عدائية، ثم نظر إلى مريم بعينين راجيتين أن: دعيه يغادرنا إلى غرفته.

نهضت مريم، وقد لملمت تنورتها واتجهت إلى غرفتها، بينما مكث أنيس في المقعد الذي طالما اختاره لنفسه، فيما تقدّم رضا من أنيس ليهمس له:

ـ عم أنيس، ولم لا تخرج أنت إلى الشوارع، لتتعقب أسرار ضوء النهار وحركة البشر؟

شعر أنيس وكأنه مُمغنط في هذا المقعد، وقبل أن يُفكر في الإجابة، خرج رعد الأسمر من غرفته وآثار النوم تحط فوق عينيه وتجاعيد وجهه.

ـ صباح الخير!

قال لهما، مُكملاً طريقه نحو الممر الموصل إلى المرحاض، وقبل أن يدلف نحو الممر سأل أنيس، إن كان قد فطن إلى تحميص القهوة وطحنها، والتفت إليه ثانية ليقول له:

ـ أراك لم تحلق ذقنك على غير العادة.

كانت عينا أنيس تستطلعان ظل مريم من زجاج غرفتها المُحجّر، الزجاج المُضاء بقنديل الكهرباء، في غرفة طالما كانت أضواء النهار

تُفقِرها، وكان جسدها ينحني ثم يستقيم وينهض، وهو ما لم تعتده مريم، التي لا تلبث أن تدخل غرفتها حتى تستلقي في فراشها، وقد أظلمت غرفتها.

في ذلك الصباح بدت مريم على غير عادتها، فقد فتحت خزانتها، لتُخرج صُررها القديمة وتفتحها، وأول ما عثرت عليه كان مرآتها ذات الإطار الفضي المحاط بالورود المُفضّضة.. ومن صرتها أخرجت أقراطها، وأساورها، وقلائدها، وبعض أقلام الحمرة.

حين لامست بسبابتها قلم الحمرة، اكتشفت أنه تحوّل إلى مادة صلبة، وكذلك حال مسكريتها، كما علبة مسحوق الحنّاء التي فقدت صلاحيتها وتلفت.. بهدوء وسكينة أعادت ربط صُرتها معيدة كل موادها المخزّنة إلى خزانتها، باستثناء شال أحمر أنقذه من العث خيطه المأخوذ من دودة القز التي صُنع الشال من حريرها.

لم تستطع مريم الاستلقاء في فراشها.. لقد شعرت بأن سريرها شديد البرودة، وقررت أن تعود إلى الصالة، ففيها تعرّقت، وحين فتحت باب غرفتها ثانية ودلفت نحو الصالة، كانت الصالة مهجورة تماماً، وكانت مطحنة البن النحاسية فوق صينية، وإلى جانبها صحن القيشاني الذي اختاره أنيس على الدوام ليضع فيه بنّه المطحون الذي يكفي لاستهلاك يوم واحد، كانت رائحة البن تفوح في صالة البانسيون وتُعطّرها.

ـ6ـ

حين عزم منذ منتصف ثمانينات القرن العشرين أن يختبئ في هذا المكان المنسي، كان آنذاك قادماً من باريس على نحو حديث العهد، وكان يتناول وجبة الظهيرة في مطعم ليتوال حيث المثقفون الشديدو الفضول، يتملقون الوافد من باريس، تاركاً وراءه إرثاً لافتاً من الترجمات البارزة لأكثر الكتاب والمفكرين والشعراء الفرنسيين، أو الذين يكتبون باللغة الفرنسية، وبعضهم من أصول إفريقية، وكان كما درج على عادته، يدخل الليتوال ليأخذ مكانه إلى جانب بحرة الأسماك، بحرة تجمع أرخص أسماك الزينة، وكان يجلس منفرداً وحيداً، ليقدّم له نادل المطعم وجبته من الخضار المسلوق باللبن مع كأس نبيذ أبيض، دون أن ينسى أن يُقدّم من بين خدماته، منديلاً أبيض مكوياً ومرتباً، ليفرده الكونت أنيس على حضنه تداركاً لإمكانية أن تتسخ بذلته الإنكليزية السوداء المقلّمة بالخطوط البيضاء، وصدريتها، التي نُسجت من لون شديد الثبات هو دم الغزال ممزوجاً بخيوط من الأخضر الزيتي..

كان دخوله إلى الليتوال قد استرعى انتباه مجموعة من ضباط صغار تسللوا إلى هذا المكان وحطّوا فيه وقد وضعوا مسدساتهم فوق الموائد... مسدسات من نوع كوبري، مذهبة ومطعمة بنجمة ذهبية

فوق مقابضها، وهو سلاح لم يكن متوفراً للجيش النظامي المسلّح بالمسدسات التشيكية، كما كانت بذلاتهم المبرقطة وقد نفخت جيوبها، تشير بالكثير من الصراحة إلى كونهم من جنود النخبة التي يقودها ضابط صغير الرتبة، هو العقيد رفعت، الشقيق الأصغر لرئيس البلاد، وكان مع مجموعته، قد بسط نفوذه على المدينة، وأطلق جنوده في شوارع العاصمة، وبضمنهم نساء سلاح المظلات، اللواتي كن يشكّلن بسلوكهن القفزة الأولى نحو الاستيلاء على السلطة في البلاد، لتتنافس سرايا الدفاع هذه (وكان هذا اسمها) مع فصيل عسكري آخر لا يقل سطوة عن السرايا وهو القوات الخاصة، المُشكَلة من الجنود المدربين على المهام الخاصة، وكانت أبرز إنجازاتها اقتحام مدينة حماة السورية، وتركها حجراً فوق حجر، في حرب مع الإخوان المسلمين الذين أعلنوا المواجهة المسلّحة مع النظام، لتطلق مواجهاتهم هذه، سنوات لاحقة من بسط السيطرة البوليسية على البلاد، بما جعل الحياة السورية أشبه بحرب لا تتوقف.

كان ضباط السرايا يتطلعون إلى محاكاة المثقفين السوريين، وكان ضابط صغير برتبة نقيب، قد عقد العزم على التعرف على هذا الكائن الغريب، الذي يشبك أكمام قميصه بزرين مذهبين يتوسطهما حجر كريم، وقد جلس إلى مائدته وأمامه كتاب لا يفارقه حتى وهو يتناول كأس نبيذه.

حين توقف النقيب أمام أنيس باغته بالسؤال:

ـ ما هذا الكتاب؟

بكثير من التردد الممتزج بلسان متلعثم أجابه أنيس:

ـ إنه ديوان شعر.

ـ شعر؟ تمام... إنني أحب الشعر. لمن؟

ـ للشاعر الفرنسي جاك بريفر.

ـ وهل تقرأ الفرنسية؟

ـ أنا أترجم عن الفرنسية.

ـ عظيم.. طابور خامس.

لم يكن أنيس اعتاد هذا النوع من المصطلحات أو ترجمتها، كانت كلمة طابور، تعني بالنسبة إليه مجموعة مصطفة من الناس، في خط مستقيم، بانتظار الحصول على بطاقة لحضور مسرحية، على سبيل المثال، أما ترتيب هذا الطابور ووضعه في المرتبة الخامسة، فلم يكن قادراً على استيعابها، ومع ذلك صمت متأملاً بما يقوله النقيب الذي تابع:

ـ لم لا تترجم شعراء الثورة والأمة؟

ـ مثل من؟ أجابه أنيس.

ـ مثل نجيب علم الدين.. سليمان العيسى.. صابر فلحوط.

بدا القصور العقلي واضحاً على أنيس، بل بدت عليه ملامح البلاهة المعرفية، ولبضعة أسباب اعتقد أن هؤلاء الشعراء ليسوا على قيد الحياة، وحين سأل:

ـ أعطني دواوينهم لأترجمها إلى العربية.

عندها صفق الضابط كفاً بكف، وأطلق ضحكة مجلجلة، ثم صمت لثوان وقال لأنيس:

ـ يا جحش.

اعتقد أنيس أن ثمة ما اغتُصب فيه، وكان عاجزاً عن تقبُّل وصفه بالجحش، لا لأنه متعالٍ على المخلوقات الفقرية الأخرى، بل لأنه اعتقد أن ثمة نكهة شتيمة وراء هذا الوصف، وحين نهض عن مائدته، وتحرك

نحو باب الليتوال، كان قد تحوّل إلى نكتة... نكتة أضحكت المثقفين المجاملين الذين شاركوا الضباط موائدهم، والذين اختاروا السُكر المجاني الباذخ، وتحولوا إلى مطربين يمتحنون أصواتهم، بين ضباط سئمين من ثكناتهم، ضباط يبحثون عن لذة تزيل غبار المناورات الحربية عن أحذيتهم، بسيقانها المرتفعة، ومقدماتها الضخمة.

بابتسامة متقوسة على جانب الشفتين، غادر أنيس الليتوال، وحين دخل بانسيون مريم، اتخذ مكانه في زاوية من غرفته، وكتب رسالة إلى صديقه ومحاوره جان بول سارتر، كتب له: سيأكلنا الذباب.

كتب ذلك لجان بول سارتر، على أمل أن يدقق سارتر برسالته، عكس ما كانا عليه في باريس، حيث طالما شعر أنيس بتجاهل الفيلسوف الفرنسي لمحاورِه، وكان على اعتقاد راسخ بأن سارتر رجلٌ منزوع العواطف والانفعالات، بل رجلٌ يحط من شأن محاوريه وهو يزيح بصره عنهم.. لم يكن أنيس قد فطن إلى أن ثمة مشكلة في عيني جان بول سارتر، مشكلة اختارتها أقداره، وهي أنه رجل أحول.. أحول بعينين تتجه كل منهما إلى الجهة المعاكسة للجهة الأخرى، ونحو الاتجاه الوحشي من وجهه، ولم يكن أنيس قد صحّح اعتقاده الراسخ هذا، ما دفعه إلى ركن رسالته فوق منضدة إلى جانب سريره.. رسالة، زادت على: «سيأكلنا الذباب» بالقول:

سيدي، إنني أشهد بأن الفلسفة لا تكتب تاريخ نوعنا، إن ما يكتب تاريخنا هو القوة.. القوة هي اللحظة، والتاريخ هو تراكم اللحظة.. تراكماً عشوائياً يا سيدي، وكرّر جملته الأولى: سيأكلنا الذباب، يا سيدي!

كتب ذلك مستعيناً بعنوان للمسرحية الأبرز من تراث سارتر الأدبي، ولكنه لم يرسلها بالبريد المضمون، لا تخوفاً من تجاهل سارتر

لرسالته فقط، وإنما لسبب إضافي، وهو الخوف من أن يخرج من بوابة البانسيون إلى شوارع العاصمة التي ربما سيأكله ذبابها.

كانت مكتبته شديدة التواضع والحياء، وكانت معظم كتبه تنتمي إلى الرومانسية الفرنسية، ومن أبرز كتبه، كتب شارل بودلير، وأضاف إلى مكتبته هذه كتاباً تؤول ملكيته إلى ناصر، وقد تسلل إليه خلال حملة لتنظيف البانسيون، كتاب بدا وكأنه خارج المزاج، وهو كتاب 1984 لجورج أورويل، الذي قرأه لأكثر من مرة، ضاغطاً بقلم رصاصه، ليثبّت على هوامش الكتاب، استخلاصات رجل تدهشه البديهيات، وقد أضافت هوامشه، هوامش جديدة على الهوامش التي ثبّتها ناصر. وكان من السهل التمييز ما بين كلا القارئين، من خلال استخدامهما للغتين مختلفتين، فقد كانت هوامش الأول مكتوبة باللغة الإنكليزية، فيما هوامش الثاني مكتوبة باللغة الفرنسية، ولم يكن لناصر، لا الوقت، ولا المزاج، ليكاشف بحقيقة السرقة التي ارتكبها أنيس، وهو الرجل المناقبي، الذي لم يكن ليمد يده إلى ما لا يملكه.

في السابعة تقريباً، كانت ساحة السبع بحرات تغصّ بالمسيرات المؤيدة للسلطة، وكان الموظفون الحكوميون، يصلون إلى الساحة بحافلات حكومية تُقلّهم إلى مكبرات صوت ضخمة، تطلق أغانٍ متكررة، محفوظة، ترقص عليها ربات منازل، ما زال النوم ورائحة التوابل تطفح من ثيابهن، نساء يعشقن، بكل الجدية والزهد، رئيس البلاد وسلطتها، ورجال حالهم كذلك، ونساء أخريات قادمات إلى الساحة، مدفوعات بتنفيذ أوامر أرباب العمل، ومجموعات من الفضوليين الذين تغريهم الاحتفالات والرقصات الجماعية، والاهتزاز على أصوات المكبرات التي تطلق أغاني وطنية راقصة.. كانت الدوافع

مختلفة، ومما لا شك فيه، أن ثمة من وصل الساحة، دفاعاً عن نظام يؤمن بشرعيته.. شرعيته هو أو: لا أحد.

بدت بذلة أنيس فضفاضة أكثر مما يحتمل، ولكن ببيونته الصفراء وزري قميصه، ما زالا محتفظين بسحرهما القديم. كان أنيس قد ضَمُر خلال الثلاثين عاماً الفائتة، وبات حاجباه طويلين يغطيان جزءاً كبيراً من عينيه، كذلك كان قد فقد نصف شعر رأسه، ولكنه حافظ على التنسيق المتقن للنصف الثاني الذي غطى جزءاً من منتصف الرأس واسترسل على كتفيه.. بدت بذلته فضفاضة وبدا وهو داخلها وكأنه عاهة.

كان يتعثر بالمتظاهرين المؤيدين الذين يكررون كلمة «منحبك»، مخاطبين بها رئيس البلاد «المحبوب»، الذي كرّسته لافتات الشوارع، التي استغرقت في وصف الحريات، واعتبرت أن التظاهرات المضادة للنظام، هي وريثة المؤامرات الكبرى. وحين وقف عند الشارة الضوئية على تقاطع ساحة السبع بحرات مع شارع 29 أيار، كان صوت واحد قد احتل أذنيه، وحوّلهما إلى مائدة للذباب، كان الصوت، هو تلك التكتكات التي تطلقها شارة المرور، المخصصة للمكفوفين، للإعلان عن أن الطريق بات من حق المارّة.. بدا له أن تكتكات شارة المرور قد غطت على أصوات المتظاهرين وهتافاتهم، كما انتزعت حنجرة المطرب الريفي الذي يطلق صوته في هذا الفضاء، وخلفه صورة ضخمة للرئيس المحبوب، وقد غطت واجهة المصرف المركزي السوري، وتحتها بنات يافعات يلففن أجسادهن بالعلم الوطني، ويتمايلن في إعلان صريح عن شهوات باذخة... شهوات لا بدَّ أن للجنس فيها تعبيراته، التي تتجاوز تاريخ الانضباط الجنسي الذي حصّن سمعة البلاد.

حين مكث لفترة طالت وهو يقف عند الشارة الضوئية، كان المتظاهرون المؤيدون يتعثرون به، وكانت واحدة من النساء المتظاهرات

وهي بالغة البدانة، قد نظرت إلى حذائه الإنكليزي بلونيه الأبيض والأسود، وتمتمت كلمات مغمغمة، تخوّف بأن تكون تكراراً لمفردة: يا جحش! وحين دقّق النظر بالسيدة البدينة ابتسمت له، ثم اقتربت منه هامسة لتقول له:

ـ مشتهية آكلك!

لم يفهم أنها كانت تقصد أن تقول له: مشتهية أن أضاجعك!

ولكنها أضافت: عندك بيت؟

ثم تابعت: إذا لم يكن (وفقعت ضحكة ماجنة) عندي.. ثم أشارت بيدها: على مقربة من هنا... هنالك بيت.

وحين وقف متردداً كما الأبله، قالت البدينة المرهقة، مشيرة إلى ما بين ساقي أنيس:

ـ يووه إذا كان (....) مثل أذنيك.. يا سلام!

أدرك أنيس أن كلام السيدة البدينة، يحمل نوعاً من الطراوة والتوهج، واستبعد أن تكون قد قصدت بما قالته النيل من كبريائه، ولكنه بات مسكوناً بالتحسب والخوف، فالهراوات المكهربة، ورجال الاستخبارات الذين يرتدون البيجامات الرياضية ويحددون لحاهم بموسى الحلاقة، كما المتظاهرين الغاضبين على حركات الاحتجاج... أيقظت بمجموعها تخوفات أنيس وكان قرر لحظتها أن لا يعود الرجل الخائف الضعيف.

قال مخاطباً نفسه: سأعود إلى البانسيون، وسأقول لها بالفم الملآن... أنا الملك.

في هذا اليوم، وزعت مؤسسة الاتصالات الهاتفية الخليوية، رسالة ممهورة بتوقيع: (فريق شباب دمشق التطوعي)، وجاء في الرسالة:

«ندعوكم إلى مسيرة حاشدة اليوم 12 ظهراً في ساحة السبع بحرات تحت عنوان: مستمرون في الإصلاح ومحاربة الإرهاب».

ومن الواضح من نص الرسالة، أن المسيرة كانت (حاشدة) ما قبل حدوثها، فالسلطات، وأحزاب الجبهة، أعدت جمهورها الذي واصل طريقه إلى ساحة السبع بحرات قبل التوقيت المحدد له بساعات، وكان جمهوراً يتصرف عفو الخاطر، جمهوراً يستجيب للرغبة في البقاء على قيد الحياة، جمهوراً لا يملك المال ولا الأثاث، ولا بدَّ أن لكل واحد منهم قصة يسردها، قصة هي مخزون من الجروح، والإهانات، والمطالب غير المتناسقة.

كان في الساحة ما يربو على عشرة آلاف شخص، أطفال رضّع ملفوفين بالأقمطة مع أمهاتهم من الموظفات الحكوميات، سيدات متحمسات بعضهن يحمل بطوناً منتفخة، وثمة مسنون قادمون إلى الساحة، مسنون سبقتهم الشيخوخة مع أن معظمهم لم يتجاوز الستين عاماً، غير أنها أعوام محاطة بماضٍ لا بدَّ أنه مهشم ومُدمى.

كانت السلطات الأمنية حشدت هؤلاء من الدوائر الحكومية، إضافة إلى هوامش تحيط دمشق، أحياء اتخذت أسماء غير مفهومة المصدر أو الدلالة، مثل عش الورور، والـ 86، ونهر عيشة، مع أنه ليس ثمة أقنية صرف صحي في هذه المنطقة التي تدلق فضلات سكانها فوق البيوت.. بشر كان سكان المدينة من الدمشقيين الأصليين ينعتونهم بأنهم: «لا يستحقون الحياة» ويشاركهم هذه الرؤيا فلاحون قادمون من الأرياف القصية، أثروا من رساميل النفوذ والفساد، وباتوا يتعالون على جذورهم البعيدة، مع أنهم استثمروا عمليات المسخ الواسعة التي طالت الأرياف لاستتباب النظام، كما لتكريس سلطة القاذورات، وبدت البلاد وكأنها على حافة حرب أهلية.

كانت بيجامة أنيس ملقاة فوق مقعده في الصالة، وكانت مريم

تتفحص البيجاما وكأن أنيس مطوي فيها، باحثة عن أنيس الذي لم يغادرها إلا ليلبس بيجاما متطابقة معها.. وعندما اتجهت صوب غرفته كاشفة الغطاء عن سريره لم تعثر على أثر لأنيس، وكانت بيجامته الثانية معلّقة فوق حامل الثياب.

مشاعر الخوف التي انتابت مريم دفعتها للبحث في غرف البانسيون، فدخلت أول ما دخلت غرفة ناصر، الذي كان يغط في نومه محتضناً وسادته، وهو يلف ساقه فوق ساقه الأخرى، غارقاً في زواجه الذاتي منذ ليله الفائت، وحين غادرت غرفة ناصر، ظهر رعد الأسمر في صالة البانسيون، ليقول لها وهو يحتضن جذعه:

ـ أنيس غادر مبكراً... هل أعد لك قهوة الصباح؟

كان رعد يتسلل في هذه اللحظة من شقوق فتحات غياب أنيس، وكان في مراميه البعيدة، راغباً بأن يحكي متمكناً من سرد قصصه القديمة دون تذمرات أنيس، قصصه التي تبدأ بكاتالوج الظلم الذي يخزّنه من ذاكرته برفقة صدام حسين.. لا ليستدر الشفقة، بل ليغرق في الاحتجاج دون أن يتوقف سوى للهاث.

مستنداً إلى درابزين الحديد، صعد أنيس الدرج، وكانت أنفاسه المتقطعة تعبيراً عن صدمة لحقت به، أكثر مما كانت تعبيراً عن ضيق في جهاز تنفسه.

ـ لن أعود منظف نفايات.

قال ذلك بصوت مسموع، ولكن لم يكن من الوارد أن يسمعه أحد، فباب البانسيون مقفل، والسلم خالٍ من البشر، وليس سوى ثمة كيس زبالة ملقى على الحافة.. كيس يحمل زبالة جيرانه الغامضين، الكسالى، الذين يعجزون عن متابعة السير وصولاً إلى الشارع، ومن ثم إلى الحاوية، لإلقاء فضلات ليلهم، التي ستكون على الغالب، من عظام الدجاج وعلب المايونيز الفارغة، وزجاجات المياه الغازية.

لأول مرة يحدث أن يزيح أنيس الكيس بقدمه، دون أن ينحني ليحمله ويذهب به إلى الحاوية وهو يتمتم: بشر قذرون!

مشاعر الضياع استوطنت الرجل السبعيني وهو يتابع صعود الدرج، ليتوقف عند باب البانسيون، ولكنه طرق الباب، متجاوزاً هذه المشاعر، ليكتشف بعد طرقات متوالية أن يده تلوح في الفراغ وليس فوق قبضة الباب، وحين أصاخ السمع مصغياً إلى أصوات الداخل، بدت أذناه أكبر من حجمهما، لنحول إضافي حلَّ به منذ فجر هذا اليوم.

ثانيةً عاد ليطرق الباب، كانت مريم قد فتحته دون أن تُدقق النظر بوجه أنيس، فقد استدارت لتعود إلى مقعدها دون أن تسأله: أين كنت؟

كانت حركتها هذه تمثّل تأنيباً لأنيس الذي لم يقرأها على الوجه الصحيح، بقدر ما اعتقد أنها بداية نسيانه والاستغناء عنه.

حين تابع إلى الداخل، وجد صينية القهوة وفوقها فنجانين فارغين، وحين دقق أكثر، رأى راسب البن في قعريهما، وسطحهما الداخلي ممتلئ بخطوط الحظ.

أمسك يده بيده، وتابع الدخول إلى غرفته دون أن ينطق بكلمة، كان يتكئ على يده وهو يجر قامته المعوجة نحو غرفته، وهذا ما لحظته مريم المعاندة، التي لن تقول له ما تحمل في رأسها من أفكار: أقلقتني!

حين أفرد كتبه فوق سريره، كان الكتاب الأكثر ثقلاً من بين هذه الكتب، كتاباً يحمل عنوان: هكذا تكلم زرادشت، حمل أنيس الكتاب وألقى به أرضاً وهو يقول:

ـ ألفا عام من الحكمة... لست بحاجتك أيها اللعين!

-7-

هذا الصباح، بلغ رضا الثالثة والعشرين عاماً من عمره، وهو يتمتع ببنية تصل حد الكمال، أطراف قوية ومنسجمة وأنيقة، وكذلك الأمر بالنسبة لطول ساقيه المتناسب مع طول فخذيه، وقد فطن إلى عمره نتيجة رسالة التهنئة التي وردته من شركة اتصالات الخليوي، وقد قرأها على شاشة هاتفه النقّال.. وحين نهض من فراشه مدققاً النظر في غرفة ماشالله، توجه أول ما توجه إلى زجاج النافذة ليلصق وجهه فوقه.. كان في هذه اللحظة يعاني رُهاب الاحتجاز وضيق التنفس، وكان يرغب في أن يكسر زجاج النافذة ويخرج منه، وحين أزاح وجهه عن الزجاج، تأمل في مفردات غرفة ماشالله، ليخرج باعتقاد يقول بأن ثمة شخص ما مدفون تحت بلاط هذه الغرفة، أو وراء واحد من جدرانها، ولكنه كان يعلم أنه يذهب بهذا الاعتقاد نحو تأليف حكاية أكثر مما تحمل أفكاره أياً من عناصر الوقائع التي تقوده إلى التدقيق فيما وراءها.

كانت جدران غرفة ماشالله، ممتلئة بصور لوجه امرأة تُحدّق مباشرة وبرزانة خارج الإطار، صور بالأبيض والأسود، باتت نتيجة الرطوبة، ومرور الوقت، تأخذ لوناً بنياً، بدت المرأة وكأنها تُحدّق فيه، وكان وجهها لا يخلو من سحر، وما كسر حس الأسطورة عن هذه

الصورة، كان توقيع المصور الأرمني كارابيت، المذيَّل في أسفلها، توقيع يقول بأن يداً إنسانية صنعت هذه الصورة، وليس قوة سحرية قادمة من الما وراء، كان كارابيت قد مهر الصورة، إضافة إلى توقيعه، بتوقيت التقاطها: عام 1948.

إلى جانب هذه الصورة كانت صورة ثانية مُدلاة، محمولة على خيط قنب بالغ الطول، يضمها إطارٌ متطابق مع إطار الصورة الأولى، صورة للمرأة ذاتها، وهي تحضن وليداً لم يكن من اليسير التعرف إن كان ذكراً أم أنثى، ولكنها ممهورة بتوقيع كارابيت أيضاً، وكان التاريخ مغفلاً عنها نتيجة انمحائه بفعل الزمن أو الحك، وتحت التاريخ خط يشكل نصف قوس محكوك أيضاً، ولكن آثاره ما زالت ماثلة.

لم يكن في حمّام البانسيون أية قطعة نسائية، قطعة من مثل سروال داخلي، قميص داخلي، مناديل تستهلكها العادة الشهرية للنساء، حتى ليف الحمّام المخصصة لتدليك الأجساد، كانت متماثلة، وليس فيها ما يشير إلى جنس مستخدمها، وحين دقق النظر بصنبور المياه، وكان يُنقّط لخلل ما أصابه، وفتحه من جهة الماء الساخن، لم يعثر على ماء ساخن.. كان الماء شديد البرودة، ولكنه تابع تنظيف أسنانه بسبابته، وغسل وجهه وتابع تنظيف أنفه، وقبل أن ينشف وجهه، تأمّل قسماته.. نظراته المتّقدة كشعلة نار، وأنفه الروماني النمط، وجبينه العالي وشفتاه المكتنزتان المقلوبتان. وجد نفسه وكأنه ينتمي إلى أرستقراطية مدنية لم ينتمِ إليها في واقع الحال.

لم يكن من مبادئ مريم التنصت إلى أصوات الناس أو التلصّص على خصوصياتهم، ولكنها قبل أن تلتفت باتجاه الحمّام، حيث ترك الصنبور مفتوحاً، لمحت رضا يدخل الصالة، كان بكامل ملابسه، باستثناء جوربيه وحذائه.

قال رضا:

ـ ما زلت بلا نوم.. كان عليكِ أن تغالبي نفسك وتنامي!

جاء اقتراحه هذا كأنما يعاتبها، مع أن اقتراحه حمل صيغة الأمر، فاعتذر على الفور عن هذا الخطأ الصغير مصححاً:

ـ الحياة يا سيدة مريم، نصفها للنوم.. نصفها بالضبط، بالسنتيم والمكيال. من الخطأ أن نرهق أعيننا.. خاصة إذا كانت من العيون التي لا تُنسى، والتي تعكس روحاً مشرقة.. العيون التي لا بدَّ من رعايتها والصلاة من أجلها.

ثم أضاف:

ـ ربما أكون مخطئاً سيدة مريم!

قال ذلك وضرب صدغه بكفه وكأنه يستذكر درساً:

ـ أحياناً أجد نفسي أحمق.. ما معنى أن نتقبل أن يكون للحياة نصف؟ أيّ نصف؟ نصف للنوم، وآخر لليقظة لتستمر فينا الحياة على هذا المنوال.. نوم، فكوابيس، فمنامات لا أعرف ربها، ثم استيقاظ، ففرك أعين، فحمّام، فجلوس على الكنبة، فإفطار وعودة إلى النوم وفرك العيون، والإفطار، بما يجعل الوقت دائرة تكرر نفسها.

وحده من بين سكان البانسيون الذين تبدّلوا، ولو بشكل محدود جداً، يعطي الأوامر ويثرثر على هذا النحو مع مريم، ووحده بات قادراً على السيطرة على لحظتها والتسلط عليها، هذا ما قالته مريم لنفسها قبل أن تخفي ابتسامتها لتقول له:

ـ لماذا تركت صنبور الماء يُنقّط؟

ـ ألم يسبق أن نقّط صنبور ماء؟

أجابها وتابع: صنبور الماء هذا لا يؤمن بأن الزمن دائرة، ولهذا تجدينه ينقّط ويجف ويسيل ويخرب.

دون استئذان، أعطى رضا نفسه الحق بالاتجاه إلى جهاز التلفاز وفتحه، وقبل أن تستقر الشارة على التلفزيون الحكومي، حيث يحتشد الآلاف لتحية رئيسهم منددين بالإرهاب والعصابات المسلّحة، تحفّزت مريم وصرخت بوجهه:

ـ أطفئ التلفاز!

أطفأ رضا التلفاز، واستدار متوجهاً إلى مريم:

ـ كل الحق معك سيدة مريم، إن هذا الجهاز وهذه المحطة هي من تكرر الزمن منذ أربعين سنة، الحق معك.. كل الحق معك.. ولكنني كنت أبحث عن محطة أخرى لأعرف كم بلغ عدد قتلى اليوم.

ـ قتلى ماذا؟ قالت مريم مترددة.

ـ قتلى اليوم وكل يوم.. سيدة مريم منذ عشرة أشهر ولكل يوم قائمة من القتلى.. قائمة تطول وتقصر... لا نعرف كم بلغ طول قائمة اليوم.

كان صبر مريم قد نفد، وكانت عودة أنيس إلى الصالة تمثّل إعتاقاً لها من هواجس ابتعدت أكثر عن أخبار القتل الغامضة التي ينقلها هذا الصبي في هذا الوقت المبكر، ولكن أنيس، بدا على غير عادته، كان ما يزال يرتدي بذلته الفضفاضة، وفراشة عنقه وكذلك حذاءه الأبيض والأسود، وحين التفتت إليه متسائلة، أيقنت أن ثمة انقلاب فظيع حلَّ بالمكان منذ أمس وفجر ومطلع نهار واحد..

ـ أنيس!

قالت مريم مخاطبة أنيس، وحين التفت إليها متحفزاً لسماع ما ستقوله، قالت مريم:

ـ هل رأيت قتلى وأنت تتمشى في الشوارع؟

وكأن سؤال مريم، ردّد في سر أنيس ما هو مشترك مع ما يحمله

رأس مريم، فقد ظهر سؤالها وكأنه سخرية مما قاله رضا، بل وتشكيكاً في عقل هذا الصبي، وربما إسكاتاً له عن المضي في الحديث عن قوائم الموت هذه، ولكن أنيس المُتحفّز للإجابة عن كل ما تطلبه مريم، أجابها بأنه رأى الكثير من البشر، وهم يحملون أعلاماً وصوراً وينشدون ويرقصون.

ولأنه أدرك أنها غير مبالية بما يقول، لم يذكر لها العرض السخي الذي قدمته السيدة البدينة التي ستأكله، وهي نتيجة قادته إلى المقعد ذاته الذي جلس عليه طيلة ثلاثة عقود فائتة، ولكن ببذلته وفراشة عنقه هذه المرة، وكانت أصوات تتسلل من الخارج إلى الصالة، أصوات احتفالية باتت تعلو وتعلو وتعلو وتقترب، وقد انبعثت من مسيرة سيارة، كانت مكبرات صوت السيارات هي من يطلقها.

حين التفتت مريم نحو الخارج، أشارت لأنيس بأن يُحكِم إغلاق الستائر والنوافذ، وحين نهض، نظرت مريم إلى رضا لتقول له:

ـ لا تلمس النوافذ مرة أخرى، ولا تحرك الستائر.. مفهوم؟!

قالت ذلك، بما يُشبه الرجاء، والتفتت إلى أنيس لتقول:

ـ كلّها بضعة أيام وسيرحل عنا، معليش هذه هدايا جلال!

حلَّ المساء، ولم يكن قد تبقّى من بسطة الصحف اليومية عند بائع الصحف، على مفترق الصالحية ـ البرلمان، سوى نسخ محدودة من صحيفة الأخبار اللبنانية، وكان جلال مواظباً على اقتنائها، وكان حديث جلال مع بائع الصحف، حديثاً شائقاً في العادة.. فقد بات عادل بالنسبة إلى زبائنه الموثوقين، بمثابة الأرشيف اليومي لعناوين الصحف، بحيث يُقدّم نصائحه لزبائنه بقراءة هذا المقال أو ذاك. وكان جلال يقف وإلى جانبه ريتا، فيما عادل يطوي الصحيفة ليناولها إلى جلال، وكان المخبرون بملابسهم المزرية يملؤون الطرق، وما إن

أخذ جلال الصحيفة، حتى بادره واحد من المخبرين بالقول:

ـ وكأنني أعرفك.

كان جلال أكثر قوة وحرصاً وتماسكاً، من أن يقع في الأخطاء الصغيرة التي يسوقها النزق، أو التذمر، أو ردود الفعل الغاضبة، ولذا فقد وضع يده فوق كتف المخبر ليقول له:

ـ أظن أنك مخطئ... مع ذلك بوسعنا أن نتعارف.

ـ لا.. إنني أعرفك وإنني متأكد من أنني أعرفك.

ـ عظيم، وماذا بعد؟

ـ لا.. ولا شيء، ولكن قل لي ألست من تل اللوز؟

بينما كانت ريتا منشغلة بِحثّ جلال على مغادرة المكان، تذكر جلال التفاصيل الصغيرة كما بانوراما... تل اللوز، قريته البعيدة في جبال الساحل السوري، ومع حضور تفاصيل القرية، تذكّر من بين ما تذكّر، مقهاها الصيفي المحاط بأشجار الدلب، وهو كوخ واطئ، ذو سقف من القصب مشغول بمهارة، مقهى عالق بين أزقة صاعدة، وسناجب تقطف ثمارها من أكتاف الزبائن الذين يلفون سجائرهم ضاحكين، مقهى يقوم على خدمته رجل مسن بلا أسنان، يرتدي غطاء رأس تالفاً، يضحك على نكات زبائنه ويحكّ رقبته الضامرة، ومع كل ضحكة يخبط قدمه في الأرض مُحدثاً زوبعة من الغبار:

ـ آه.. هل أنت ابن العم خضر؟ سأل جلال.

ـ لشد ما تعجبني الفراسة.. حزرت!

قال المخبر ذلك، وربت على كتف جلال بشيء من المودة، وتابع:

ـ كيف عرفتني.. من دمي ها؟

ـ من دمك.. نعم!

ـ منذ صغرك كنت ذكياً. قال المخبر لجلال، متابعاً وكأنه يستحضر صورة محببة بالنسبة إليه:

ـ كنت تعزف على العود، أليس كذلك؟ هل ما زلت؟

أجابه جلال:

ـ نعم ما زلت.

ـ أولاد الخنازير أحدثوا فوضى في البلد وقطعوا أرزاق الناس.. ليس ثمة ملهى واحد يعمل في البلد.. كيف تتدبر عيشك؟

بدت أسئلة المخبر ابن العم خضر، أسئلة قلقة، ولكن جلال كان على علم بأن تل اللوز، القرية المعزولة، عاشت، لأزمان متصلة، على بيع بيض دجاجها، وعلى منتجات التبغ التي يصدرونها للريجي، وقد بات اسمها إدارة حصر التبغ والتنباك، وكان يعرف الكثير عن حياة أهالي تل اللوز، الذين حلّت بهم اللعنة الحكومية، حين بات شبابها ينخرطون في وظائف حكومية، معظمها في أجهزة الاستخبارات والجيش، ليتطوعوا برتب صغيرة، لحراسة مبانٍ غامضة يتسجّى في أقبيتها الكثير من الموتى ضحايا الاعتقال..

كان جلال يعرف الكثير عن قريته التي غادرها والداه ما قبل مولده، واستقرا في العاصمة بعد رحلة شاقة، تنقلا خلالها من قارّة إلى قارّة، بإخلاص قلَّ نظيره للبحث العلمي، وقد باتا أستاذين جامعيين، يحيطان كلية الصيدلة برعاية فائقة، فيما ابنهما الوحيد جلال، يحضّهما على جلب جدته للعيش في كنف الأسرة، كي لا تموت بمفردها ضامرة، وقد برزت عظام وجهها من خديها.

في زيارة خاطفة إلى تل اللوز، تمسكت جدته بسترته، وهي ترجوه أن يمكث عندها، معاندة اقتراحاته بالذهاب معه إلى العاصمة، وكانت الجدة تقرأ الكثير عن الأيام المقبلة للبلاد.. كانت على علم بما ستؤول

إليه الأحوال، ممتلئة بالاعتقاد أن لعنة ستحل بهؤلاء الناس، وبأن العواصم تطرد الغرباء حتى ولو كانوا يحملون مفاتيح الجنة، وكانت الجدة تُكنّ الكثير من الاحتقار للمتطوعين في المؤسسات الأمنية الذين يعودون إلى القرية، بسترهم الجلدية السوداء المحكوكة من أكتافها وأكمامها، وكانت، بكثير من الرجاء، تردد على مسمع جلال:

ـ تعال وازرعها!

ثم تلوّح بكفها الصغيرة، مشيرة إلى أراضٍ واسعة محاطة بالتلال الصغيرة، ثم تمسك بشتلات التبغ لتقول:

ـ كل ورقة من هذه تساوي شهادات والدك ووالدتك!

حين أعاد جلال النظر إلى وجه المُخبر الساذج، بدا وكأن المُخبر يتسول قبول جلال لصداقته، وحين طال وقوفهما، كانت ريتا قد احتقنت وتعلقت بيد جلال لتقول له:

ـ تأخرنا عن موعدنا.

ـ بالتأكيد!

قال لها جلال وهو يتابع السير حثيثاً، قاطعاً شارع العابد نحو المفترق الذي سيقوده إلى بانسيون مريم.. قال لها بالتأكيد، وكانت ريتا راهنت، على أنها قادرة على منع نفسها من التبول في ملابسها، مؤكدة:

ـ إن المثانة الآدمية، لا بدَّ أن تتوافق مع إرادتنا بشيء من التدريب.

كانت تتحدث إليه، وهي تعاند آليات جسد طالما استقل عن إرادتها، وكانا وهما يتجهان إلى بوابة البانسيون يتشاركان عواقب مثانة واحدة.

ما حدث منذ مساء الأمس، جعل سكان بانسيون مريم مرهَقين أيّما إرهاق، فالحياة الطويلة التي كرّرت وقائعها على مدى عقود، واجهت ارتجاجاً فظيعاً منذ وصول رضا إلى هذا البانسيون.. كان الأرق قد حلَّ

بمريم، وكانت مخدتا عيني أنيس قد برزتا إلى الأمام محاطتان بهالتين زرقاوين، وقد خلع بذلته وعاد إلى ارتداء بيجامته المخططة وخفّيه، تاركاً ملابس الفجر فوق سريره دون ترتيب.

على وقع طرقات الباب، نهض أنيس ليفتح باب البانسيون، ليكشف نصف الباب المفتوح عن ظلين هما ظلا ريتا وجلال.

ـ ادخل! قال أنيس لجلال.

قال ذلك وكأنه استثنى ريتا من الدعوة إلى دخول البانسيون، ولكنها دخلت بخطوة متأخرة عن خطوة جلال، وحين توسّطت الصالة، بدت وكأنها تبحث عن ممر باتجاه الحمّام، متجاوزة تقاليد الاستئذان، التي تعطي لمستخدمي مراحيض الآخرين شيئاً من اللياقة الضرورية، إزاء أمر لا يليق بزائر لبيوت بشر لم يتعرف عليهم بعد، لياقة تتطلب الاستئذان المسبق لاستخدام حمّاماتهم.

بعد أن أشار لريتا ليدلها على الممر الموصل إلى الحمّام، استأذن جلال مريم:

ـ مسكينة.. كادت أن تعملها على ثيابها.

مشيراً إلى ريتا التي كانت غادرت الصالة واختفت في الممر.

حين جلس جلال على المقعد بمواجهة مريم، وكأن الطريق الطويل إلى البانسيون انتهى بدخول ريتا إلى الحمّام، سألها:

ـ ما هي أحوال رضا؟

تلألأت عينا مريم، وانكمش أنيس، ثم أجاب بصوت مرتجف:

ـ شكراً على هداياك.. صاحبك لإقلاقنا، والثانية إلى الحمّام.

لم يكن صوت أنيس الهامس، ليصل الغرف المجاورة، حيث يُحدّق ناصر من وراء زجاج غرفته، مصوّباً نحو فندق القيروان، وقد ظهرت سيدة بدينة بثديين فائرين، وهي تنفض سجادة صغيرة مدلاة من

الشرفة، معيدة بذلك الحياة إلى مكان ظن ناصر أنه بات مهجوراً، وبطبيعة الحال لم يكن ليصل إلى الحمّام حيث جلست ريتا وقد أفرغت مثانتها، ورفعت سروالها دالقة الماء خلفها لتخرج نحو الممر، ومن ثم لتقف متأملة ثريات الخرز المتدلية من السقف، وقد حُملت على روافع نحاسية ثمينة، فيما كان بيانو قديم من أجود أنواع الأخشاب يستند إلى جدار الممر، وكأنه يحكي ذاكرة زمن أقدم من عمر المكان نفسه.

نعم، ثمة ذاكرة للأمكنة تحكي طفولة المكان وشبابه وشيخوخته، المكان كما البشر يحزن ويفرح ويبكي ويتذكر، وربما يحتجّ، كان هذا ما نقلته عينا ريتا من الممر الفاصل ما بين الحمّام والصالة، وإلى اليسار كانت غرفة ماشاالله، التي ما زال رضا نائماً فوق سريرها النحاسي، المغطى بناموسية مرتفعة تلتصق بالسقف.

حين فقدت ريتا مقاومتها على ضبط نفسها، وضغطت بأصابعها الصغيرة أصابع البيانو، أحدثت ضجيجاً في المكان، ثم عاودت لتضرب فوقها مقطوعة صغيرة من حركتين صغيرتين من موسيقا لفاغنر، بدت فجة وثقيلة جداً، ولكنها باختلاطها مع كلح الجدران، بدت موسيقا أسطورية ساحرة، ساعدتها في تذوق جحيم المكان، وبمزيد من حث النفس على الخروج من الضغط النفسي، استرسلت ريتا في العزف، لتؤدي بإضافتها حركة ثالثة إلى مقطوعتها، مزيداً من سوء الفهم.

كانت مريم قد خرجت عن طورها فعلاً، ونهضت واقفة متعثرة بصينية القهوة ومطحنة البن، واتجهت إلى الممر، وحين صارت إلى جانب ريتا، توقفت ريتا عن العزف، والتفتت إلى مريم لتقول:

ـ أعرف أن عزفي سيء، وأنا آسفة.. لكنه البيانو!

ـ ما به؟! سألت مريم بنزق.

ـ إنه أجمل بيانو تقع عليه عيناي.. يا الله كم يبدو مغرياً للعزف!

مع قناعتها بأن تبديلاً يزحف على مملكتها، هدّأت مريم من غضبها وتأملت بجدية بالغة وجه ريتا، ولدوافع غامضة، رأت بأن لا تنتزع ريتا من يدها لتقول لها: اخرجي من عندي.. أو: أيتها الطفلة، اذهبي وتبولي في حمّام أمك.. حان وقت نومك.

ومع تأملها في وجه ريتا وابتسامتها الخجولة الخائفة، دعكت مريم إبهامها كما عادتها حين تصل إلى انفعال تود أن تطفئه، ثم تلمست خشب البيانو وكأنها تتعرف إليه لأول مرة، وسألتها: ما اسمك؟

ـ ريتا.. اسمي ريتا، ألم يقل لك جلال؟

ـ لا.. قال لي أشياء أخرى.

حين أخفضت ريتا رأسها نحو بطنها، ثم رفعت بصرها إلى وجه مريم، لاحظت مريم بأن البنت تقاوم خجلها بهمهماتها وهي تردد «هم..م»، كما لاحظت وقد استعادت صفاءها، أن ريتا تذبل لمجرد نظرة عاتبة أو غاضبة أو محتجة، وبعد لحظات من الصمت والنظرات المتبادلة، خطفت ريتا شعاع عيني مريم وقد لحظت فيهما رسالة مشفّرة تقول: «يا بنتي.. لا بأس، كل ما في الأمر أن هذا البيانو منسي، وأننا...»، وماذا في بقية الرسالة؟! سألت ريتا نفسها.

بعد أن جالت بنظراتها فوق جدران الممر وسقفه، وكأنها تنتشل كلاماً من قاع بئر، اتجهت بنظراتها صوب مريم، وقد حفّزت إرادتها لتقول لمريم: «اعزفي سيدة مريم!» مضيفة برجاء أن: حرام أن يموت هذا البيانو وهو مرمي في هذا الممر الرطب، ليتنا ننقله إلى الصالة.. سيكون مكانه أفضل هناك.

ثم صمتت بعد أن تأملت الدائرة الضبابية في ردود فعل مريم، ولكن مريم في حقيقة الأمر كانت ترجوها أن: «أكملي»، وكادت أن تقولها صريحة، لو لم تعنها هزّات رأسها التي تقول: «آه.. وبعد؟».

كلما أمسكت ريتا باختلاجات مريم، كانت مريم تفرّ من يدها، ولكنها متيقنة الآن بأن مريم جاهزة لأن تصغي إليها، وبأن بوسعها أن تقول ما تشاء، وأنها لا بدَّ أن تُذلّل مخاوفها من الآخرين وقد باتوا جحيمها.

أفاضت ريتا في الكلام، وكأنها قد وقعت تحت قوة سحرية أمسكت بروحها، لتسترسل في اقتراحاتها، فيما كانت مريم مصغية صامتة، حتى بدت وكأنها منقسمة إلى قسمين يجرفانها إلى اتجاهين متعاكسين.

«لم أفكر في هذا الأمر». قالت مريم في قرارة نفسها، وبات واضحاً من صمتها أنها تطوف في زمن بعيد، غير أن صمتها هذا انكسر مع خروج رضا من غرفته، وتوقفه أمامهما في الممر حيث الإضاءة الشحيحة للمكان.

اقترب رضا بخطوات مترنحة وهو يكاد أن يغفو، ثم ضرب بكفه كتف ريتا ليقول لها:

ـ على أساس أنك تكرهين البيانو وتحبين الطبلة؟

والتفت إلى مريم ليقول لها:

ـ هذه البنت محتالة! وأضاف: وشخّاخة يا سيدة مريم، إنها لا تعرف أن تعزف سوى هذه المقطوعة!

أصبح من الواضح بالنسبة إلى ريتا، أنها إذا كانت عاجزة عن تحاشي العشى الليلي الذي أصيبت به منذ طفولتها، فلا بدَّ أنها في طريقها للتخلص من السلس البولي، ولكن الحديث عن كفاءتها الموسيقية، على النحو الذي وضعها فيه رضا، دفعها للدخول في تحدٍّ شاق، وهي البنت التي لم تدخل خلال سني عمرها الفتي السابقة بأي من التحديات.. كانت دموعها قد خلّفت انكسارات جديدة للضوء كما تراءى لمريم، ولهذا استأذنت مريم في أن تتابع العزف.

تيقنت مريم، وهي مسندة ظهرها إلى الحائط وقد صالبت ذراعيها، من أن البنت لا تعزف لشهوة العزف، فقد عرفت من كلام رضا الذي وجّهه إلى ريتا، أن ثمة دلالات واخزة لهذا الكلام، وأن خبطات أصابع ريتا فوق مفاتيح البيانو، ليست سوى ردّ شقي على ما قاله رضا، وإذا ما كان رضا قد اعتبر أن ما قاله مجرد تنشيط لمناخ البانسيون الراكد، ففي حقيقة الأمر، لم تكن ريتا قد تقبلت لعبة التنشيط هذه، فمنذ السبت الفائت، يوم الرحلة القصيرة بصحبة سوسن الحمود في تلافيف منطقة الحجر الأسود، أيقنت ريتا أنها لن تتراجع قيد أنملة عن حماية نفسها من النظرات الساخرة أو المشفقة التي تُلمّح إلى سروالها المبلل، أو تُقوّم أسئلتها الساذجة التي تنم عن روح طفولية لم تخرج إلى فسحة الشباب بعد.. نظرات مشفقة وساخرة، كانت قرأتها في سوسن الحمود، التي ما لبثت أن تعاملت مع ريتا بصفتها طفلة، لتلقنها المزيد من أخبار الحياة، بتعالٍ، ربما مرده إلى اعتزاز سوسن بتجاربها المبكرة، فقد أظهرت نفسها وكأنها مصابة بمشاعر التفوق، فيما كانت ريتا تعيش حياة خفية، وهي تقوم بتمارين التنفس، كي تُسكتها بالقول:

ـ لو أنك تُقلمين شاربيك وتنزعي من أقدامك جوربيك الرجاليين!

بعد مئات الضربات فوق أصابع البيانو، تيّقنت ريتا أنها ليست عازفة احترافية فحسب، وإنما بالغة الحس إزاء الموسيقا.. لمست يقينها هذا من الصمت المطبق الذي أحاط بمجموعة البانسيون، والذين يمكن الاعتقاد بأنهم متذوقو موسيقا مجهولون، كما لمسته من مريم، فقد كانت مريم بمثابة بارومتر اللحظة، لتنتقل مريم بالنسبة إلى ريتا، من مجرد امرأة تعاني كدمات الوقت، إلى سيدة حاضنة بمثابة ملاك حُكِم عليه بالوقت.

عزفت ريتا موسيقا عذبة ومتوهجة، وكانت تمتلك إضافة إلى

العذوبة، شراسة إلهية ليس ثمة إمكانية للوصول إلى كمال الموسيقا من دونها.. كانت تعزف مقطوعة تحمل عنوان «اغتصاب» وهي من مقدمة موسيقية لمسرحية يونانية تحمل العنوان ذاته، وتحكي أسطورة إحدى بنات الإله أوزيريس الثلاث.

ـ إنها هي... قال أنيس.

وحين التفتت إليه مريم، وكأنها تسمع صوته لأول مرة في حياتها، قال لها:

ـ هذه الموسيقا سبق أن سمعتها ذات يوم.

ثم حاول أن يتذكر... أين؟

وتابع القول إن ذاكرته لم تعد تسعفه، وكان بشهادته هذه وكأنه أعطى ريتا حصانة إضافية، لتعزف المزيد والمزيد، وفي الوقت ذاته، كان رعد الأسمر قد وصل إلى الممر ليقف في نهاية صف الواقفين، مصفقاً على فخذه بيده، ومشجعاً ريتا وهو يردد:

ـ برافو.. برافو.. عزف جميل!

ثم تقدم من ريتا ليقول لها: ماذا أفعل؟.. ليس لدي سوى كف واحد أصفق به.. أتدرين أنني في هذه اللحظة أحوج إلى يديّ الاثنتين لأصفق لك بكلتيهما؟ ملعون أبو صدام!

حين وقفت ريتا وقد أعادت غطاء البيانو إلى حيث كان، التفتت إلى رضا لتقول له:

ـ رضا، كل سنة وأنت بخير!

ثم التفتت إلى مريم لتقول لها: صار عمره اليوم 23 عاماً.

اخترق رعد الأسمر صمت المجموع ليغني بما هو أقرب إلى العويل العراقي الموروث: happy birthday to you

في البداية ردّد رعد الأغنية منفرداً، وكرّرها ثانية وثالثة، ثم بات الجميع يردّد معه، حتى مريم ردّدت الأغنية بصوت متحشرج، دامع وحزين.

كانت الأغنية الأولى التي تتردد في هذا البانسيون، منذ موت ماشاالله قبل ما يزيد على ثلاثة عقود مضت.

في الواقع، انشغل أنيس طيلة السنوات الفائتة بمريم، ولم يكن ليعير بالاً إلى التفاصيل الصغيرة، من مثل البيانو المهدور في الممر، أو صُرّة الخرق التي آوت فراشات شعر مريم ومسكريتها.. وها هو ذا على حين غرة، ودون سابق إنذار يلتفت إلى البيانو الذي طالما تعثّر به جيئة وذهاباً في طريقه إلى الحمّام أو غرفة ماشاالله، ولم يتوقف عند هذا الحد أبداً، فأعياد الميلاد، وإن كانت ضرباً من الاحتفال باستنفاد ما تبقى من أعمار البشر، فهي بالنتيجة أيضاً، نوع من الذكرى التي تطرق أبوابك لتقول إنك قد لا تصحو غداً، وعليك أن تفعل هذه اللحظة كذا وكذا.. ما حدث أنه لم يسألها ولو لمرة واحدة عن يوم ميلادها ليضيء لها شمعة احتفالاً بامرأة نسيت نفسها.. هذا يعني في ما يعنيه، أن زمن مريم كان متوقفاً كحال زمن أنيس، وليست ساعة الحائط المتوقفة أيضاً، سوى تأكيد إضافي على ما لا يحتاج إلى إعادة تأكيده.

قال رضا لمريم:

ـ تصوري كم هم أغبياء هؤلاء الذين يحتفلون بأعياد ميلادهم!

قال ذلك، وحين لاحظ استغرابها، أكد لها أن الزمن هو اللحظة المتناهية في الصغر.. هو اللحظة التي نحسها، وبالتالي كل أعمار البشرية هي مجرد لحظة، و:

ـ علينا التقاطها يا سيدة مريم.. ليس هنالك كبير أو صغير.. إن عمر الإنسان يمكن حسابه وفقاً لدقات قلبه.

ـ إلى أين سيطاردها هذا الصبي؟

سأل أنيس نفسه، وهو يُدقق النظر في قراءته لردود فعل مريم، ليلحظ أن يدها تختلس الحركة نحو قلبها، ثم تنزع يدها مصحّحة خطأها، ثم صحّح لنفسه معتبراً ما يحدث هو مجرد خلط سيكولوجي لا يجب البناء عليه، وكذلك هو شأن بقية ردود أفعالها الأخرى، بدءاً من قبولها لملاحظات رضا المتصلة بستائر البانسيون ونوافذه، وصولاً إلى طلبه من مريم، أن تفتح شقوقاً للإضاءة، لتتسلل الحياة إلى صالة البانسيون وغرفه المعتمة.

طلب رضا منها ذلك، ولكن الوقت بات ليلاً، ولم يعد بالوسع أن تفتح مريم الستائر، ولم يعد بوسع أنيس التيقن من حقيقة دوافع مريم، فالستائر المغلقة الآن، قد تُفتح حين تشرق الشمس فجر اليوم القادم الذي سيبدو وصوله سريعاً.

لم تكن الشمس واحدة من مكاسب أنيس الدنيوية، ومن يدري ما الذي يمكن أن يفعله هذا الصبي رضا، حين تشرق شمس الصباح على العاصمة؟!

ـ 8 ـ

خيّم الليل على دمشق بشوارع شبه خالية من المارّة، فالحياة باتت تحمل الكثير من المخاوف، كما أن الحواجز العسكرية قطّعت أوصال المدينة، بما جعل النساء الشيّقات اللواتي يقفن في شارع بغداد، باحثات عن بيع المتعة، يعتكفن في بيوتهن، البيوت التي تختبئ وراء مكبّات نفايات المدينة، والتي تأخذ من هوامش المدن مقارّ لها.

ومن بين هذه الأحياء حي كشكول، حيث فرج العلي فياض يقيم مع مجموعة من الشباب الإسلاميين الذين يطبعون كتلاً سوداء صغيرة فوق جباههم، كناتج عن احتكاك هذه الجباه بسجاجيد الصلاة، والذين كانوا يأخذون من مرشدهم الشيخ أبو محمد سلامة، مِعبَراً للبحث عن الله واليوم الآخر، وسط وساوس تطول دنس سلوك العلمانيين، الذين قلّما يحذرون من البقاء جُنُباً، ما بعد ممارسات جنسية مع عشيقات، لا يُعرن أيضاً أدنى وزن للطهارة المطلوبة ما بعد ممارسة الجنس.

كان فرج قد ألف حوارات رضا، جلال، ريتا، المتصلة بسلس ريتا البولي، وكان في البداية قد فوجئ بأن هذا الثالوث لا يستند إلى قاعدة «لا حياء في العلم»، التي يثابر الدينيون على ارتدائها.. كانوا يحكون دونما استناد إلى قاعدة شرعية، بقدر ما يستندون إلى انفتاح ربما كان محمولاً من علمانيتهم الفائضة، ما يمكن تفسيره بأنه شيء من الروح

الإباحية التي تحقق شيئاً من المكتسبات الدنيوية، بين رجال خبراء بالأنثى الخالدة.

كان فرج متردداً ما بين إعجابه بهذه المجموعة، وبين عقائده التي تتعارض وهذا الإعجاب، ليعود إلى إعجابه بهم مجدداً، ومع كل تفكيك وإعادة بناء، كان يعاني من دُوار وآلام معدة، هي نتيجة للتمزق العقائدي الذي يعانيه والذي يؤرجحه كما ريشة في عاصفة.

وهو يتجه نحو البانسيون، ليسأل عن جلال ورضا، كان في دوافعه الحقيقية يبحث عن ريتا التي لا بدَّ أن تكون بصحبة جلال، تساءل إن كان صوت ريتا العذب، هو أداة لإغواء الرجال، أم مجرد فضيلة منحها الله لبنت لا تنتمي إلى الكواسر في شيء، كما حال سوسن الحمود، تلك البنت الخفية، المتسللة، الخطيرة، والقادرة على قلب مزاج القدر إن شاءت، أقله كان هذا هو الاعتقاد السائد حول سوسن.

في الطريق من كشكول إلى منطقة الدويلعة، ليس ثمة ما يلفت الانتباه، فها هم أولاء الهاربون من حفر الطريق الموحلة، يقفزون حاملين مظلاتهم خوفاً من أن يبللهم المطر، وطابور المصطفين وهم يحملون جالوناتهم، يعودون بجالونات فارغة بعد نفاد المازوت من طنبر مازوت يجره حصان هزيل مغطى بالوحل، وببطن منتفخ ممتلئ قشاً يابساً، وها هو ذا طنبر يبيع المازوت في السوق السوداء بفارق كبير عن التسعيرة الرسمية.

سمع فرج صوتاً آمراً يقول: قف! وحين التفت، كانت دورية من القوات الأمنية تتابع مطاردة رجل دخل في تلافيف الأزقة المؤدية إلى أحياء غارقة في العتمة، وبعدئذ فرّ الناس بعضهم حاملين جالوناتهم الفارغة، وبعضهم قد رمى جالونه، بينما رشقات الرصاص تتناثر فوق رؤوسهم، وسط صرخات ازدادت قوة، أعقبتها استغاثات لامرأة

ترنحت وهوت أرضاً، لتطفو فوق بقعة من مازوت أخضر، وصل تواً إلى البلاد بمعونة إيرانية.

كبقية العابرين مصادفة، فرَّ فرج متخذاً طريقه نحو أزقة فرعية، لم يكن ليعرف نحو أي الجهات ستقوده، وحين وجد نفسه في الشارع الرئيسي الموصل نحو باب شرقي، هَدّأ خطواته، ومشى ما يزيد على ثلث الساعة، وهو يجر جسده بصعوبة.

في الأحياء المسيحية، حيث وصل إلى باب توما مشياً، كانت الحياة هادئة تماماً، فالاضطرابات الأمنية شبه معدومة، ولكن ما يحدث وراء النوافذ ربما يأخذ مساراً آخر، مساراً مسكوناً بالخوف من الدعاية الرسمية التي اجتاحت هذه الأحياء، كما اجتاحت مواطن تجمعات الأقليات الدينية والمذهبية، التي أخذت توطّد الخشية من حملات تطهير عرقي، واجتثاثات سكانية، وكانت الآلة الإعلامية، قد عملت على التذكير بالتجربة العراقية، التي قادت إلى تهجير مجموعات كبيرة من المسيحيين العراقيين نحو الدول الإسكندينافية والولايات المتحدة الأمريكية وكندا، ولم تكن الآلة الإعلامية تعمل بمفردها، فثمة خطف وخطف متبادل أخذ طريقه إلى منطقة الحولة وجوارها الجغرافي وسط سوريا، كما مناطق من مدينة حمص، حيث الأحياء العَلَوية تلتصق بالأحياء السنية، وبدا ذلك مدعوماً بخطابات دينية تحريضية، لشيوخ لم يكن تاريخهم الشخصي، ليُذكّر برجال مستقيمين، بقدر ما يُذكّر برجال عصابات يحتفلون بسوق الدم الذي تشهده البلاد، بما جعل القتل رصيداً لإدارة صراع، في بلاد بدت وكأنما ستذهب في دهليز معتم.

من جديد، عادت ساحة باب توما إلى احتفالياتها، فقد نصبت القوات الحكومية مكبرات صوت في ساحتها الرئيسية، وكانت تستضيف مطربين مغمورين، وخطباء بلغة فقيرة، إضافة إلى إطلاق الألعاب

النارية، في تحدٍّ صريح لما تشهده مناطق سوريا الواسعة المحتجة، التي تدرجت في احتجاجاتها من المطالبة بالإصلاح، إلى مطالب التغيير، وبعد سيل من القتل، وصلت المطالب الشعبية إلى إسقاط النظام ورحيل الرئيس، وفي النهاية، تجاوزت مطالب المحتجين رحيل الرئيس إلى المطالبة بإعدامه.

من ساحة باب توما، إلى ساحة السبع بحرات، والليل قد صار في آخره، كانت قوات النظام قد اتخذت متاريس يصعب كشف الجنود الجاثمين وراء أكياس رمالها، ما أدى إلى تأخر فرج العلي فياض ما يزيد عن الساعة لوصوله إلى بوابة بانسيون مريم.

فرج العلي فياض، اعتقد على الدوام أن الرجال المقاتلين، لا بدَّ أن يزودهم الله، إضافة إلى الإيمان بقضيتهم، أن يزودهم بعظام جمجمة سميكة أكثر بثلاث مرات من الطبقة التي يتزود بها أصحاب المواهب، طبقة تجعل عظم الجمجمة أكثر صلابة مما هو في البشر الطبيعيين، وأحال اعتقاده هذا إلى سر يودعه الله في البشر الذين ينقسمون إلى بشر مقاتلين، وبشر يمارسون المواهب، وازداد إيمانه هذا يوم تعرّف على السجن لأول مرة في حياته، في أعقاب عمله في جريدة إلكترونية، يموّلها واحد هو من أعلام المال السوري، ومُقرّب من العائلة الحاكمة، والذي شق طريقه إلى الإعلام الوطني عبر إطلاقه لمحطة إذاعية فنية، مع مجموعة من المواقع الإلكترونية، من بينها موقع للرياضة وآخر لأخبار الفن، وثالث هو الجريدة الشاملة.

وكان فرج العلي فياض، قد حقّق قصة صحفية واسعة، طالت مسؤولين كباراً في وزارة الصحة السورية، وهم يتاجرون بأدوية مشافي الدولة، وبتهريب كلى مرضى مثلجة عبر عصابات الاتجار بالأعضاء البشرية، ما أدى إلى اعتقاله، ثم الإفراج عنه لمصادفة لا علاقة لها بالرحمة أو الشفقة، بقدر ما تتصل باعتبار قضيته أقل من موجبة،

ذلك أن الإعلام والفضائح الإعلامية، لم تعد لتشغل بال النافذين في البلاد، وقد شاعت فضائحهم وتخطت الاتجار بالأعضاء البشرية إلى الاتجار بكل ما هو بشريّ.

في أعقاب سجنه، أدرك فرج العلي فياض، حكمة أن ينقسم البشر إلى مقاتلين بجماجم سميكة وإلى موهوبين يخرجون من السجن بإعاقات نطق، هي الإعاقات ذاتها التي أصابته بما جعله يتأتئ في نطقه، وبما جعله عاجزاً عن إيضاح أيّ من أفكاره، خصوصاً تلك التي تحتاج إلى استخدام المفارقة أو النكتة، كما حال أفكار رضا التي قلما قدمها خالية من السخرية.

إعاقة فرج العلي فياض هذه، قادته إلى أن يكون في الصفوف الخلفية من تظاهرات حي الميدان، وقد باتت تظاهرات يومية، فقد بلغ عجزه عن الهتاف حداً جعله يتوقف عند مقطع واحد متكرر من مقاطع الهتاف التقليدي الذي يتخذه المتظاهرون فاتحة لتظاهراتهم: الشعب يريد إسقاط النظام.

كان يكرر الـ (ش) مرات عديدة قبل استكمالها لتصبح: الشعب، مما وضعه أمام إحراجات غاية في الصعوبة، فعثرات النطق لا بدَّ أن تتحول إلى إعاقات أبلغ حين تكون التظاهرات مطوقة باحتمالات الاعتقال وبالرصاص، الذي يحصد بعض المتظاهرين ويحيلهم جثثاً، في كل يوم من أيام الأطراف والعاصمة.

مرتاحاً للإنارة الشحيحة من غرفة في فندق القيروان، كان ناصر يتكوّر في سريره طالباً من الله أن يحرك ساكنيها، وحين أطال مكوثه مُغيّراً موقعه من النافذة، كان فرج العلي فياض، يقف تحت شرفة البانسيون وعيناه تحملقان نحو الشرفة، وقد أدار ظهره للمؤسسة الاجتماعية العسكرية، وكان ينادي بصوت متقطع، متلعثم.. كان يتأتئ

صارخاً: رضا.. ثم يعيد مكرراً نداءه، حتى بات اسم رضا متكرراً، وباتت حروفه متكررة أيضاً، ليطول الاسم بالتناسب مع زمن نطقه.

حين كررت رجيّة والدة فرج، طلب ابنها على هاتفه النقّال، وكان دائم الانشغال عبر محاولات حثيثة بطلب أي من رفاقه الذين أقفلوا هواتفهم النقالة، كان فرج العلي فياض ما زال تحت شرفة البانسيون، وكان راغباً في الرد على مكالمة أمه ليتبلغ اشتياقها إليه، وحين قال لها إنه بانتظار ريتا، وأن جلال ورضا بخير، أبلغته اطمئنانها، وقد بدت بالغة الارتياح لهذه البنت التي لا تعرفها، ولكنها ستوطد معها صداقة عبر رسائل مُشفّرة، رسائل تقول:

ـ أظن أنها بنت أكابر.

ـ ولكنها...

ـ ولكنها ماذا؟ توقف عن ترهات شيخك يا فرج، فلتعزف البنت موسيقا، ماذا في ذلك؟ اطلب منها أن تُعلّمك العزف، كنا في دار المعلمات نتعلم الأكورديون.. لقد عزفت في عرسي، كان ذلك قبل أن أنجبك بسنين، ولكنني نسيت.. والله يا فرج أنني أتمنى أن أعود إلى المدرج الموسيقي لأعزف (دو ري مي فا).

ثم عقّبت وكأنها تزف بشرى:

ـ لقد حكت لها شالاً من الصوف، أبلغها أنني سأرسله إليها مع باصات شحن الأغراض.. لا تنسَ أن تبلغها أنه سيدفئ كتفيها وعنقها. هل هي جميلة مثل أمك؟ لا تدع أبيك أشطر منك.. ها.. هل فهمت يا صبي؟!

قالت ذلك ضاحكة، وكانت ضحكتها تنم عن روح، هي خليط أمومة مع روح مراهقة ما زالت تنتظر زفة عرس، وكانت رسائلها هذه تتحول إلى صراخ حاد في رأس فرج، فالتنقل ما بين المعتقدات، سيطول

حواجز أقسى من أن يقفز فوقها.. كانت أمه رجيّة، المرأة المتعلمة التي أنجبته في عمر متأخر، كانت الحاجز الأعلى الذي سيحول بينه وبين شيخه، ليقرر أن يخرج كلياً من سكنه في كشكول، تاركاً مجموعة رفاقه الملتحين، وقد رسموا خطاً يابساً ما بين الله والأرض.

مقفلاً الخط الهاتفي، مودّعاً أمه، عاد فرج العلي فياض إلى الصراخ مجدداً.. وكان صوته مجروحاً وباكياً.

لا أحد أطلَّ من شرفة البانسيون، فقد اتخذ رعد الأسمر من الممر ركحاً جديداً أطلق فيه سلسلة من الأغاني العراقية المهجورة.. ومما لا شك فيه أن صوت رعد، ليس من الأصوات العذبة التي تُحرِّض على اقتفاء آثاره، كان صوتاً كل ما فيه كتلة من نحيب مبعثه طقوس الندب العراقي، الذي شكّل السمة الأبرز في هذا الغناء، خصوصاً أنه ما زال يحمل شيئاً من نكهة كربلاء، حيث الجنازة ما تزال تعبر النهرين، وتتنقل من الشرق الأوسط نحو أواسط آسيا، بعد ما يزيد على ألف وثلاثمئة عام من اغتيال الإمام الحسين، وحمل رأسه فوق أسنة الرماح، ليُعرض متجولاً من مدينة إلى مدينة.. أعوام استقرت مصاحبة لجحافل بشر يدمون جباههم وظهورهم في استحضار التاريخ.. التاريخ ذاك الأضحوكة التي بوسعها أن تتحول إلى أقسى التراجيديات.

صراخ فرج، وصل إلى غرفة مريم، ولكنها لم تكن قادرة على التمييز إن كان هدف هذا الصراخ هو شخص مقيم في هذا المكان، أو إذا ما كان مجرد اختلاط في تمييز الأصوات، فعلى مدى الأعوام الطويلة التي لم تغادر خلالها هذا البانسيون، لم تلحظ أن ثمة من يُطلب فيه، كان الصراخ الذي استدعاها لإغلاق نوافذها على مر السنوات الفائتة، هو صراخ سائقي التاكسي الذين يوصلون بنات الليل إلى فندق القيروان، صراخ يحمل فيما يحمل، الدعوات إلى بنات

سكارى بأن يهدئن من طقطقات كنادرهن على سلالم الفندق، لتغدو أصوات السائقين المتحفّزين لمعاقبة البنات اللواتي يجلبونهن إلى هذا الفندق، أقل ضجيجاً، وأكثر استكانة بما لا يقاس من أصوات السائقين وأبواق سياراتهم التي تتشكل على هيئة ألحان مبتذلة ماجنة، ألحان تنقل الكاباريهات والملاهي الليلية إلى وراء مقاود سياراتهم الصفراء بإضاءاتها الراقصة، ولكن ما لفت مريم، أن هذا الصوت لم يكن مصحوباً بأية نغمات إضافية، كما حال نغمات محركات السيارات وسخامها، وموسيقا الهواتف النقالة، وكنادر البنات وبكائهن المختلط بضحكاتهن المصحوبة على الدوام باختلاجات الخمرة.

كانت نداءات فرج، إنقاذاً جدياً لمريم، من متابعة عويل رعد الأسمر وأغانيه الكتيمة التي تبعث رائحة الموت في هذا المكان، وها هي ذي مريم التي لم تطأ الحياة، سوف تعلن اليوم أنها لا تطيق الموت، ولهذا قالت وبصوتها المرهق: رعد.. كفى!

والتفتت إلى رضا لتقول له:

ـ رضا.. هل بات عنوان مسكنك الجديد مُعمّماً على أصدقائك؟ لا تدع أحد يصعد إلينا.. يكفينا أنت و..

ثم أشارت إلى ريتا ملامسة كتفها بحنان يختفي وراء وجه بالغ الجدية والصرامة، لتتابع القول: يا بنتي، هذا البيانو مهجور ونائم منذ سنوات.. لا تدعيه يستيقظ.. ها!

قالت ذلك بلهجة إبلاغ حاسم، ومشت نحو غرفتها مغلقة باب الغرفة، فيما مشى أنيس خلفها متابعاً خطواتها حتى اللحظة التي أنارت غرفتها.

ليس بوسع أنيس أن يُخمّن طبيعة خطوتها هذه، ولكنه وهو يصغي إلى الأصوات المنبعثة من غرفتها، سمع صرير أخشاب خزانتها، كانت

خواطره لا تستقر عند توقع لاحتمال محدد، ولكنه كان يعتقد أن صرير الخشب هذا، ليس سوى انزياح لخزانتها كي تسند باب غرفتها مغلقة هذا الباب إلى الأبد.. كان هذا ما يرغب به، فباتت رغبته توقعاً، فاحتمالاً، فقلقاً قاتلاً من أن تغيب مريم في غرفتها ولا تخرج منها أبداً، ولدقائق تشكّل لدى أنيس ما يمكن تسميته بـ: «قناعة الرغبة».

وسط صرير الخشب، وضحكات رعد الأسمر وهو يُطوِّق فمه بكف يده، عاد صوت فرج ثانية وهو يصرخ:

ـ رضا.. ريتا.. جلال، أين أنتم؟!

كان على أنيس أن يقول لهم:

ـ كفوا عن هذه المسخرة.. اسمعوا، ثمة من يناديكم في الخارج.. اذهبوا إليه.. أبعدوا هذا الضجيج عن بيتنا!

توقف رعد الأسمر عن الغناء، لسبب عضوي يتصل بجهاز تنفسه أكثر مما يخضع لأوامر مريم، وحين التفت الرفاق الثلاثة، جلال ورضا وريتا إلى مصدر الصوت، أدرك جلال أن عليهم الرحيل حالاً وترك مريم لسلامها المنزلي، غير أن رضا وحده، كان قد اعتقد أن عليه المكوث في البانسيون والإحجام عن الخروج معهم، وفي مطلق الأحوال سيبيت الليلة في غرفة ماشالله، متجاوزاً مشاعر الضيق التي تسببها هذه الغرفة، نحو مشاعر من نوع آخر.. مشاعر تتصل بمريم، وبفنجان القهوة الصباحي، وباستدراجها إلى حيث يضمها إلى صدره ويكسر الأسوار التي أعلتها حول جسدها وقد بات على حدود الشيخوخة ولم يصلها بعد.

قال رضا هامساً لجلال:

ـ أنت تعلم أنني في وضع بالغ الخطورة.. إذا أمسكوا بي سيجعلون من جلدي نعالاً لأحذيتهم!

حين أُطفأت أنوار الصالة باستثناء قنديل زجاجي صغير، منحوت على هيئة شمعة سائلة، لم يكن من السهل على مريم أن تدفع ذاكرتها بعيداً، أو أن تمحو من رأسها صورتها وهي تلتوي بسرعة فائقة وراء أمها وهي تلقى في سيارة لاندروفر مقفلة خضراء.. ولم يكن من السهل عليها أن تنسى بعد مرور سنوات على الحادثة، تسلمها لجثة أمها وقد خرجت من سجن النساء، لتدفنها بصمت، مع مجموعة من الدفّانين المتواطئين، في مقبرة حي طلعة الأكراد، وكان اسم ماشالله يتردد من المايكروفون المرافق للجنازة وهو يرجو سامعيه تلاوة طلب الرحمة للميتة في رحلتها الأخيرة، وهي المسيحية التي أسلمت على يد زوجها، لتبقي لابنتها ما بعد موتها هذا البانسيون، بما فيه من أثاث، وأواني مطبخ، وكرسي متحرك بمسندين معدنيين.

نسيت مريم أن تقول لرضا، أن ثمة أغطية احتياطية فوق سطح خزانة غرفة ماشالله، وكانت قد مكثت في غرفتها، وهي تحاول الخروج من ذاكرة الجثث، باستنشاقها لمادة مكوفرة تخص في العادة مرضى الربو، وكانت قد أحكمت إغلاق غرفتها وأسندت ظهرها إلى ظهر سريرها، وهي تنتحب عازمة على طرد رضا بدءاً من بزوغ الفجر، ذلك أن فتح الذاكرة يتساوى وفتح المقابر، وهذا الفتى ربما سيكون مفتاح قبرها.

ـ ولكن الأغطية لن تكفيه.

تمتمت بصوت مسموع عازمة على النهوض والتوجه إلى غرفة ماشالله لتطمئن على أغطية رضا، ثم عادت لتحسم موقفها مجدداً.

ـ غداً سيرحل.. هذا الولد يجب أن يرحل.. إنه الشيطان وقد حلَّ بنا.

ثم ابتدأت بتلاوة صلاة أمها المسيحية، ما يؤكد أن إسلام أمها،

لم يكن في حقيقته سوى اتباع لدين زوجها، والد مريم، وكانت مريم قد نسيت الجزء الأعظم من صلاة أمها: أبانا الذي في السماوات تقدّس.. ثم لم تتذكر، ما الذي تقدّس في من يسكن السماوات، ذكره أم سره، وعندئذ أدركت، أن ليس في بيتها ثمة أناجيل لتستعين بها على التذكر، ولهذا بدت عازمة على تلاوة الفاتحة الإسلامية، غير أنها لم تبدأ بالبسملة، حتى أدركت أنها لا تعرف بقية الفاتحة: بسم الله الرحمن الرحيم.. ثم ماذا؟ قالت مريم لنفسها، وبعدها؟

وهي في غرفتها كانت الأصوات تصل إليها مضاعفة، ومنها صوت باب غرفة أنيس الذي يفتح ويغلق دونما مداراة، كما درج على عاداته في استنفاد قلق الشيخوخة، فعلى الرغم من المعمار الداخلي للبانسيون الذي تحيط غرفه بصالة واسعة تفصل باب غرفتها عن بابه بأمتار ليست قليلة، وعلى الرغم من سعة الممر الفاصل ما بين الغرف، والذي تشكّل مساحته صالة استقبال في البيوت المبنية حديثاً.

كان صوت باب غرفة أنيس يصلها وهو ينفتح ويغلق، وكان أنيس استبدل خفيه تلك الليلة بحذائه الوحيد وقد ارتداه تحت البيجاما، بخطوة تعتزم نصف رحيل، كما نصف ملابس، فبعد أن دقق في إرثه من الملابس، لم يجد في خزانته سوى بذلة واحدة، هي البذلة الإنكليزية المخططة، وقميصاً واحداً بياقته المخصصة للببيونة، ومجموعة من القمصان الداخلية والسراويل الداخلية، بعضها طويل وفضفاض اتقاءً للبرد الذي لا يرحم أطرافه السفلية، التي تتجمد ربما كناتج عن نقص في التروية.

أدرك أنيس، أن ما تبقى من وقت له في هذا البانسيون، هو وقت قصير، بل وقصير جداً، وقت يعتمد في تحديد دقائقه على خطوة من مريم.. خطوة ستمشي فيها باتجاه رضا لتضمه إلى صدرها، مودعة أنفاسه فوق وجهها، مع إشارات واضحة تعلن فيها حبها.

ـ كم تبدو وساوسي ثقيلة.

قال أنيس ذلك لنفسه، ثم أفرد اللحاف فوق كامل جسده في محاولة يائسة للنوم.. محاولة جعلت فراشه كما لو كان مستنقعاً.

-9-

منذ ما يزيد على أسبوعين، اعتادت ريتا العودة إلى البيت متأخرة، ولم تكن أحزان أمها الملطّخة بالخمرة، تعبيراً عن افتقادها لابنتها أو تحسباً للعشى الليلي الذي نغّص حياة ابنتها، بقدر ما نتجت عن تخوفاتها من أن تفقد السيطرة على هذه البنت، وقد باتت تشق طريقها نحو أحياء العاصمة في ظلماتها الثقيلة، بين مجموعات من رفاق يفلتون من قبضات ذويهم. وبطبيعة الحال لم تكن لتبالي بمصير البلاد، بقدر ما كان يهزها القلق على مصير أموال عائلتها التي تراكمت بفعل خدمات زوجها قدري للسلطة، والتي لا بدَّ أنها تطول الجانب الأمني منها.

عدّلت انتصار جلستها، وكانت مسمّرة على حافة مقعدها وكأنها على حافة هاوية، وقالت للدكتور فريد إنها ستصبح مجنونة، إذا ما ثبت أن ديك الشام متزوج، كما تقول الإشاعات التي تدور حوله، وكانت تقصد بديك الشام زوجها قدري، الذي يأتيها في آخر الليالي بطعم جلد متحلل منتن، وأنها كلما دققت في جسده فلا بدَّ أن تعثر على ندوب أو عضات امرأة لاسعة كما أفعى.. قالت ذلك للدكتور فريد، وهو من تنفجر أجراسه دونما حساب، وهذا ما دفعه للقول بلغة صارمة لا تخلو من نغمة أنثوية إنها: «ما زالت شابة ويافعة، وإنها قادرة على استبداله

كما تستبدل جورييها»، ثم صحح بالقول:

ـ ولم تستبدلينه؟ حسب علمي أنك لست بحاجة إلى رجل.. إنك أحوج إلى حريمك مما أنت بحاجة إلى رجل.

قال ذلك، ثم سألها: أين حريمك؟

ـ وهل تعتقد أنني أصبحت وحيدة؟ أجابت، ثم أكدت وكأنما تقرأ من كتاب:

ـ ليس أكثر بؤساً من امرأة تكرر أيامها، ليالي سهر وسكر ونساء يرتدين الدانتيلا ويرقصن حولي، ورجل ليس برجل.

تحسس فريد جسده دون أن يميّز المقصود بـ (رجل ليس برجل)، وحين بدا عليه حس التساؤل قالت له:

ـ نعم، أقصدك أنت!

لم يستطع فريد أن يتقبل أن يمس شخصه بأية صفة جارحة، فهو وإن كان من النوع الجنسي الثالث، فلن يتقبل أن يتحول نقص ذكورته إلى عيب في شخصه، هو هكذا، وهذا هو نوعه، وهو متصالح مع طبيعته، ومن طبائعه أن يتعايش مع النساء مستمتعاً بالأمان الذي يستشعرنه معه، لدرجة أنهن يزلن شعر أجسادهن بحضوره، ويقهقهن ضاحكات وهن يخزن مؤخرات بعضهن بقروصات ضاحكة.

حاول الدكتور فريد أن يستوعب الإهانة التي طالت جنسه، غير أنه وجد أن من المناسب في لحظة متهورة كهذه اللحظة، أن يواسي انتصار ويهدّئ من غليانها، ولهذا لمس رأس انتصار ليقول لها:

ـ يلزمك رفع شعر، وتسريحة جديدة، ونظارات بإطار مورّد.. ما أبسط الأمر!

على الرغم من كونه جنساً ثالثاً، ثمة حنين جارف أخذ بالدكتور فريد، حنين ليكون واحداً من عائلة، عائلة فيها أولاد وبنات، ومشادات

يومية تصل إلى تحطيم صحون المطبخ و تمزيق الملابس، وربما كان مصدر هذا الحنين، هو خشية الموت التي تخنقه كلما لجأ إلى فراشه استعداداً للنوم ومناماته.. كان الموت يحوم فوق وحدته، متساوياً بذلك مع معظم الرجال المحرومين من الأولاد والعائلة، والأمان الذي يمنحه حس السلالة، ولهذا كان يطيل السهر في الأمكنة التي يذهب إليها خصوصاً بيت انتصار، وكان يتقبل إهانات صغيرة يداريها عبر مسح لعابه المتيبس بالمنديل القماشي المكوي الذي لم يفارق جيبه.

ـ لقد تأخرت بنت الزراعة هذه.

كرّرت انتصار احتجاجها، وبدت شاحبة، ويابسة، ووحيدة، ثم أردفت: آه، لو خنقتها قبل أن تزعق زعقتها الأولى!

لاحظ الدكتور فريد أن جمال انتصار كاد أن يتبخر، ولم يتبقَ منه سوى أنفها الدقيق نفسه، ووجنتيها المتقعرتين وساعديها المكشوفين اللذين يأخذان لون الحليب المزبّد، لاحظ أن رائحتها باتت أقرب إلى رائحة النوم منها إلى رائحة اليقظة، وحين استدار على صوت باب البيت وهو ينفتح، تأمل من منظور فاحص، شاباً مجهولاً لم يظهر منه سوى كتفه وبعض من وجهه.

ـ وصلت بنت الكلبة!

قالت انتصار وهي ما زالت تمكث في مكانها.

توقفت ريتا للحظات في مركز الصالة دون أن تلقي التحية، وبدت متحفزة لمواجهة مع والدتها التي تقلب معصمها مستطلعة ساعة يدها، ودون أن تتمهل انطلقت نحو غرفتها.

اتخذ الدكتور فريد وضعية حكم راية، ومسد براحة يده فوق كتف انتصار ليضم أصابعه في إشارة تطالب الأم بالتعقل، ثم نهض متجهاً صوب غرفة ريتا.

وقفت انتصار متجهة إلى النافذة المستطيلة الكبيرة التي تطل على العاصمة، ومن نافذتها بدت ساحة الأمويين فارغة سوى من سيارات تدور حول مستديرة الساحة، كما كانت نوافذ مبنى الهيئة العامة للإذاعة والتلفزيون، مضاءة، وفي الخارج ثمة شاشة كبيرة تبث ما تظهره الشاشات المنزلية بشكل مضخّم، ولكن المسافة ما بين نافذتها والشاشة كانت أبعد من أن تجعلها تتعرف على ما تحمله الشاشة التي بدت وكأنها تحمل رؤوس بشر مشوشين، وألواناً صارخة، وكتلة بشرية مفردة تطل وتغيب عن الشاشة، لا شك بأنها إطلالة مذيعة السهرة.

انحباس الأمطار في هذه الساعة، توطّد عبر الغيوم السوداء التي يمكن كشفها من إنارات المدينة، وتحت نافذتها بمسافة أذرع، كان حرّاس القصر الجمهوري مدثرين بمعاطف سوداء فضفاضة، معاطف وزعت على الحراسات عشوائياً، بما جعل الأجساد المختبئة تحتها دائمة التشوّه.

قالت وهي تحني رأسها، وكان فريد قد عاد من غرفة ريتا حانياً رأسه: اسمع.. أنا متأكدة أنك لم تكاشفها بذلك الموضوع.

ولم تنتظر إجابة من الدكتور فريد، فما إن همّ بالإجابة حتى هرعت إلى غرفة ابنتها.

ـ هل أستطيع أن أفهم؟ سألت ابنتها.

ـ تفهمين ماذا؟ أجابت ريتا.

ـ أين كنت طيلة هذا الوقت؟ ومع من؟

استدارت ريتا نحو خزانتها متجاهلة أسئلة أمها، غير أن انتصار اتخذت وضعية متحدّية، ثم أمسكت بذراع ابنتها وهزّته هزّات متوالية لتعاود سؤالها، وما إن نزعت ريتا يد أمها عن ذراعها، حتى صمتت انتصار لفترة وجيزة ثم قالت لابنتها: دعيني أجس بطنك!

بدا الاستغراب الممتزج بالاحتجاج على ريتا، غير أنها وباستسلام جاء بصيغة قرار، كشفت عن بطنها رافعة كنزتها، ثم قميص القطن، فقميصاً ثانياً، وقالت لوالدتها بصفاء حاسم:

ـ حسناً.. جسيه!

بدت سرتها الغائرة في بطنها، وكأنها ابتسامة في وجه طفل وليد، وبمزيج من انكسار الرهان مع تعنّت المتحدي قالت انتصار لابنتها:

ـ يعني أنت لست حبلى؟

ـ حبلى؟ تساءلت ريتا والدهشة بادية على وجهها.

ـ نعم حبلى، ولم لا؟ فالأولاد الزعران الذين تعيشين معهم في بيوتهم المقابر، لن يدعوك دون أن ينفخوا بطنك!

ـ ليسوا زعران، أجابت ريتا، ثم تابعت: هؤلاء شعراء وموسيقيون وأولاد عائلات طيبة.

ـ إذن يأخذون أموالك!

ـ ليحبّلونها؟ تساءلت ريتا بسخرية، ثم أضافت: اسمعي، لا بدَّ أن ضيفك بات ضجراً.. ليتك تعودين إليه وتدعينني أنام!

للمرة العاشرة ينهض الدكتور فريد عن الكرسي الهزّاز ويعود إلى أرجحته، علّه يحقق توازناً ما بين روحه وجسده، وحين كان يقلّم أظافره بأسنانه، كان يعلن بذلك فشل الكرسي عن تحقيق هذا التوازن وقد بات متحسباً لانفجار عظيم سيحصل في بيت انتصار هذه الليلة.

انتصار التي عادت دون أن تمس بيديها انتفاخ ابنتها، ما لبثت أن طلبت من الدكتور فريد، أن يمارس تأثيره على ريتا، ويسحبها من الوعاء الذي سيقت إليه، والذي لا بدَّ أن يحمل الكثير من المخاطر، فـ: «إذا كان الأمر ممكناً في أوقات سابقة، فلم يكن ليتعدى يا دكتور، نزوة بنت تحب أن تتعرف على الطبقات الاجتماعية الدنيا، أما اليوم، فهذه

الطبقات باتت خطرة، وكما تعلم فهم يحتلون الشوارع، ويزحفون على الميادين، وقد يحرقون البلد، أخضره ويابسه»، و: «يا دكتور حين تزحف الأرانب على سياج بيتك، فهي تحدث خنادق عميقة في أساسات البيت وتهدمه!».

قالت ذلك للدكتور فريد، لتضيف:

ـ دكتور، أنت شخصية بالغة التأثير، وأنا أعرف ذلك.

ـ بالغة التأثير؟ تساءل الدكتور فريد.

ـ نعم، والله لقد أقنعتني أنك استوردت لوالب مضادة للصدأ، هل ثمة كذبة أكبر من هذه الكذبة؟ مع ذلك بتُّ أدحشها فيّ، مع أنه ليس ثمة لوالب تصدأ، كما أنني تجاوزت سن الخصوبة، ولم أقارب رجلاً منذ الأزل.. هل ثمة تأثير لشخص يكذب أعظم من تأثيرك؟!

لم يكن الدكتور فريد، حين قدّم اللوالب المضادة للصدأ، يعني ما يفعله، كان يمازح مجموعة النساء اللواتي يحتجن إلى الضحك، فإضافة إلى اللوالب، كان قد قدّم إليهن واقيات جنسية ينفخنها كما البالونات ويعلّقنها في الثريا، كان يفعل ذلك من أجل الضحك فحسب، ولم يكن ليعتقد أن في الأمر ما يتطلب الحنكة، كل ما في الأمر أن لياليهن السئمة من القبلات النسائية الفموية، واستخدامات الفم الأخرى، باتت مضجرة، وكان اقترح عليهن المزيد من التسالي المنشّطة لحياتهن الجافة المتيبّسة، ومن بين ما اقترح، كرنفال منزلي يدخل عبره الحمير إلى بيت السيد قدري، وكان اقتراحه هذا عرضة لانتقادات صارمة من السيدة انتصار التي قالت له:

ـ أنت أهبل.. نعم أهبل.. أي حمير ستخترق ساحة المالكي وتعبر من أمام حراسات القصر؟ والله والله، سيفجرون رأسك ورأس حميرك!!

قالت له ما قالت متكئة على حدسها، ولكن حدسها هذا كان أكثر

دقة من كونه مجرد تخمين تطلقه غرائز امرأة، فقد سبق أن حدثت مجزرة للحمير في منطقة مضايا القريبة من العاصمة، مجزرة رُشقت فيها حمير، نحيلة مهزوزة القوائم، بوابل من رصاص الأجهزة الأمنية، وتحولت المجزرة إلى حديث الفيس بوك، وأفلام اليوتيوب التي تبثها المحطات المضادة للسلطة في سوريا، حدث ذلك، و: «والله العظيم حدث!»، قال الدكتور فريد مؤكداً: «إنني أمزح يا سيدة انتصار.. وأيّ أحمق بوسعه أن يقترح مسيرة حمير تشق صفوف الحراسات المشددة المحيطة ببيتك؟».

الحراسات المشددة، كانت تخترق بعيونها المتشككة جلال وفرج العلي فياض وهما يغادران بوابة عمارة السيد قدري، وحين لاحظا أنهما باتا تحت أعين هذه الحراسات، تمهلا في مشيتهما وكأنهما يبثان اطمئناناً لهذه الحراسات، فالخطوة القلقة تنتقل بالعدوى.

حين تحسس حارس من حراسات القصر البطاقة الشخصية لفرج العلي فياض، مدققاً في بياناتها عبر مصباح يدوي سأله:

ـ أنت من دير الزور؟ ماذا تفعل هنا؟

ـ إنني في زيارة.

ـ زيارة لمن؟

ـ لبيت ريتا.

ـ من هي ريتا؟

ـ إنها زميلتنا في الجامعة.

الارتباك، وشحة المعلومات ضاعفت من قلق الحارس، ولكن جلال قطف اللحظة ليتدخل قائلاً: ريتا بنت السيد قدري.

تفحص الحارس وجهيهما، ثم قال بصوت لا يخلو من النصح:

ـ وهل أنتما من مستوى عائلات كهذه؟

أعاد الحارس بطاقتيهما، أولاً إلى فرج العلي فياض، ثم إلى جلال، وحين تابعا سيرهما شبك جلال ذراعه بذراع فرج، نزع فرج ذراعه بنزق واحتجاج ظاهرين، وقد فعل ذلك تحسباً لاعتقاد ركب رأسه، اعتقاد يقول بأن العلاقات المثلية باتت منتشرة في البلاد، وهو ما كان قد لحظه في سكنه بين مجموعة حي كشكول، حيث كان على يقين بأن ثمة من يعيش علاقات كهذه، وبأنه لن يكون بمنجاة منها إذا لم يتدارك الأمر ويهرع خارج هذه المساحة المعتمة من هوامش العاصمة.

ربما حفرت كلمات الحارس وتساؤلاته أخدوداً عميقاً في شخص فرج العلي فياض، أخدوداً عنى بالنسبة إليه ما يتجاوز حصافة حارس، فقد أدرك التفاوت الاجتماعي الهائل ما بينه وبين ريتا، فسؤال الحارس كان ينم، لا عن احتجاج تفرضه الضرورات الأمنية لمنطقة أكثر حساسية من بين أحياء العاصمة، بل ما يفرضه هو ما يتعلق بالجذور الاجتماعية لكليهما، وما كانت قد قالته والدته رجيّة عبر مكالمتها الهاتفية، من أنها صنعت شالاً من الصوف لريتا، بدا وكأنه سيضاعف من قدره الذي سيضاعف حسه بالهزيمة، فأيّ شال صوف يمكن أن يتسلق إلى أعناق وأكتاف طبقات على هذا النحو من الثراء، في بلد ينمو نصف سكانه على حواف حاويات القمامة؟!

فرج، الذي استغرق في الاسترسال بما قاله الحارس، كان قد أحجم عن الإجابة عن مكالمات أمه التي كررت طلبه على هاتفه النقّال، بعد محاولات حثيثة للاطمئنان على ابنها، وكانت الأم معلمة المدرسة، تدرك في سريرتها أن ابنها الوحيد طالما تحاشى الكلام على الهاتف لعجز يضاعفه استخدام النطق إذا لم يكن مصحوباً بالإشارات، فالكلام المتقطّع لا بدَّ أن يقود إلى هفوات بذيئة، هفوات من مثل تكراره اسم المسرحية الشهيرة التي أعدها كمشروع حلقة بحث جامعية وكان عنوانها «كسّارة البندق»، فكلما نطقها فصل ما

بين الحرفين الأولين والحرفين اللاحقين، بما يحوّل العنوان إلى شتيمة تقود أمه إلى الضحك، وهي السيدة المتعلمة الأولى في قرية بدت وكأنها مضادة للتعليم باستثناء تحفيظ آيات من القرآن.. آيات ربما لم تُقرأ كما تستلزم اللغة القرآنية الصارمة، لجهل مطبق استحوذ على شيخ المسجد الذي تحوّل ذات يوم إلى طبيب أعشاب يداوي عللاً جنسية متأصلة في رجال مزواجين، كما تحوّل، في الوقت ذاته، إلى نجّار القرية الذي يفصّل خزائن من أردأ أنواع الأخشاب، وفي كل الأوقات كان طبّاخاً ماهراً يشارك النساء وجباتهن، ليلتهم ما يطبخه بالكثير من الحرص على ازدراد ما يأكل.. كان هو الشيخ ذاته الذي نصح أم فرج المترملة بارتداء الحجاب، وباستكمال نصف دينها بالزواج، مكرراً أنه ما زال يحمل ما يعوض امرأة مترملة عن سنواتها العجاف التي قضتها بانتظار أن يكبر ابنها الوحيد.

ـ وماذا لو كبر؟ سيتزوج ويتحول إلى خرقة بالية بين فخذي ست الحسن التي سيجلبها.. الله أعلم من أين!

كان يكرر ذلك، فيما الآنسة رجيّة، وهذا اسمها حسب التقاليد المتوارثة في مخاطبة معلمات المدارس، تنظر إلى اقتراحاته بكثير من الهزء، لتعوّضه بصرر القضامة المغلفة بالسكر الملوّن، وكان الشيخ يعلكها مردداً أن أسنانه المتآكلة تتطلب منها أن تعلكها هي ثم تدحشها في فمه، هادفاً من ذلك أن يبتلع لعابها، في شهوة جنسية ربما تضاعفها الأفلام الإباحية التي يتابعها عبر الأقمار الفضائية حين تكون زوجته الثالثة قد تدثرت بكامل لحافها مطلقة شخيرها ورياحها التي تعمي أنف الشيخ رضوان وفمه وآذانه.. الشيخ الذي لم يسأم من مطالبة الآنسة رجيّة بالزواج منه، متخذاً من فرج، ممراً إلى قلب أمه وسريرها، وهو يدغدغ الصبي الصغير مؤكداً عليه أن يوم القيامة بات قريباً، وهو اليوم الذي ما زال يعشش في قلب فرج العلي فياض، ويقوده إلى تفسيرات عديدة

لما يحدث اليوم، فالاضطرابات السكّانية، وناصيات الطرق الممتلئة باحتمالات الموت، لن تكون إلا استمراراً لغضب إلهي، غضب سيأخذنا جميعاً إلى حساب وعقاب طويلين سنكتوي بنيرانهما، بما يحثنا على طلب التوبة، ومواجهة الفئات الخاسرة من البشر الضالين الذين يمكثون وراء أسرار ديانات ومذاهب لا تكشف سرها سوى لأصحابها، من مثل الدروز والعلويين والإسماعيليين، هؤلاء المتقمصون الذين يتكررون على هيئة جماد أو حيوان، وقلما يعودون بشراً مثلنا، حسب الرواية التي يرويها الشيخ نفسه، الذي سيتابع هجاءه بالقول: الكفرة الذين لا يؤمنون لا بالله ولا برسوله ولا بصحابته المنزهين، سيتحولون إلى قطط، ثم يقهقه ضاحكاً:

ـ يا له من مصير!!

كانت المسافة قد اتسعت ما بين فرج العلي فياض وأمه التي قرأت بعمر مبكر جبران خليل جبران، وما زالت تكنّ أطيب الذكريات لسريرها في دار المعلمات، حيث الفسحة الندية ما بينها وبين آداب عصر تزيّن بأرقى الآداب وأرَقِها، غير أنها أخذت بالاعتبار أن أي تضييق قسري للفجوة ما بينها وبين وحيدها، ستؤدي به إلى السلفية الجهادية، أو إلى تنظيم القاعدة، وكان مقاتلوها قد شقوا طريقهم عبر الحدود السورية إلى العراق، متخذين من فجوات وممرات الشمال السوري طريقاً متعرجاً إلى الانتحار، ليعودوا بعد سنوات إلى الحدود السورية، متحفزين لدخول البلاد مجدداً في أعقاب انتصار طلائعهم في ليبيا، مجددين دوراً فقدوه بعد اغتيال أسامة بن لادن، دوراً لا بدَّ أنه أشد غموضاً، وأكثر تعقيداً من أن تفكّك حقيقته السيدة رجيّة.

بين طيّات ذاكرتها المثلومة، غرقت رجيّة في استعادة القراءات الإسلامية التي تحوي قدراً من التسامح، قراءات ربما تساعدها في التقريب ما بينهما، بما يسمح لها أن تحول دون التحاق ولدها

بالسيارات المفخّخة، دون استبعاد الشكوك التي رأت بأن أنظمة وأجهزة استخبارات كانت قد عثرت على شمّاعة لتبرير عملياتها في سلسلة تصفيات خصومها، ودائماً تحت لافتة القاعدة وبقايا فلولها، وكانوا قد اتخذوا مواقع آمنة جديدة، تحت إشراف وإدارة نظام علماني، أدار معاركه مستخدماً كل وسائل الإرهاب.

ـ عدني بأن لا تذكر شيئاً أمامها! طلب فرج العلي فياض.

ـ أمام من؟

ـ أمام ريتا.

ـ ما الذي لا أذكره أمامها؟

ـ رسائلي إليها.

ـ عن أية رسائل تتحدث؟

ارتاح فرج من إجابة جلال، فالرسائل التي يكتبها مستخدماً يده وقلمه، عكس جيله الذي بات يكتب مستخدماً الحاسوب، لم تتجه إليها بالاسم، فقد اتجهت رسائله إلى (ملاكه)، وكان يقرؤها لجلال بنطق متلعثم، فينزعها جلال من يده ويقرأ دون صوت، وبعدئذ:

ـ بصوت مرتفع أرجوك!

كان يقول لجلال، ثم ما إن يستكمل قراءة الرسالة، حتى ينتزعها فرج من يده ويطويها، ثم يدسها في جيبه، ليخرجها ثانية ويمزقها، ويطلق تنهيدة طويلة، تجعله غارقاً في وحدته.

ـ قل لي يا جلال: كيف تقول لمن تحبها أحبك؟!

ـ أقول لها: أحبك!

ـ فقط؟!

أثناء الاستعداد لأمسية موسيقية رعاها المعهد العالي للموسيقا،

وكانت ريتا تتدرب على مقطوعة، ستعزفها من بين المعزوفات التي سيعزفها طلبة دفعتها في المعهد، وقف فرج متفرجاً وكانت تعزف، وخلال تدربها كانت تنظر إلى فرج أكثر مما تنظر إلى مفاتيح البيانو، وحين انتهت من العزف، نظرت إليه مبتسمة ورفعت معصميها إلى الأعلى ورقّصتهما.

ـ أليس هذا هو الحب يا جلال؟!

سأل فرج، ودون انتظار إجابة، تابع: أعرف أنك منشغل بأمور أخرى، ولكن.. لا، ليس هذا هو الحب.. ريتا لطيفة معنا جميعاً، إنها ملاكنا.

ـ أتعني أن الرسائل التي كنت تكتبها، كنت تكتبها إلى ريتا؟

ـ لا.. ليس بالضبط، ولكن ريتا كانت توحي لي بالكتابة.

ـ ومن أجل هذا كنت تزور المعهد كل يوم؟

قال فرج وهو يحني رأسه:

ـ لم أحب طلبة معهدكم ولا الموضة التي يرتدونها.. لا بناطلينهم السالتة على أقفيتهم، ولا ملمّع الشعر الذي يجعل واحدكم يلمع مثل قالب الزبدة.

ـ ولكنني لا أرتدي بنطالاً سالتاً، ولا شعري يلمع مثل الزبدة، إنني مثلك أرتدي بذلة مكوية وقميصاً مكوياً وحذاءً نظيفاً.

ـ أنت تختلف!

على غير عادته، بدا فرج العلي فياض غاضباً، كانت أصابعه ترتجف وكذلك شفته السفلى، فيما انكمشت عيناه وصغرتا، وحين استفسر جلال عن التحول المفاجئ في شخصية فرج، أجابه متلعثماً، وبكلمات متقطعة بدت أكثر تقطعاً وتلعثماً من حوارهما السابق، أجابه بأنه لن ينسى ذاك الشاب الأشقر أكثر مما ينبغي، الذي كان نائماً

في سرير جلال عارياً من الملابس، وقد نهض مستقبلاً ريتا وفرج دون حشمة، وتساءل فرج:

ـ لا أظن أنك تسمح لأختك بمقابلة رجل عارٍ من الملابس.

ـ لم نكن نعرف أنه عارٍ، وحين نهض من النوم كان ما يزال...

ـ يزال أو ما يزال لا يهمني، لقد قرفت من جفنيه الأبيضين، ومقابلته لنا بلا خجل.

ـ أحببته أم كرهته لم يعد الأمر يعنيه، لقد بات في مكان آخر!

ـ أين؟

تتابعت نظرات جلال إلى وجه فرج، ثم قال كموسيقي يدوّزن أوتار عوده، مبتدئاً بكلام هامس هادئ، وبعدها مطلقاً صوتاً هو أشبه بالنحيب:

ـ بخمس طلقات، ثلاث في الصدر وواحدة في البطن والخامسة في منتصف جبينه.. لقد قُتل.

أنبأ جلال فرج بذلك وأضاف:

ـ كان عليك أن لا تستعجل الإعلان عن كراهيته.

كواحد من شباب الانتفاضة، وكمؤمن أيضاً، توقف فرج العلي فياض في منتصف الشارع، رافعاً يديه إلى السماء متضرعاً إلى الله الرحمة، ولكنه وفي حالة بدت وكأنها أخرجته عن إيمانه بالتسليم لله والموت، جلس وسط الشارع ينتحب.. كانت السيارات العابرة تلتف من حوله مدارية أن لا تصدمه أو تأخذه تحت عجلاتها البائسة.. أحس فرج العلي فياض وكأنما خبر مقتل الشاب الأشقر، أحدث انقطاعاً في حياته.

عندما سحبه جلال من ذراعه ليتابعا سيرهما، كانا في ساحة المرجة، حيث تتوضع أربعة باصات على أربعة مفارق، وفي جوف كل منها

مجموعة من رجال الاستخبارات، إضافة إلى سيارتي شرطة صغيرتين تصطفان إحداهما إلى جانب الأخرى شمال الساحة، والشارع الممتد إلى تقاطع المرجة مع تمثال صلاح الدين، كان فارغاً تماماً.. فارغاً بشكل لافت، وكل المحال مقفلة باستثناء مطعم فتة المقادم، وكان فارغاً أيضاً سوى من نادلين اثنين، أحدهما بالغ الطول والسمنة، والآخر بالغ القصر والنحول، وكانت القمامة متناثرة على طول الشارع وعرضه، فيما بوابات الفنادق المضاءة، تشير إلى أماكن مهجورة، عكس ما يمكن للأضواء بأن توحي.

- إلى متى سنبقى في الشوارع؟ سأل جلال.

- سأصلي الفجر في الجامع الأموي. أجاب فرج.

- ما يزال بيننا وبين الفجر ساعة أو أكثر.

- يمكنك أن تستأجر تاكسي وتذهب إلى النوم، ولكنني سأتجول حتى وقت الصلاة.

أصوات المؤذنين بدت متناثرة مصحوبة ببقايا نوم، والمصلون كانوا محدودي العدد، مجموعة لم تكن لتشكل جمهور صلاة، وكان فرج العلي فياض مفرداً، يصلي دون أن يتتبع خطوات الأمام في الركوع وفي السجود، بينما كان يرجو الله أن يسامحه على النيل من الشاب الذي استقبلهم عارياً من الملابس، وبعدها رفع كفيه إلى الأعلى متضرعاً إلى الله أن يريح ريتا من عناء السلس البولي، وأن يشفيها من تعثرات العشى الليلي، وأن يمنحها وقتاً طيباً.

الإنارة البرتقالية، منحت الساحة الغربية للجامع وطأة حس عميق بالعزلة انتاب جلال وقد تعددت ظلاله، وهو يروح ويؤوب في الساحة متأملاً واجهات المحال المغلقة، وما إن خرج فرج العلي فياض متجهاً

إلى جلال حتى انكسرت وحشة المكان ومخاوفه، قال جلال: تقبّل الله!

ـ يعني أنت تؤمن بأن الله يستمع إلى صلواتنا؟!

صمت جلال ولم يجب.

ـ ما دمت تقول لي تقبّل الله، هذا يعني أنك تؤمن.

ـ لا.. ليس الأمر على هذا النحو.

ـ إذن؟

ـ إذن؟ أنا أؤمن بأن كل ما يقوم به الإنسان عن طيب خاطر يقوده إلى الله.

ـ كيف؟!

ـ أؤمن بأن الحرية هي الطريق الوحيد إلى الله.

ـ 10 ـ

بهدوء واختلاس للفجر، دلق أنيس البن المحمص في مطحنة القهوة النحاسية بحفنة من يده، وقبل أن يضع حبات الهيل، تذوق واحدة منها، ثم أدار ذراع المطحنة بالهدوء ذاته، دورات متعددة، ليعود إلى رفع خزان المطحنة النحاسية ويفرك نثارة القهوة بين أصابعه.

هو يعرف إن كانت نائمة أو إن ذهبت إلى مناماتها وقد تكوّرت في سريرها مستسلمة للنوم، فبالتجربة والخبرة، كانت دقات قلب مريم تصله، كما أنفاسها. ولكن الأمر الآن بات مدعاة للسخرية حسب ما يظن أنيس، فالولد النائم في سرير ماشاالله، لم يبقِ للقهوة إغواءاتها، كما لم يتبقَ لأواني المطبخ ما يشير إلى سبب لإبقائها وقد حملت بالكثير من الإجلال، أوانٍ فخّارية مطلية باللكر اللماع، وفناجين قهوة مذهّبة الحواف وعلى سطحها مراعٍ شاعرية مصطفة فوق حامل خشبي تجاوز عمره المئة سنة.

لاحقاً، وبعد أن أنجز أنيس طحن البن، دخلت مريم المطبخ، وفور دخولها ألقت على أنيس تحية الصباح.

انزعجت مريم من كونه يجيبها على مضض، كما انزعجت من ملاحظته التي بدأت بالقول: لقد تأخرتِ في النوم!

كانا يرتديان خفين متشابهين، خفين من قماش شتوي يحول دون

تسلل البرد من بلاط الأرضية العاري، وحين وضع فنجانين اثنين فوق الصينية القرمزية متجهاً إلى سكب سائل البن فيهما، قالت له مريم:

ـ أنيس.. ضع فنجاناً ثالثاً!

وهو يضع الفنجان الثالث، كان يظن أن هذا الفنجان بمثابة معادل للتواصل ما بين رضا ومريم، بل أكثر من ذلك، اعتبره بمثابة تواطؤ من مريم على العذرية الطويلة التي عاشتها، إلا إذا حدث أن تعرقلت الأمور، وعاد وجه مريم كما كان منذ يوم وليلة، وجهاً ستينياً، بتجاعيد تحت العينين ومحيط الشفتين، ذلك أن مريم بدت أصغر من عمرها بما لا يقل عن عشرين سنة، وبدت كما لو أنها تستعد لعمر جديد، تلوّح فيه من طوّافتها لسنيها الفائتة، مرتابة من كل من يحاول إيقاظ ذاكرتها والقول: «مريم.. يجب ألا يذهب عمرنا سدى». يقول ذلك بما يعني بالنسبة إلى مريم: «مريم، ابقي محاطة بماضٍ مهشّم ومدمى».

كلامه هذا يعني، أن تشرب قهوة الصباح ثم تقلب فنجانها فوق صحنه، ليرسم خطوط حظها المتغيّرة حسب نوع البن وكميته، أن تفرد خيوط الكانفا وتوصلها بمجموعة من الإبر مستخدمة نظارة طبية للعثور على فتحة الإبرة، أن تجلس على المقعد ذاته وأنيس يجلس قبالتها، أن يباغتها رعد الأسمر بالقول إن ملاك الرئيس الراحل صدام حسين أتاه في المنام وهو يتدثر برداء أبيض، أن يطل ناصر من باب غرفته متجهاً إلى الحمّام تاركاً وراءه أسراره التي يدحرجها في مصرف المياه الوسخة، أن تستمع إلى أزيز التلفاز، أن تفتش مع أنيس في حوصلة دجاجة عن حجر كريم ابتلعته الدجاجة قبل ذبحها، أن تخرج مرة واحدة في السنة لتضع فوق قبر ماشاالله ضمة من زهرة البيلّادونا، أن... وتذكرت مريم أن ثمة من يبيت في غرفة ماشاالله، وأن رضا لم يصحُ.

لا ضوء ولا صوت في صالة البانسيون، لقد كانت الستائر تلف الظلمة الكالحة وتحيط بها وتحضنها، وهذا ما لاحظته مريم، ربما لأول مرة في حياتها، لاحظت مع ما لاحظت أن الخوف هو من يحمل الستائر لا الأخشاب الملقاة أفقياً على جدار صالتها.

راحت تدور كالعميان في الصالة، لاهثة، باحثة عن قاطع الكهرباء ليباغتها أنيس بأن أضاء قنديل الزاوية، عندئذ توجهت بنظراتها إلى أنيس لتقول له:

ـ في الخارج نهار، أليس كذلك؟

بصعوبة كان صوت أنيس يخرج من حلقه، ازدادت حالته سوءاً، وتسارعت نبضات قلبه، وكان يشعر بجفاف فظيع في فمه.. قال لها:

ـ ست مريم! وناولها قطعة الكانفا.

بعد أن أمسكت بالقطعة انزاحت القطعة عن ساقيها ووقعت أرضاً، لم تحاول مريم التقاط الكانفا، وحين انحنى أنيس ليرفعها، قالت ناهرة: دعها.. اذهب وأيقظ الولد!

بدت تحولات أنيس منذ يوم وليلة أمراً مقيتاً، فقد رأت أنه يكرر اقتراح أن يقتل نفسه، ولم ترَ أن واجبها الحيلولة دون ذلك، إذا ما كانت اقتراحاته جدية، غير أنها كانت على ثقة بأنه مجرد عجوز يهذي، وليس من واجبها التصرف إزاء هذياناته، وبالمقابل بدا أنيس وكأنما وقع في الخيبة، فقد كانت عينا مريم المشعّتان أقل كفاءة من التقاط العشق في عينيه، وكانت ذاكرتها أقل سعة من تجميع التفاصيل الصغيرة للحب التي كان عليها أن تخزّنها.

لم تفهم مريم اندفاعات أنيس نحو ترحيل الولد رضا، ولم تفهم تردده في وضع فنجان ثالث فوق صينية القهوة، ولم تفهم سبباً لوقوفه بمواجهتها ورضا يقف خلفه وكأنه يغطي على كادر يجعل رضا يقف

قبالتها، ولم تفهم تلك النظرات الكارهة لرضا، إضافة إلى كل ذلك، لم تفهم السبب الذي جعل عينيه مغرورقتين بالدموع، منذ فجر هذا اليوم، وهي تتظاهر بعدم الرؤيا.

عندما كررت طلبها بإيقاظ رضا، راح يفتح فمه واسعاً ويرجع رأسه إلى الوراء، ليبتلع طناً من الهواء، وكأنه يستنجد برئتيه على استيعاب ما يحدث، وحين استرخى ملتفاً حول نفسه ليتابع السير إلى غرفة ماشاالله، راح يتمتم: هذا كثير.. كثيرا!

عندما ارتمى بكامل جسده فوق باب غرفة ماشاالله، أدرك أن الباب منفوخ بفعل الرطوبة، وحين أعاد دفعه من جديد، كان رضا ممدداً فوق السرير وبطنه للأسفل فيما يكشف الغطاء عن ذراعين متينين، ظن أنهما ذراعا ملاكم، وبعد أن دقق النظر ملياً بالفتى المستغرق في النوم، ظن أن الفكاك بات أمراً صعباً، وكل ما عليه فعله هو مجرد تعميق اليأس وتكرار المحاولة.

لم يفكر أنيس بإيقاظ رضا، ولهذا عاد إلى مريم متذرعاً بالقول:

ـ دعيه نائماً.. إنه كالكبش في سريره.

قال هذا واسترخى، تماماً كما يفعل السبّاحون في سباقات المسافات الطويلة، ولكن نظرات مريم المتشككة أعادته إلى التحفز من جديد، وزاد من توتره أنها غمغمت بكلام لم يفهمه، فقد طلب منها أن تعيد كلامها.

ـ لا شيء. قالت مريم، ثم عقّبت، وكأنها تخاطب نفسها: كان عليه أن يستيقظ ليرحل!

هنالك الكثير من الهواء في هذه الصالة، وحين تجرّع كمية منه فاتحاً فمه، بدا أنيس وكأنه يتذوق طعم الهواء لأول مرة، كان يمضغ الهواء، ويتحسسه بأصابعه ولسانه وفمه، وما لم تفهمه مريم، تلك الروح

الاحتفالية المباغتة التي حلت بأنيس، فقد تحفّز كما حصان ومضى نحو غرفة ماشاالله وهو يقفز قفزاً، وحين بات أمام باب الغرفة، لم يجد سبباً لحبَل حلَّ بهذا الباب، أو لانتفاخ في خشبه. فتح باب الغرفة ودلف إلى رضا، ثم وقف فوق رأسه، كان رضا قد تقلّب في فرشته بما جعل صدره ووجهه للأعلى، وبابتسامة تنم عن طيب سريرة، فتح عينيه، وقال لأنيس:

ـ صباحو عم أنيس..

ثم تململ في فراشه لينهض بنصف جسده وهو يفرك عينيه ويقول متابعاً، وقد أمسك بيد أنيس:

ـ هذا أحلى صباح في حياتي.. كم أنت جميل يا عم!!

قال رضا بصوت ما زال النوم يقطّعه، ثم نظر إلى ساعة يده، ليقول: أوف.. ما زال الوقت مبكراً.. وبرجاء طفولي تابع:

ـ عم أنيس، بالله عليك دعني أنام.. يا الله كم كان مناماً عذباً.. لقد كنا معاً، أين.. لا أعلم، ولكن في مدينة أخرى، هل تعرف أين كنا؟

قال رضا ذلك، وعاد متكوراً كما طفل في سريره، ولكن أنيس لم يكن ليدرك سبباً للفجيعة التي حلت به، فما إن زفر الهواء من رئتيه، حتى ارتمى أرضاً وهو يجهش ببكاء متقطع، وحين استفاق من نوبة بكائه مستعيداً كلام رضا، بدت كلمات رضا وكأنها الخلود الوحيد الذي استطاع أن يشارك فيه طيلة حياته.

بعد أن ترك رضا نائماً، عاد أنيس متكئاً على جدران الممر نحو الصالة، وتابع طريقه نحو غرفته صامتاً دون أن ينطق بكلمة واحدة، وبعينين تحجب الدموع الرؤية عنهما، مكث أرضاً وهو ينقّب في متاعه.. متاع لم يكن في حقيقته ليتجاوز متاع المنفي منذ ولادته، كان ألبوم الصور قد جمعه بأعلام الأدب والفكر الفرنسيين، ففيه لقطات تظهره

إلى جانب جان بول سارتر ووراءهما برج إيفل.. لقطات في واحد من مقاهي الرصيف حيث يكوّم صحفه ويجلس وإلى قبالته سيمون دو بوفوار، الكاتبة الفرنسية، ولقطات إلى جانب السينمائي الفرنسي جان لوك غودار، إضافة إلى مجموعة من الصور جمعته في رحلة لم يكن على صداقة بأي من أفرادها، وكان زورق الرحلة يقطع نهر السين، هادئاً متموجاً.

من بين متاعه، خزّن أنيس ساعة صدر، بسلسلة فضية، ربما تعود إلى بدايات نهضة الساعات السويسرية، كما بخاتم لم يحمله سوى مرة واحدة، وكان قد وضعه في إصبعه الوسطى بسبب اتساع دائرته، خاتم حفر فوقه البيكار الماسوني، وطُليت مقدمته باللون الكحلي الغامق، خاتم أهدته إليه صبية فرنسية أعجبت ذات يوم بنثرياته التي نشرها في كراس جيب صغير، من الكراريس المطبوعة على ورق الجرائد، وكانت البنت الفرنسية، على يقين من أنها متحدرة من عائلة فرنسية على صلة عميقة بالحركة الماسونية التي لا تطلق أسرارها أمام نسائها.. إضافة إلى ساعة اليد والخاتم، عثر على رسالة من البنت الفرنسية ذاتها، وكانت الرسالة مكتوبة على عرض الصفحة، وفيها تشجعه على الانتحار إن عجز على أن يعثر على جدوى من حياته، لتختم رسالتها بالقول: «إذا تيقنت أن لا معنى لحياتك فغادرها!»، وتحت هذه الجملة التي ختمت بها رسالتها، دوّنت اسمها وتوقيعها: «إيرينا».

تظاهر أنيس بعدم رؤيته للرسالة، ولكنه عزم على حمل الساعة والخاتم ودسهما في جيب بيجامته، ثم غادر الغرفة تاركاً متاعه وقد تبعثر فوق سريره.

ـ أنت لا تفهمين ما يثير غضبي.. إن ما يثير غضبي ليس تدخلاته في حياتنا، بل حياته التي يسفحها في السخرية وإضاعتها هكذا.

قال لمريم، وبطبيعة الحال كان يقصد رضا في انتقاداته هذه.

التفتت مريم إليه، ولم تكن لتفهم سبباً لاعترافات كهذه من أنيس.. أكثر من ذلك لم تكن لتفهم من المقصود النهائي بكلام أنيس، ليجد أنيس نفسه مجدداً أمام حالة من عدم الفهم، ما دفعه لتكرار ما قال، مضيفاً:

ـ لو كنا متزوجين، أعني لو كان أحدنا متزوجاً لكان له أولاد بعمره.

قبل أن توطد مريم ابتسامتها وقد استهجنت ما يقوله أنيس، انفتح باب غرفة ماشالله، وراح رضا يشق بخطواته الواسعة الممر المؤدي إلى الصالة ليقف، دون حذاء، ودون الخف المنزلي الموضوع تحت سرير الغرفة، وقف متلفتاً إليهما، ليقول لهما، بصيغة الجمع:

ـ أظن أنكما تتحدثان بأمور خاصة.

ـ لا.. اجلس! قالت مريم.

بعد أن عاد رضا ليجول ببصره مستطلعاً كليهما، عثر على كلام مختبئ في فم أنيس.. كان أنيس يشير بحركات غامضة إلى مريم وكأنه يقول لها: عندي ما سأقوله لك.

مودّعاً جلستهما بابتسامة خبيثة لا تخلو من العذوبة، استدار رضا ليقول لهما:

ـ سأبلل شعري بحفنة ماء علني أصحو. ثم مضى مغادراً.

ـ أنيس.. ما بك؟ تساءلت مريم.

ـ إلى أين سيذهب هذا الولد؟ قال أنيس.

ـ ماذا؟!

ـ أقول.. إلى أين سيذهب؟.. أقترح أن يبقى معنا، نعم ليوم أو يومين ليس مهماً!

قال أنيس ما قال، ثم تابع ليقطع كلامه بسعاله الموجع، ويده

تضغط فوق شحمة أذنه: «هكذا هم الطلبة الغرباء، يبيتون ليلة في بيوت الأصدقاء، وليلة في غرف مستأجرة، وقد يبيتون تحت الجسور وفي الحدائق العامة». ثم جلس قبالتها مصححاً من انحناء ظهره، وأضاف:

ـ الطلبة الغرباء سيكونون أحوج إلى الأمهات مما هم بحاجة إلى الجامعات والمناهج والأساتذة.. نعم سيكونون أحوج ما يكون إلى الأمهات، فالآباء ليسوا سوى كائنات مشكوك بقيمتها، بل مشكوك بحقيقتها، فليس ثمة من بوسعه أن يثبت أن هذا الأب هو أبوه، ولكن ليس ثمة من يشك في أن هذه المرأة أمه.

قال ذلك، واستدرك ليقول متابعاً السعال:

ـ صحيح أن فحوصات الدي إن إي، قادرة على تقرير حقيقة الأبوة من عدمها، ولكن من الصعب على مليارات البشر، الذهاب إلى المخابر للتأكد من حقيقة آبائهم. نعم يا مريم، الدنيا أم، كم سيكون الرجل قوياً بفضل أمه!

قال ذلك بينما كانت الحمى ترتفع فوق جبينه، وكان إضافة إلى نوبة الحمى يرتجف من البرد، ويطلق سعالاً مجروحاً.

سألته مريم: أنيس ما بك؟

ـ لا.. ولا شيء، إنها أمراض الشتاء يا مريم، إنها الأنفلونزا.

وكأن خفاشاً كان يحوّم في غرفة ماشاالله، فقد نهض رضا من فراشه ليعود إليه مثقلاً بالدوار، كانت عظام وجهه تتكسر، وكانت رعشات البرد قد أخذت به أيما مأخذ، وبالرغم من أنه بات ليلته عازماً على الرحيل المبكر من هذا البانسيون وقد وجد نفسه غير مرحب به، غير أن ثقل جسده، وتراخي ساقيه جعلاه عاجزاً عن تنفيذ قراره، وكان ارتدى جوربيه وحذائه، وهاتف ريتا ليقول لها إنه سيلاقيها بعد قليل.

ـ أين سنلتقي؟ سألت ريتا.

تذكر رضا أمراً على غاية من الأهمية، فأجهزة الاستخبارات كانت قد استحدثت تقنيات متطورة بوسعها التقاط أزيز الذبابة، والاستدلال على المكان التي تحوم فوقه، ولهذا أقفل هاتفه وقد أحاطت به وساوس تفيد بأنه تحت النظر في هذه اللحظة، وبأنهم يسمعونه ويرونه وهو يقف مسنداً ظهره إلى الحائط وأمامه الصورة المتكررة للمسيح وأمه تحضنه، وذهب في خياله أبعد من ذلك ليتصور أن خبراء هذه الأجهزة يسمعون في هذه اللحظة همسات أنيس لمريم، وهو الذي اعتبرها أمراً خاصاً محصوراً بينهما، وأضاف الى اعتقاده هذا، أن والد ريتا، وهو اليساري الذي ألغى من كنيته لقب باشا، وتحول إلى مارد مالي، سيفوز بالتنصت على مكالمات ابنته، أقلها لأنه لن يدع الذئاب تطارد غنمته.

حين تأمل غرفة ماشاالله مدققاً بتفاصيلها، تراءى له أن قوة سحرية خارقة تختبئ في هذه الغرفة.. قوة هي من تقوده إلى هذه الوساوس، وأفاض في خيال يدعوه إلى الإيمان بأن ثمة قوى خارقة تتحكم بمصائرنا، مستنداً في ذلك إلى الطاقة المختبئة وراء مجاهيل الموتى، وكان ذلك تالياً ليقينه بأن غرفة ماشاالله، هي غرفة لراحلة تسكن المقبرة، وبأنها أودعت في هذه الغرفة شعاعاً من روحها، شعاعاً ما زال يظلل هواء الغرفة، بزفرات، لن يكون بوسع أي من الأحياء تدارك سخونتها.

حين استفاق من وساوسه، كرّر مخاطباً نفسه: إنها لعنة المكان!

وأضاف: يبدو أنني دخلت في المكان الذي ستطاردني لعنته، وعلي الرحيل منه.

قال ذلك معتقداً حتى اللحظة أنه بمنجاة من أقدار مكتوبة، تسبق حامليها بخطوات أو تتعقبهم، ثم جال في ذاكرته مستعيداً

نكهة السخرية التي صبغته، ورافقته منذ كان في المرحلة الابتدائية، طفلاً صغيراً يرشق المعلمين ببيض الدجاج، معتقداً أنه سيحوّل معلمي المدرسة إلى كعك محلّى..

ـ ما الذي يحدث؟!

كرّر سؤاله، وكان كمن يتعقب آثار دليله، كان يستحضر حاضره متيقناً أنه لم يسبق أن دخل في أية هلوسات غيبية، وأن المسافة ما بينه وبين الميتافيزيق مسافة لن يكون من الوارد أو المحتمل أن يقطعها، أو يدخلها، ولهذا غالب نفسه، مستحضراً استخلاصاً اعتبره معجزة حين قال لريتا وهو يهاتفها: ريتا.. يجب أن نفهم أن النساء الحوامل هن النساء الأكثر عرضة للولادة.

كانت ريتا على الطرف الآخر من الخط، قد تأملت في استخلاصه هذا، دون أن يخالجها أدنى شك في أنه يمتحن حس الضحك فيها، وحين استغرقت في تأمل استخلاصها تابع ليقول لها:

ـ أكيد، على الأقل هذا وفق إحصائية للمركز القومي للمعلومات السورية.

كمن يغالب نفسه، كرر رضا مكالمة ريتا، وقد دخل في مجازفة جديدة: ريتا، أشعر أنني محاط بمخلوقات مدفونة في هذا المكان العجيب.

ـ يبدو أنك تمزح، قالت له ريتا، ثم: كنت تهزأ مني.. نعم، كنت تهزأ مني، فأي استخلاص عظيم هذا الذي تقوله من أن النساء الحوامل هن النساء الأكثر عرضة للولادة؟ وهل من الممكن أو المعقول أن تكون امرأة غير حامل عرضة للولادة؟!

ـ ريتا، ما الذي دهاك لقول ذلك؟! نعم، بالطبع... ألم يولد السيد المسيح من غير حبل؟!

قال لها ذلك وكرّر النظر إلى صورة يسوع، ثم طلب منها إقفال الخط، معتذراً عن لقائها، لأن:

ـ أنيس متعب، ومصاب بالحمى، وساقاه تلتويان تحته، والعرق ينضح من جبينه، ثم:

ـ لو تسعفينني بألفي ليرة سورية!

كان رضا متيقناً من أنها ستأتيه وقد حملت المبلغ المطلوب، وبأنها ستطرق باب بانسيون مريم لتقول بابتسامتها الخجولة: رضا هون؟

لن تسمح مريم باستمرار هذه الفوضى، قالت ذلك لأنيس، ولن تسمح بتدفق البنات والشباب إلى هذا البانسيون، وأقسمت أن توبّخ جلال على الهدية التي قدمها لها، والتي تجاوزت إدخال رضا إلى مملكتها، إلى إدخال البنت المضغوطة المثانة، تلك الهبلاء التي تعزف أجمل المقطوعات على البيانو.

أبلغت مريم ذلك لأنيس، بعد أن التقطت نفوره من رضا، وكانت قد فعلت ذلك وقد أسندت أنيس إلى كتفها، وساقته إلى غرفته والحرارة تعلو جبينه، فيما كانت عيناه تذبلان، وراح بعدئذ يغط في النوم وأوصاله ما زالت ترتعش من القشعريرة المباغتة.

حين دققت النظر في مرآة غرفة أنيس، لم يكن من السهل على مريم أن تتعرف على نفسها، فقد لحظت أن ثمة فتوة في عينيها، وحين قلبت كفها نحو راحة الكف، ثم أعادت النظر إلى قفا يدها، بدا أن العروق الناتئة في يديها قد اختفت وغارت تحت جلد لم تخمد الحياة فيه، كذلك حال عنقها، والدائرة المحيطة بشفتيها.

كانت تعلم أن دخول هذا الولد إلى هذا المكان، سيدوّن حياة جديدة، حياة لن يكون من اليسير على مريم الترحاب بها، دون اختلاجات عقد ذنب وندوب في روحها، وهي ضحية الحب.. نعم هي كذلك، أقله كونها

البنت الوحيدة لماشالله، التي ماتت وهي تطرق جدران سجن النساء باحثة عن روح زوجها، مؤمنة بما لا يحمل الشك، بأنها روح مضرجة بالدماء، تتجول بين السجينات العاريات اللواتي يضاجعن الهواء، لتحل روحه الشبقة بين أفخاذهن، تماماً كما حاله حياً، إذ كان يقطف النساء من أسرّة أزواجهن، كما تقطف الفلاحات الهندباء من أراضٍ لم تزهق عذريتها.

النظرة البلهاء التي طالت، ورضا يتأمل اصفرار وجه أنيس، دعت مريم إلى ملاحظة أن أنيس بات شاحباً، وما إن دعت أنيس إلى دخول غرفته والاستلقاء فوق سريرها، حتى تقدّم رضا ممسكاً بيد أنيس، ليدعوه إلى الاستناد على كتفه.

ـ استند على كتفي، عم أنيس!

مشى أنيس بمفرده نحو غرفته مترنحاً، وكان رضا يسنده من بعيد.. كانت راحتاه تتأرجحان في الهواء وهو يسير وراء أنيس قلقاً، متجاهلاً الدهشة في عيني مريم، التي بدت وكأنها استخلاص يقترب من الاعتقاد بأن المظهر الهازئ لرضا، ليس هو الحقيقة الحقيقية لهذا الولد، ففيه ما يكفي من حس المسؤولية والغيرية وحب الآخر، ما يجعله يسند أنيس على ذراعه، ليحمله ويضعه في سريره، فيما القبضة اليسرى ليد أنيس، ما زالت مضمومة على الخاتم وساعة الجيب وقد تدلت سلسلتها من يده.

ـ سنستدعي طبيباً. قال رضا.

غاب رضا ما يزيد على نصف ساعة، ليعود صاعداً سلم العمارة ووراءه طبيب بالغ البدانة يطلق أنفاسه كما لو كان يشخر، وكان رضا قد حمل حقيبة الطبيب متقدماً عليه بدرجتين اثنتين، ليقفا معاً بانتظار أن ينفتح باب البانسيون ويدخلا.

وكأن مريم التي لم تسمع طرقات الباب، كانت تتأمل قسمات وجه أنيس وقد بدا وجهه كما منحوتة قيصر: جبهة متقدمة، وأنف يتدرج في نزوله منتهياً بمنخرين كبيرين متكورين، وشفتين صغيرتين مستديرتين، وعنق طويل تعلوه أوردة زرقاء نافرة، لم تخفها تفاحة آدم الضخمة.. كانت ترغب في الانحناء قليلاً وتقبيل أنيس فوق جبينه، في تلك اللحظة التي بدا وكأنها اكتشاف متأخر، اكتشاف رجل يكرّر في حالة من الهذيان اسمها، مع جملة باللغة الفرنسية، جملة كانت قادرة على ترجمتها، وفهم مفرداتها، مع أنها انقطعت عن تعلم اللغة الفرنسية منذ رحيل ماشاالله، بعد أن كانت تدرس في واحدة من الإرساليات التي وصلت دمشق وأقامت فيها مدراس لتعليم اللغة الفرنسية، إضافة إلى تعاليم الأناجيل المقدسة.

كان يكرر هاذياً:

ـ مريم الجديدة أكثر من أي وقت مضى.

تكررت الطرقات القلقة على باب البانسيون، ولم يكن بوارد أي من بقية السكان التوجه إلى الباب وفتحه، ذلك أن رعد الأسمر، لم يعتد أن يفتح الباب، وقد اعتاد أن فتح الباب هو مهمة حصرية بأنيس، فيما كان ناصر يغفو مطوقاً جسده بكلتا يديه وكأنه يتشبث بهذا الجسد خوفاً من أن يفر من يديه هارباً.

بعد تكرار الطرقات وتوترها، التفتت مريم لتخرج من غرفة أنيس باتجاه الصالة، ومن ثم الباب، وبعد أن فتحته، أشار رضا إلى الطبيب البدين بالدخول.

ـ ليس ثمة ما يستدعي استدعائي على هذه الصورة..

قال الطبيب ملتفتاً إلى رضا بعد أن خرج من الغرفة، ليجد رضا ومريم واقفين، مريم شابكةً ذراعيها، ورضا مسنداً ظهره إلى الحائط.

ـ ولكنه يا دكتور...

قاطع الطبيب رضا، مبدياً انزعاجاً شديداً، ليقول له:

ـ ليست حالة إسعافية كما فهمت منك.. مجرد حمى.. أنفلونزا.. نصف سكان البلد مصابون بالحمى في هذا الموسم.

ناول الطبيب وصفته لرضا، ثم التفت إلى مريم ليقول لها:

ـ أكثري له من العصائر والسوائل.. أنت ابنته.. ها؟

ثم تابع ملتفتاً إلى رضا:

ـ وأنت لا تنسى أن تجلب الوصفة لجدك!

الطبيب البدين، لم يُبدِ استعجالاً في أخذ أجوره مقابل خدمته، فقد دفع بيده يد مريم وقد ضمت ورقة نقدية ليقول لها:

ـ إننا جيران أيتها السيدة.. أنا في العمارة المجاورة.. إذا احتجتم لأي شيء أنا بالخدمة.

ثم لامس رأس رضا، مصوّباً كلامه إلى مريم:

ـ هل ابنك دائم اللهفة على النحو الذي جاءني به اليوم؟!

قبل أن يخرج رضا مودّعاً الطبيب إلى باب البانسيون، لحظ الدموع في عيني مريم، وحين عاد إليها، بدت مريم وكأنها ستختنق وهي تتحسس عنقها بسبابتها.

وقف رضا بمواجهة مريم، ليمرر يده فوق شعرها وسط عثرات دبابيس الشعر التي رفعته للأعلى ليستقر كما كعكة في مؤخرة رأسها، شعرت مريم باختلاط داخلي رقيق تتخلله لمعات أحاسيس لمسية، أحاسيس انتهكت القيود والقوانين التي تعايشت معها مريم.

تابع رضا ملامسة شعرها، وهو ينظر في عينيها، ودون تفسير للدافع، كان مع كل ملامسة يفك واحداً من الدبابيس ويرميه أرضاً،

حتى فكك الكعكة وانساب شعرها فوق كتفيها. رغب في أن يقبّلها، ورغبت في أن يفعل ذلك، وكانت كل ملامسة توفرها له، توازي بمتعتها سحبةً من سيجارة كان يسرقها وهو صغير من علبة لفائف والده.

انبعثت من مريم رائحة، هي أقرب إلى رائحة ثمرة الكبّاد، كانت رائحة الكبّاد قد حلت في فضاء الغرفة، وازداد انتشار الرائحة مع كل زفرة من زفراتها، وكان قلبها يخفق بضربات يمكن لمن يصغي أن يسمعها.. دقات قلب تتوقف ثم تستعاد رشيقة تعلو وتعلو، وتنساب دون توقف.

بهدوء، رفعت راحة يده عن شعرها، تاركةً وراءها شاهداً على الرغبة، كانت الدبابيس المتبعثرة فوق بلاط الغرفة شهوداً على أن مريم قابلة لأن تقبل بالقوانين الطبيعية، مجردة من الاحتجاج على هتك ما رافقها من قوانين طيلة عمرها.

مكث رضا إلى جانب أنيس وحيداً، وكان أنيس فيما يشبه الغيبوبة، قد تدثّر بكل الأغطية.. بلحاف منجّد، وبطانية لها ملمس الصوف الكاشميري، وشرشف مورد مخصص بالأصل غطاء للمائدة.. كان قد بلل أغطيته بتعرّق من جسد يقاوم الشيخوخة والحمى.

نهض رضا متجهاً إلى خزانة ملابس أنيس، عازماً على أن يبدّل ثياب أنيس بملابس جافة، كانت الثياب المطوية بإتقان ظاهر، هي بمجموعها من الملابس الداخلية: قمصان قطن بأذرع كاملة، سراويل تحتية تصل إلى الركبة، بزّة من الكتان يمكن ارتداؤها تحت سترة البيجاما، وقبعات رأس طرية تناسب أن يرتديها خلال النوم لتحفظ رأسه من البرد، وكذلك زجاجتا كولونيا، واحدة فارغة، والثانية مخصّصة لما بعد الحلاقة مرسوم فوقها أعواد من زهرة الياسمين تلامس وجه رجل.

تحت كمّ الملابس هذا، عثر على رزم من الأوراق، أوراق مكتوبة باللغة العربية، ومرتبة ببراعة فائقة بما يجعلها توحي وكأنها فصول كتاب ناجز، لم يدقق رضا في هذه الأوراق، على العكس تماماً، حاول إعادتها كما كانت.. بالترتيب نفسه والموضع نفسه، وكان بذلك يردع فضوله في معرفة ما الذي يمكن لهذا العجوز أن يكتبه؟ وحين رفع من الخزانة قميصاً داخلياً، وسروالاً وبيجاما وقبعة، اتجه نحو أنيس رافعاً الأغطية عنه، عازماً أن ينزع ملابس أنيس المتبللة، ليلبسه ملابس جافة، عند ذلك تذكّر أن وصفة الطبيب ما زالت في يده، وأن عليه أن يغادر الغرفة معيداً الأغطية إلى جسد مريضه.

حين غادر الغرفة، بدا حريصاً أن يمشي دون إحداث أية جلبة، وحين وصل إلى مركز الصالة لم يعثر على مريم، ولكنه لاحظ أن ثمة شيئاً قد تغيّر في هذا المكان، ولم يستطع أن يتعرف على ما تغيّر نتيجة الوقت الضاغط الذي يحثه على مغادرة البانسيون والاتجاه نحو الصيدلية لشراء الوصفة.

كان الطريق يتدحرج أمامه مكشوفاً، وهو يتجه إلى شارع 29 أيار، حيث الصيدلية الضخمة، تقبع الى جانب مكتبة ربما ستكون من المكتبات الأكثر ضخامة في العاصمة، مكتبة تحوي كتباً دينية إلكترونية، مع أقراص مضغوطة تحوي محاضرات شيوخ وأناشيد دينية، مع مجموعات هائلة من الكتب المعنوّنة بحروف مذهبة، بخلفية بنية تبرز مساحات ضئيلة خضراء من اللون الأخضر الزيتي.

لأول مرة في حياته، وكان منذ يوم قد بلغ 23 عاماً، يشاهد قرداً حقيقياً، فقد كانت ساحة المحافظة القريبة على نحو أذرع من الصيدلية تحتفل.. كانت الأعلام الوطنية قد غطت شارع 29 أيار باتجاهيه، وكان المحتفلون يعيدون أغاني ابتكرها شاب سوري انتزعت حنجرته على يد الاستخبارات وقوات المداهمات العسكرية في مدينة حمص، يعيدونها

معكوسة، بكلمات في غير اتجاه الكلمات التي غنّاها القاشوش (وهذا اسمه)، كلمات تؤكد تأييد المتظاهرين للسلطة، كما تؤكد عزمهم على هزم المؤامرة التي تحيكها أيادٍ في ظلام الغرف السرية.

حين توقف رضا أمام القرد ومرافقه، كان قد دخل دائرة واسعة من الناس المتجمهرين حول القرد الراقص، وكان القرد يرقص على إيقاعات دف يضربها صاحب القرد، وبين كل ضربة وضربة يلوّح بخيزرانته في وجه القرد المعاند الذي يتوقف عن الرقص، في محاولة يائسة للخروج من دائرة المحتفلين الذين يقومون بحركات ساخرة من القرد، حركات لا بدَّ أنها كانت مبعث استفزاز لهذا الكائن الذي ينحدر من سلالات هي الأقرب إلى سلالات البشر، بما يسمح للإنسان أن يناديه، بـ: «يا جدنا!».

ارتدّ رضا من دائرة القرد بدفعة من يد مجهولة، وحين أصبح خارج الدائرة، تابع طريقه مسرعاً إلى الصيدلية عازماً على شراء ما كتبه الطبيب الطيب.

دقق الصيدلاني بعينيه الخضراوين الصغيرتين بالوصفة، وقلب شفته السفلى بين أسنانه، وقد تيّبس اللعاب الأبيض فوقها، ثم قضم لعابه المتيبس وكأنه يتذوقه، وبعد ذلك أخرج ثلاثة أنواع من الأدوية، وحين استدار رضا متجهاً إلى باب الصيدلية وهو يحمل كيس الأدوية، كان القرد يفرّ هارباً، قاطعاً الطريق باتجاه السبع بحرات، متبوعاً بموكب هائل من البشر الذين يحاولون الإمساك بالحبل المعلق في عنقه.

تجاهل رضا المشهد، محفوفاً بالرغبة في الإسراع بالعودة إلى البانسيون، ليناول أنيس أول حبات الدواء.. كان رعد الأسمر قد نهض من غرفته متجهاً إلى الصالة، وحين توقف في منتصفها لاحظ أن ثمة ما تغيّر.

فرقع رعد ضحكته، وقد باتت سمة حصرية به، واستدار نحو مريم ليقول لها:

ـ أقول... إيش اللي صار.. أشوف الستارة مفتوحة؟!

صفق رعد الأسمر ثلاث صفقات متتالية، ثم صفقة واحدة، وأعاد التصفيق ثلاث صفقات متتالية ثم صفقة واحدة، وراح يرقص وهو يدور حول نفسه.

ـ 11 ـ

ريتا التي كانت قلقة من المواعيد المؤجلة مع رضا، حاولت إخفاء قلقها عن أمها انتصار، واحتاطت أن تعطّل منبّه هاتفها النقّال بما يجعلها تتلقى مكالماتها دون تنبيه أمها برناته المأخوذة من مقطوعة موسيقية، مقتطفة من العقل الذي يحط من شأن الغرائز، غير أن هاتفها لم يشع بأضوائه، كما لم يهز رجّاجه فخذها الذي وضعت الهاتف تحته.

بدت ريتا وكأنها واحدة من البنات العوانس، في هذه اللحظة، وكانت استبدلت بثياب الشارع ثياباً منزلية فضفاضة، وربطت شعرها بمنديل تاركة ذيلاً صغيراً يرتفع فوق رأسها. وحين دققت في مرآتها الصغيرة، لاحظت أن حب الشباب يعلو وجهها، حبات متناثرة فوق جبينها وخديها، ولحظت تشققات طفيفة في شفتها السفلى، غير أنها لم تكن لتعبأ بكل ذلك لولا دخول والدها المفاجئ إلى غرفتها، ووقوفه الطويل، صامتاً، متأملاً، ثم انعطافه على نحو مفاجئ ليحكم إغلاق الباب خلفه وكأنه يحمل سراً.

ـ أظن أنك تعرفين من أنا! قال قدري لابنته.

وما إن التفتت إليه متسائلة، حتى أكمل:

ـ بالتأكيد، لن تسمح لك انتصار بالتعرف إلى حقيقة أن جدك

كان أحد أهم البرلمانيين السوريين يوم كان لسوريا حياة برلمانية، ووالد جدك كان والياً من ولاة تونس، ووالد والد والد جدك كان بمرتبة وزير في الدولة العثمانية، وما لا أشك فيه أن معلومات كهذه لن تتناسب مع سلالة أمك المنحطة المنحدرة من عائلة كل من فيها متسول وقوّاد وأهبل.

قبل أن يكمل وكان شديد الانفعال، يلوّح بقبضته وكأنه جاهز لصفعها، وقفت ريتا متداركة أن يصفعها، ولكن السيد قدري طمأنها بحركة من يده ليقول لها:

ـ اجلسي، ابقِ كما كنت... إذا كنتِ تعتقدين أنني لا أعرف أين، ومع من، وكيف، ولماذا، وعلى أي نحو تمضين أوقاتك، تكونين واهمة.. إنني أعرف التفاصيل الدقيقة لجهاز تنفسك، أعرف شهيقك وزفيرك، وأعرف أنك تشتغلين مع شباب يسمون أنفسهم شباب الثورة.. حسناً، أود أن أطمئنك أن ثورتهم ستسقط، وأن السلطة ستنتصر، ولكنني سأضيف معلومة ستصدمك.. أنا مع أن تتابعي العمل معهم، ولا تستهجني ذلك، ولا تسألي لماذا، لأنني سأقول لك: إذا انتصرت كذبتكم هذه، ستكون ابنتي من الثوار وهذا يحصّن مستقبلي، وإذا انتصرت السلطة فستكونين البنت المزروعة.. بنت انتصار ولست بنت قدري، يعني لا خسارة، ها نحن قد ضمنا المعارضة والسلطة.

قال ذلك بنبرة واثقة، ثم أردف:

ـ بالمناسبة، ثورة أو لا ثورة لن تفرق معي.. حكّامكم في الجاهلية، حكّامكم في الإسلام، هل فهمت؟

رشق قدري كلماته هذه، واستدار مغادراً غرفة ريتا. وعلى الرغم من تجنّبه النظر في وجه انتصار، كانت انتصار قد ظهرت في وجهه صارخة:

ـ ما دمت بنت عائلة من المتسولين والقوادين، فلماذا تسلقت على ظهري؟ لقد كنت عتبتك للصعود إلى الأعلى فالأعلى، وكنت مثل الكلب تلعق كندرتي.

حين غادر قدري وقد صفق الباب خلفه، بدت انتصار مجروحة وحزينة، وكانت الأحوج إلى البكاء من أي يوم في حياتها.. كانت قد غرقت في مراجعة حياتها الفائتة، وقد بدت نصف حياة كما حالها هذه اللحظة، فهي السيدة التي تودع خزانتها عشرات صغار الدببة ذات الفراء الفخم المستورد خصيصاً لها من روسيا، بل والمصادة خصيصاً لها، وفي الوقت ذاته هي ابنة لرجل أودعته مشفى الأمراض العقلية، لإصابة حلّت به كناتج للفاقة وسوء التغذية، وهي من استدرجت العشرات من أصحاب النفوذ إلى صالة هذا المنزل لتخدم أصابعهم التي طالما ابتزت صدرها بقرصات تنحدر إلى أسفل بطنها، وهي التي تعفّنت بانتظار أن تكون شريكة قدري في مرابحه الفلكية نتيجة الصفقات المالية الكبرى، التي تتحول أرصدتها إلى حسابات باسمه، وهي الأم التي حبلت بالزرع لا بالتلقيح الطبيعي الذي تحنّ إليه الأنثى، وهي فوق كل ذلك، امرأة أفنت قطعة كبيرة من عمرها وهي تراقب زوجها وهو يصغي إلى غناء الخادمات، ويراقبهن في استحمامهن، ويحشو في جيوبه ملابسهن الداخلية، ليضاجعهن على شرفة غرفتها وهي تسمع ارتعاشاتهن حين يندلق فوق لذته التي تتأخر أكثر من لذة أي رجل، وهي المرأة التي تحولت إلى النساء اللواتي يأتين بصحبة الدكتور فريد، ثم يقمن حفلات غناء وعزف ورقص، لتكون انتصار نصف امرأة ونصف رجل ونصف زوجة ونصف ثرية ونصف أم.

ـ ما الذي يحدث؟ سألت ريتا أمها بحنو، وتابعت: أمي.. ما الذي حلَّ به؟

ـ ولا شيء.. أجابت انتصار.

بدت انتصار ضعيفة وضحية، وبدا الفرق الذي يتوسط شعرها وكأنه يكشف عن صلع مبكر لامرأة طالما تباهت بشعرها، ولكن انتصار التي فضّلت أن تبقى بمفردها، أشارت لابنتها بأن تغادرها، وحين نهضت ريتا، قالت لها:

ـ ريتا، إن كل ما قاله كذب بكذب.. الرجل يخون.. أي رجل يخون.. لا تصدقي أحداً من الرجال.. ها.. الرجل الوحيد الذي أصدقه هو فريد، لأنه ليس رجلاً!

كانت شاشة هاتف ريتا، قد سجلت ثلاث مكالمات هاتفية لم يُجب عنها، والمكالمات الثلاث كانت من مصدر واحد: faf وهو مجموع الأحرف الثلاثة التي يبتدئ بها الاسم الثلاثي لفرج العلي فياض، وكان فرج في الطريق إلى مدينة حمص، يجلس وراء سائق الحافلة، ويتأمل ريتا، ويكتب إلى أمه رسالة هاتفية، يقول لها فيها أن لا تكمل نسج شال الصوف، فـ: «مقاسها يختلف عن مقاسنا يا أمي!».

حين هاتفته رجيّة، بدت قلقة عليه، فالمداهمات شملت المدن الجامعية وأماكن وجود الطلبة. والقتلى من الطلبة والشباب، فاقت أعدادهم، الأعداد الموثّقة للأيام السابقة، واللغة التي كتب بها فرج، بدت وكأنها وصية أكثر مما هي رسالة عابرة.

قالت له:

ـ فرج أين أنت الآن؟

كان فرج يحادث أمه، وبيده كاميرا فيديو من القياس الصغير.. وكان يسجل مكالمتها وهو يدير عدسة الكاميرا نحو وجهه وكأنه يستعد لفيلم وثائقي، ستكون خطوته الأولى، الطريق الطويل من دمشق إلى حمص، مثبتاً بدليل صوتي تاريخ اليوم، ورقم الرحلة، وكان هامساً يصف حال الركاب القلقين الذين يكوّمون حقائبهم تحت أرجلهم،

مستعجلين على تخطي الحواجز التي ستفتش الحقائب، والأجساد، وإطارات الحافلة، وتنبّه السائق إلى ضرورة الإخبار عن كل ما يبعث على الريبة من ركاب ليس ثمة ما يبرر سفرهم إلى منطقة خطرة بحجم الخطورة التي تشهدها هذه المدينة، وقد باتت مدينة منكوبة.

قطع فرج المكالمة، على صوت أمه، وهي ترجوه أن يقطع سفرته عند أي استراحة من الاستراحات المتناثرة على الطريق، وأن يعود إلى دمشق، أو يغيّر طريق سيره باتجاه دير الزور حيث تقيم هي، ولكنه بدا وكأنه سيغفو، وقد احتاط برُقْية، علقها في رقبته، أشبه بدرع يحميه من عثرات السفر، وحين تمتم آية الكرسي، مكرراً المقطع الأول منها، كان على يقين من أن الموت والولادة هما من اختصاص الله وحده.. ولكن.. تساءل فرج إن كان الله سيحث ريتا على أن تهاتفه، ليسمع صوتها، فقط ليسمع صوتها... وغفا.

ثمة ما يبرر تغافل ريتا عن الرد على مكالمات فرج، فقد بدت أمها وكأنها صف من الأشجار التي تحول دون رؤية ريتا للغابة، بدت أمها اليوم، وكأنها هي القضية الوحيدة التي يجدر التوقف عندها، فقد استعادت انتصار أمومتها عبر دموعها وشكواها في هذا اليوم، وكانت كما كل حالات المظلومية في التاريخ الإنساني، التاريخ الذي يحيل المظلوم إلى ضحية أو بطل، ولأنها بدت ضحية، بل وغارقة، تمنت ريتا لو كانت تمتلك ألف ذراع للسباحة وإنقاذ والدتها، ولهذا اتجهت ريتا إلى غرفة أمها، الغرفة التي قلما وطأتها، وتجولت في أركانها، قلبت المسكرة بألوانها، وتأملت في أنواع العطور المتعددة، وانتقت حفّاف الأظافر ولفافات الشعر لتعود إلى والدتها بروح مبتهجة، وتقول لها:

ـ أمي، ما رأيك بأن أشذب أظافرك؟

ثم قالت وهي تمسك بأصابع أمها: أصابعك جميلة، نعم، وأظافرك كذلك!

ليس ثمة ما يستثير انتصار ويستدرجها إلى هذا النوع من الحوارات العاطفية، فقد أدمنت تبديد عواطفها في حسابات عقلية، بما جعل كل الابتذالات العاطفية مجرد استراحات صغيرة في حياتها، وربما كان هذا الإدمان هو السبب في اختيار حياتها الغذائية التي لم تعد تراعي فيها ما يسوّر أنوثتها، كرائحة المرأة مثلاً، فقد باتت تنقع رأس ثوم بقشره، وتأكل فصوصه بعد أن تمضغها تاركة وراءها رائحة واخزة، وهذا ما بات برنامجاً يومياً تتبعه انتصار، بما جعل صباحات فمها، وتعرقات إبطها لا تحتمل.

لم تكن ريتا عازمة على استنساخ أم جديدة، كانت راغبة في جعل أمها نسخة أفضل من أمها نفسها، أن تنسخ انتصار إلى انتصار جديدة لا إلى امرأة أخرى، ولهذا كانت عازمة على بعث الحياة فيها من خلال إخراجها من مغارة النفس إلى فضاء أكثر اتساعاً، فضاء ستكون فيه امرأة، فالكثير من الآلام النفسية التي نكون من ضحاياها تتطلب منا أن نعيد نسخ أنفسنا، وإزالة الشوائب عن الصورة الأصل.. شوائب من مثل حب الشباب في وجوهنا، وهذا ما انتبهت إليه ريتا، بعد أن غادرت أمها بشعور مؤكد بالفشل، أقله لأنها على يقين بأنها هي أيضاً بحاجة إلى معالجة ندوبها، ندوب راكمتها سنواتها القليلة وهي تروح وتؤوب إلى بيت أهلها، لتميل برأسها عن سهرات أمها الحريمية، برفقة الدكتور فريد الذي بدا وكأنه قد استبد بعلاج أمها.

كانت ريتا متيقنة من سريرة أمها الطيبة، فذات ليلة عاصفة، اجتاحت الرياح أصص شتلات الزنبق والعطرة والزهور المنزلية، وكانت نباتاتها أخذت حيّزاً من الشرفة.. كانت انتصار تطوق النباتات بذراعيها العاريين، وبصدرها المحمول على رافعة الأثداء، وكانت تنتحب، كان هذا يكفي لتتيقن ريتا من جوهر أمها الطيب، وكان هذا دليلاً على أن الأم، ليست كما يمكن أن يتراءى لمراقب ينطلق من

الخصومة أو الكراهية، وفي كل الحالات لم تكن ريتا مجرد مراقب.. كانت ابنة مزروعة، ولكنها ابنة من لحم ودم، وليس مصيرها أكثر اسوداداً من مصير أولاد حارتها، خصوصاً أولئك المتحدرين من عائلات أثرت على نحو فاحش من خلال اقتصاد التوكيلات الذي جرف البلاد إلى ما دون عتبة الفقر، لتصعد مجموعة من السكان إلى مواقع الثراء الوحشي، بما يسمح لهذه الفئات بإطلاق أولادهم إلى ساحات المدن وهم ينعقون كما الغربان في تأييدهم للسلطة، فيما يصرخون في سهراتهم وهم يرقصون بأجساد مترهلة: تعيش أمريكا!

كل ذلك جعلها متطلبة، متطلبة من الله أن يمد جسراً ما بينها وبين أمها، كانت تتجه إلى الله بطلباتها، مع أنها كانت تعتقد بأن الديانات صيغة وقحة حلّت بالبشرية، وقلّصت من حضور الله في ضمائرهم، وربما كانت هذه نقطة افتراقها مع فرج العلي فياض، الذي لم يباشر في تسجيل رسالة نصية ثانية على هاتفه المحوّل، إلا ليلغيها، اعتقاداً منه أن ريتا لن تجيب على رسائله، ولكنها، فور أن استبدلت ملابسها، ودققت في مرآتها معتبرة أن حب الشباب دليل على استحقاقات الجسد، كتبت لفرج لتقول له: Where are you man?

حين قرأ رسالتها، كانت الحافلة قد أوشكت على الوصول إلى استراحة النبك، وكان الركاب القلقون حريصين على عدم مغادرة الحافلة والنزول إلى الاستراحة، باستثناء امرأة ستبدّل حفاظات طفلها، مع زوجها الكهل الذي ظلَّ طوال المسافة ينقل نظراته في وجوه الشباب الذين يدققون النظر في زوجته، فقد وقف وقد أفرد عباءته على الفراغ الفاصل ما بين المقعد وممر الحافلة، ليحجب وجه زوجته عن العيون الوقحة.

تسأله: أين أنت؟ وتضيف القول: يا رجل.. ثمة صيغة ملتبسة في رسالتها النصية ضاعفت من قلق فرج العلي فياض، وكان راغباً في أن

تقول له: Where are you my baby? وبدافع من هذا القول، هاتف فرج العلي فياض رضا، وقال له إنه في الطريق إلى الموت، ثم أكد راجياً أن يتصل بسوسن الحمود، ليأخذ منها ما كان يعتبره الأمانة، وأن ينقل ما سيحمل إلى ريتا..

كان قد كتب وصية مكتملة، وصية تبتدئ بقبول الموت باعتباره حقاً إلهياً، وفيما بعد الاعتراف بهذا الحق، سيقول لها إنه أحب امرأتين في حياته كلها: أمه، السيدة رجيّة التي يطلب من الله هدايتها، كما يتمنى أن يكون استشهاده طريقاً يوصلها إلى رحمة الله، وأحب ريتا، وتمنى لها أن تكون أماً ذات يوم وأن تنجب صبياناً.. صبياناً فقط، مبرّراً أمنيته بالقول: كي لا تتعرضي إلى جنوح الفتيات اللواتي يذللن أهلهن.

لم يكن رضا ليتقبل لهجة فرج الباكية، وكانت تأتآت فرج، وقد قطعت حروف كلماته بما يجعل سامعها مرغماً على إعادة صياغتها.. لم يكن ليتقبل دور حامل الرسائل، وكان منشغلاً بالسخونة التي تضاعفت فوق جبهة أنيس، وكان يمكث إلى جانب أنيس دون أن يحتسب لعدوى الأنفلونزا، كان يصغي إلى هذيانات أنيس الذي يكرر اسم مريم، وكان شديد الحرص على تبليل المناشف بالمياه الباردة، ليستخدمها كمّادات تطفئ جذوة الحرارة عن جبين العجوز المحتضر.

حين دخلت مريم غرفة أنيس، كان رضا يهاتف سوسن الحمود، وبلهجة تخلو من أية عاطفة، أو أي انفعال قال لها:

ـ فرج أودع عندك مظروفاً.. اجلبيه إلي!

لم ينتظر رداً من سوسن، كان صوتها يولّد فيه طاقة سالبة، فقد بدت سوسن، وكأنها ممثلة في الحياة، وكائن لا يعرف التمثيل على المسرح، قال لها ذلك ذات يوم، وكانت تشارك في عرض تجاري لمسرح شعبي، قال لها:

ـ لو أنك تمثلين على المسرح كما تمثلين في الحياة لكنت أكثر أهمية من جوليا روبيرتس!

ولكنها ابتلعت الإهانة، وثابرت على استمرار الدعوة إلى المسرح الملتزم، واعتباره إحدى أول أولويات إنجاز الثورات، وإسقاط الطغيان، ووصلت أكثر من ذلك لتعتبر أن الطريق إلى القدس يمر عبر خشبة صالة مسرح سينما الزهراء التي تقدم عرضاً، لمجموعة من الكوميديين الذين يمزقون خواصرهم بيأس، لإضحاك جمهورهم السئم.

لفت مريم، تلك الطريقة الجلفة التي يحادث فيها زميلاته من البنات، فقد اقتصرت مكالمته على ما لا يزيد عن ستة كلمات: فرج أودع عندك مظروفاً.. اجلبيه إلي.

قالت له، وكأنها تغمز من قناته: الرجل لغة.. كلام.. هل هذه هي طريقتك في مخاطبة زميلاتك؟!

أجابها رضا بنعومة:

ـ إنها تأثيرات الطقس.. البرد يجمّد التهذيب.

عندما غادر غرفة أنيس لإحضار ماء جديد للكمادات، أكثر برودة وأقل اختلاطاً بتعرقات جبين أنيس وإفرازات جلده، كان رعد الأسمر يقف في الصالة، وعلى غير العادة كان ممسكاً ببكرة صوف الكانفا محاولاً إعادة ترتيب خيوطها وكأنه يرتب خيوط متاهة.

تساءل رعد الأسمر عما آل إليه الوضع الصحي لأنيس، ولم ينسَ تذكير رضا، بأن رياح القصف الصاروخي على العراق من قبل القوات الأمريكية، قد ارتدّت سموماً على المناخ في سوريا، تاركةً وراءها هواءً فاسداً، أصاب السوريين بأمراض تتصل بأجهزة تنفسهم، غير أن رضا، وكانت مياه الطشت تتدلق على قميصه، توقف للحظات ليقول لرعد:

ـ أولاً الرياح غربية وليست شرقية، والعراق شرق سوريا، ثم إن بغداد سقطت قبل تسع سنوات ولا أعتقد أن الرياح تتأخر تسع سنوات حتى تصل إلى بانسيون مريم.

قال ذلك وتابع طريقه نحو الحمّام ليفتح صنبور المياه على آخره، وما إن التفت إلى الخلف حتى وجد رعد الأسمر واقفاً وراءه:

ـ أخاف أنك بهذا الكلام تبرر الاحتلال الأمريكي للعراق.

قال رعد الأسمر وقد أحاط باب الحمّام بذراعيه، أجابه رضا:

ـ أنا لم أجلب القوات الأمريكية إلى العراق.. صدام، الذي شلَّ يدك، هو من استدعى الأمريكان الى العراق.

ـ لا.. أنا لا أحب صدام، ولكن حين يكون الخيار ما بين صدام والأمريكان أختار صدام.

ـ مبروك.. خذه! ثم أضاف ضاحكاً: خذه، أفضل من أن يأخذك!

تركت كلمات رضا، إحساساً جارحاً عند رعد الأسمر، ففي حقيقة الأمر لم يكن رعد الأسمر يعني ما يعنيه حين فاتح رضا بموضوع العراق والاحتلال، كل ما كان يهدف إليه، هو فتح حديث شخصي مع رضا.. حديث تعارف، فقد كانت الستائر التي أحاطت ببانسيون مريم طيلة الفترة الطويلة الفائتة، تكمّم روح رعد الأسمر، وترفع من منسوب إحساسه بالحصار، وكان راغباً أن يختبر الستائر المفتوحة على الشمس، كما كان عازماً أن يمد أصابعه ويفتح الستائر كل صباح، ولكن ما كان يمنعه عن القيام بمثل هذه المجازفة، هو إحساسه بأنه ضيف مؤقت، وبأن ضيافته لن تطول، ففي النهاية: إنه لاجئ سياسي في الدانمارك.

على مدى سنوات، ورعد يقترب من الستارة، ثم يستعيد وعيه بالخوف، وعلى مدى سنوات وهو يتطلع إلى مريم وخيوطها، سنوات

وهو يجاري أنيس في إيمانه بأن النطق ليس بضروري للكائن البشري، وكان يخرج عن قاعدة (لا أتكلم)، وكلما خرج عن القاعدة كان يرتد لينطق بكلام، مصحوباً بحركة من يده المشلولة التي رسمت مئات البورتريهات لصدام حسين، صدام مع سيجاره الكوبي، صدام صامت كما وعل ناعس، صدام ببرنيطة إنكليزية، صدام بقبعة عسكرية، صدام بنياشين، صدام ملوّحاً بيمناه لجمهور لا يظهر في الكادر، صدام يبتسم بحنان جارف، صدام بصور جانبية، صدام بما لا يحصى من ابتكارات المُخيِّلة التي تدحرجت مع رعد الأسمر من بغداد إلى دمشق حيث رقع ماركات الكلاسين النسائية التي كانت آخر ابتكاراته معها: «أرنب يدخن سيجاراً كوبياً»، ومما لا شك فيه أن الإيحاءات الجنسية للأرنب، لم تكن بمعزل عن الإيحاءات الجنسية لصدام، وفي كلا الحالين، كان رعد الأسمر يجر ذاكرته وراءه، ولم يكن بقادر على رمي ذاكرته بطلقة من بارودة صيد، كما فعل مع ذراعه اليمنى التي أصابها بالشلل، فاللعب مع الذاكرة كما اللعب مع الله، كلاهما سيء العواقب.

حين استكمل رضا طريقه عائداً نحو غرفة أنيس، بدا رعد الأسمر وكأنه وقع تحت تأثير استعادة تلك الذاكرة، فقد كان كلما استكمل واحداً من بورتريهات صدام حسين، يصاب بنوبة إقياء، ولكنه لم يكن تناول شيئاً من الطعام منذ صبيحة هذا اليوم، ولذلك فقد هرع إلى الحمّام ليتقيأ شيئاً من السوائل المخزّنة في معدته منذ ليل الأمس، ثم خلع ملابسه وقبع تحت الماء البارد مدركاً أنه لن يُستدعى مجدداً إلى تكرار رسوماته تلك، وأن ما يحدث له، لا يتجاوز كونه ما يزال يعيش تحت وطأة ذاكرته، كان يدلق كميات كبيرة من معجون الصابون فوق رأسه، متوهماً أنه سيغسل ذاكرته، وكان يفرك رأسه بكامل أصابع يده اليسرى، ويعيد فرك فروة رأسه، وكأن أصابعه ستأخذ طريقها نحو دماغه الملفوف داخل عظام الجمجمة.

حين كان يفرك رأسه، كان يبحث عن بوابة تتسلل أصابعه منها إلى مستودع الذاكرة، وكان لا يعرف حقيقة مكان هذا المستودع.. كل ما يعرفه أنه أمضى قرابة الساعة الكاملة، وخرج يائساً من إمكانية العثور على ذلك المستودع الذي يقوده إلى التقيؤ، وحين غادر الحمّام منعطفاً نحو غرفته، تمهل خطوة ثم تراجع ليتجه صوب المطبخ وهناك فتح الثلاجة، وشرب دورقاً ممتلئاً من عصير الليمون، ممتحناً ذاكرته إن كانت ما تزال تعمل.

لا مفر من ذلك، قال رعد الأسمر مخاطباً نفسه، وكان يعني أنه لن يتراجع عن نزع ذاكرته، ولكنه كان متيقناً أنه إن فعل هذا، فلا بدَّ أنه سيجاري القدر الذي عاكسه طيلة عمره، وبأنه سيزيل من هذه الذاكرة طيف «كسيرة»، أجمل بنات بغداد قاطبة، وهي التي خزّنها في ذاكرته على شكل أكداس من الصور.. كانت كسيرة هي البنت الشريدة التي دخلت قصور صدام حسين، ولم تخرج منها قبل أن تتجول بين أسرّة.. ابتدأت بسرير ابن الرئيس البكر، وانتهت إلى أسرّة مجموعة كبيرة من أخوال الرئيس وأبناء عمومته، ولاحقاً إلى خدمه من الدرجة العاشرة، وهم الخدم الذين يحتفلون بموائد الصيد التي يقيمها السيد الرئيس لمناسبة انفضاض عذرية بنات يأتين إلى قصره عذراوات ويخرجن حوامل.

كانت كسيرة بالنسبة إلى رعد الأسمر وعداً قطعه على نفسه، وعداً يقول بأنه لن يدع كسيرة تُلتهم مجدداً، وبأنه سيمسكها من يدها ويقول لها: تعالي إلى الدانمارك.. إلى حيث الحرية والقوانين التي تعتبر مجرد التحرش بالمرأة جريمة، فما بالك يا كسيرة باغتصابك، ثم توزيعك على هؤلاء البشر الشرهين!! تعالي.. اطمئني، ستكونين في رعاية رجل هو: لاجئ سياسي!

تحت مصباح السقف، وقف رعد الأسمر وقد عاد إلى غرفته، وفي

زوايا الغرفة، ثمة أكداس من الصور وأفلام النيغاتيف التي جلبها معه من بغداد، أفلام تحمل مجموعة كبيرة من اللقطات الموزعة ما بين شارع الرشيد ونصب الحرية الذي نحتته اليد الخلاقة للنحات العراقي جواد سليم.. تحت هذا النصب، طالما حلم رعد الأسمر يوم كانت له يدان اثنتان بأن يعمل الإزميل في يده، ويستكمل منحوتة يسميها الاغتصاب، وهي بمجملها لوحة ستحكي حياة «كسيرة»، التي اغتُصبت لمرة واحدة في حياتها، ومن بعد، بات الاغتصاب ليس أشد ألماً من آلام الدورة الشهرية.

ارتمى رعد الأسمر في سريره صارخاً، مردداً:

ـ مرّينا بيكم حمد واحنا بغطار الليل.. واسمعنا دق قهوة وشمّينا ريحة هيل! يا ليل صيح بقهر صيحة عشق يا ليل.. هودر هواهم ولا حدر السنابل قطا!

متوقفاً على نحو مفاجئ، أطلق بكاءً حاداً، وكان كلما انخفض صوت حشرجاته رفعها متعمداً، حتى وصل صوته إلى كل مسام بانسيون مريم.

ـ ما الذي يحدث في هذا البانسيون؟

تساءلت مريم موجهة كلامها إلى رضا الذي بدا وكأنه يحمل ثقل المسؤولية عن كل ما يحدث، عن أنفلونزا أنيس، عن انعطاف شعر مريم من رأسها، وكان على هيئة كعكة، إلى كتفيها وصار كما شلال ليل، عن فجيعة رعد الأسمر التي لا يعرف حقيقة سرها أحد.

حين خرجا، مريم أولاً ومن بعدها رضا باتجاه الصالة، وقد تركا أنيس يغط في نومه، اتجهت مريم إلى غرفة رعد الأسمر، وتوقف رضا في مركز الصالة وعيونه تتجه إلى الستائر المفتوحة.. وحين دخلت مريم غرفة رعد تاركةً رضا بمفرده، اتجه بخطوات حزينة نحو الستائر وأعاد إغلاقها.

ـ ما الذي حدث لك؟ سألت مريم رعد الأسمر.

فرقع رعد ضحكته المعتادة ليجيب:

ـ ولا شيء.. أبداً.. كنت حابب أقشمركم!

ـ تقشمرنا؟ تساءلت مريم عازمة أن تفهم معنى الكلمة، فعثرت على ما يوازيها باللهجات السورية.. كلمات مثل: أمازحكم.. أخدعكم.. ألعب معكم.

حين خرجت مريم، لحظت أن ستائر الصالة عادت مغلقة كما كانت طيلة ماضيها، كما لاحظت أن حزناً عميقاً أحاط برضا.. كان رضا يقف وفي يده متاهة كرة خيطان الكانفا، وكان يتقدم صوب مريم وكأنه سيبادر بأن يعتذر، ولكنها استدركت على عجل لتقول له:

ـ رضا.. لا تعاند القدر.. ما سيحصل سيحصل!

ثم أمسكته من ذراعه وقادته إلى مقعد مجاور لمقعدها، وبعد صمت طال، سألت مريم:

ـ هل يعقل؟

ـ ماذا؟ أجابها رضا مطأطئاً رأسه.

ـ أن يمضي ناصر حياته متمدداً في فرشته؟!

ـ12ـ

لم تفتقر سوريا إلى أولئك البشر الذين قادهم الحب إلى الجنون، ولكن سوسن الحمود، التي كافحت من أجل أن تكون نجمة، لم تكن لتبالي بتقديم الذرائع لردود أفعالها الغاضبة.. كانت سوسن، تُعمِل كل آليات العنف فيها لمجرد أنها استحضرت هجر أستاذها في المعهد العالي للفنون المسرحية لها، وإذا كان بوسع المطّلعين على حقيقة ما جرى لسوسن منذ كانت في السنة التحضيرية من المعهد، أن يقدّموا ما يكفي من الشواهد على نذالة أستاذها، فهي وحدها من صمتت عن نذالته هذه واعتبرتها بحكم الميتة، وكانت تردد على الدوام ما يفيد بأن نبش الجثث حرام، ولم تكن لتفعل ذلك من منطق التسامح أو التجاوز، بقدر ما كانت ضحية تحويل قلبها إلى حجر، ومن ثم دسه تحت قفصها الصدري.

في طريقها إلى بانسيون مريم، وهي تحمل مظروفاً مطوياً بإحكام أودعه لديها فرج العلي فياض، صادفت أستاذها نفسه.. كان كعادته فائض الأناقة، ربطة عنق بعقدة من النموذج الأمريكي، نظارة طبية بإطار من الذهب الخالص، وعطر من نوع العطر ذاته الذي ثابر على استخدامه منذ أن كانت طالبة في المعهد وكان أستاذها.

حين توقف بابتسامة تنم عن رجل محترم، راعى كل تقاليد

الإتيكيت الواجبة، مبتدئاً بتحيتها ومخاطبتها بـ: بونجور مدموزيل، ثم كعادته كما كل أيامه السابقة، أطلعها على التطورات الهامة التي أصابت شخصه متسائلاً إن كانت ترى ظهوراته على شاشات التلفزة في البرامج الفنية الحوارية، وبعدها، وبلغة يمكن تسميتها: «نصف الباب المفتوح يساوي نصف الباب المغلق»، سألها عن السلطة والثورة، بحيث لا تستطيع تحديد موقعه إن كان مع السلطة أم إن كان مع الثورة، مترقباً أن يبني رده على ردها، ولم تكن سوسن لتسمع أياً مما قاله أستاذها في المعهد.. كانت وهي تقف قبالته وظهرها إلى مقهى الهافانا، قد اندفعت كعدّاءة نحيلة تحمل رمحها باتجاه السنة التحضيرية للمعهد العالي للفنون المسرحية، وكان المعهد بقاعة استقباله الواسعة يضج بالطلبة القادمين من جهات البلاد المختلفة، ويموج بدخان السجائر التي تملأ المكان كما الضحكات الطفولية لشبان ليسوا مرغمين على ادخار نكاتهم.

بدا أستاذها مختلفاً عن بقية الأساتذة، فلا حذاؤه من الأحذية الرياضية التي يرتدونها، ولا بنطاله من الجينز الكاحت الذي يجعلهم أقل هيبة من كونهم أساتذة، فيما مظاهر النعمة كانت بادية على الأستاذ وقد لفت أنظار الطلبة الجدد المتهامسين:

ـ أستاذ ماذا؟

ـ أستاذ الإلقاء المسرحي.

همس طالب في السنة الثانية، كاشفاً عن إحساسه بالتفوق والخبرة، وحين بات الأستاذ إلى جانبهم، ابتسم كعادته، ثم أشار بسبابته إلى الطلبة بأن يتقدموا منه.

ـ ما اسمك؟ سأل الطالب الأول.

ـ وما اسمك؟ سأل الطالب الثاني.

وتساءل عن أسمائهم مجتمعين متناسياً أن يسأل سوسن: وأنت؟ ما اسمك؟

كانت سوسن هي الأحوج إلى أن تتقدم منه وتقول له:

ـ سوسن الحمود، طالبة سنة تحضيري.

ـ من أين أنت يا سوسن؟

ـ من عين التينة.

ضحك فاتحاً فمه، كاشفاً عن أسنان بيضاء مصطفة بانتظام مدهش وقال لها:

ـ كما لو أنك تقولين من فيينا!

قال ذلك تاركاً ندبة في وجه سوسن، فلقد أحالها إلى أضحوكة بين زملائها من الطلبة الجدد الذين لا يخزّنون في ذواكرهم ما يستحق سوى السخرية، ليتبدى فيما بعد أن الأستاذ الأنيق، يبدأ باصطياد طرائده أولاً بالتقليل من شأنهم، وبعدها بـ:

ـ سوسن، ثمة خلل في جهاز نطقك، الأحرف المهموسة يمكن التدرب على تدارك هفواتها، المسألة سهلة.

بعدها دعا سوسن إلى مكتبه ليدرّبها، وهناك: مزّق طهارتها.

عصرت سوسن صدرها بمرفقيها، وكأنها تتمرغ في هذه اللحظة فوق بلاط مكتبه، ثم أعادت التدقيق في وجه أستاذها لتقول له:

ـ وداعاً.. أراك بخير.

ـ أوف بهذه السرعة؟ ثم طلب منها أن تزوره.

ـ في المكتب ذاته يا أستاذ؟

ـ نعم، ما زال مكتبي في مكانه ذاته.

لم تظهر تحوّلات جوهرية على شكل أستاذها، باستثناء بعض

التجاعيد التي حطت فوق عنقه، كما بات لونه أقرب إلى لون الجثث مما كان في السابق، بدا وكأنه قد أخرج من حوض كلوروفورم تواً، فقد بات نحيلاً ومقوّس الكتفين والظهر، وحلّت مكان أسنانه الأمامية أسنان صناعية تفضح حقيقة عمره.

أزاحت سوسن بصفعة من يدها لحظة استعادتها لمحاولة الاغتصاب الأولى في حياتها، وابتزازها على نحو يقايض ما بين نجاحها وبين أن تقبل، وحين تيقنت من أن ساقيها باتا أقل كفاءة من حملها، استدارت واتجهت إلى مقهى الهافانا.

كان المقهى شبه فارغ إلا من همسات اثنين من المحامين المتمرسين في قضايا حقوق الإنسان، خليل وأنور، وقبالتهما بدا رجل من الاستخبارات، وهو يمعن النظر فيهما، وكأنه خبير بلغة الشفاه.. كان يسجّل ملاحظاته فوق دفتر بدا وكأنه قد أُخرج من حاوية، وكانت قبضته الضخمة تهرس القلم بين يديه، فيما كان نادل المقهى قد تحاشى التقدم منه ليسأله كما يسأل ندل المقاهي في العادة: ماذا تشرب؟

كان على النادل أن يعرف مسبقاً أن رجل الاستخبارات هذا، سيجد نفسه محرجاً إذا ما جاءه النادل بالفاتورة التي ستكون باهظة بالقياس إلى راتبه.

حين جلست سوسن، وقد تأكدت من أن أنور هو من يجلس إلى يسارها، كانت راغبة بأن تصافحه لتؤكد له أنها قرأت مشروع الدستور الذي أعده في سجنه، وكانت ستحكي له عن ضرورة فصل الدين عن الدولة، وربما كان بوسعها إغراقه بأسئلة من نوع: أستاذ، هل اغتصبوك في سجنك؟

كان الاغتصاب بالنسبة إلى سوسن في هذه اللحظة هو المعادل

البصري، لكل أشكال العنف التي شهدتها البلاد، وقد تخطت حين دخولها المقهى عشرة آلاف قتيل في مدن وأرياف مختلفة، وكانت عازمة أن تقول لأنور: أستاذ، أرجوكم أن لا تتقبلوا هذا الرجل (مشيرة إلى أستاذها)، في صفوف الثورة.

ومن ثم كانت عازمة على التوجه إلى خليل لتقول له: أستاذ، هذا الرجل ابتزني واغتصبني.

قاومت من جديد ذاكرتها، ثم ما لبثت أن نهضت، ثم عادت إلى الجلوس عازمة أن تنسى، وكانت وهي تحمل مظروف فرج العلي فياض، تغالب نفسها من أن تفتح المظروف لتستطلع ما الذي حمّلها إياه صديقها.

مع كل ما بذلته من إرادة للامتناع عن فتح مظروف فرج العلي فياض، كان فتح المظروف يعني بالنسبة إليها إخراجها من صرخات الاغتصاب التي اتقدت فور أن قابلت أستاذها، ولهذا فقد شقت لأصابعها طريقاً نحو المظروف، لتنبش ما بداخله.. بدت أوراقه وقد انقسمت إلى قسمين اثنين، واحدة تحوي أرقاماً وجداول ومقدمة ومتن وخاتمة، وفي هذه الأوراق التي دققت فيها سوسن كما لو كانت تتفحص شعرة شائبة من رأسها، عثرت على بيانات وأرقام مذهلة تبيّن حالات الانتحار التي شهدتها البلاد خلال عام 2009، وتحديداً في منطقة الجزيرة السورية، وما أثار دهشتها، هو تلك السيدة المنتحرة التي بلغت السادسة والستين عاماً، تاركة وراءها أحفاداً يتطلعون بنظرات زائغة إلى جثتها المتدلية من حبل المشنقة.. المشنقة التي نصبتها في حظيرة ماعز مهجورة، تحولت إلى مخزن للعلف.

كانت سوسن على اعتقاد شبه مؤكد من أن المنتحرين سيكونون على الغالب من الذكور، وفي معظمهم من الشباب الذين لم يتخطوا

عتبة الطفولة إلى المراهقة، وبتحديد أكثر، فالانتحار غالباً ما يطول الروح المتحدية، عكس ما درج العرف السائد، ذلك أن خسارة التحدي تحيل إلى تحديات جديدة تنتهي بالتحدي الأكبر، وهو انتزاع المنتحر نومه الأبدي من عين القدر الساهرة.

بين أوراق المنتحرين، وكانت بلغت العشرات من أوراق شباب وبنات وكهول ونساء حوامل، ترك فرج العلي فياض قصاصة من منتحر كتب فيها: الإنسان نكتة يبتكرها الموت.

حين بدا الاكتئاب وقد أحاط بسوسن نتيجة للاحتكاك بالموتى الذين تركوا قصاصاتهم في ملفات فرج العلي فياض، طوت سوسن أوراق فرج محاولة إغلاق المظروف كما كان حين سلمها إياه قائلاً:

ـ سوسن.. رجاءً أعطه لرضا!

أغفلت سوسن قراءة ورقة مطوية بإحكام، مستقلة عن بقية الأوراق المودعة في حقيبتها، نهضت تاركة فنجان قهوتها دون أن ترفعه عن الطاولة، وكان المحاميان، أنور وخليل، قد تحولا من حديثهما الهامس، إلى إطلاق ضحكات طفولية، تنم عن فتنتهما بتكسير قوالب المكان الصلبة، وقد أحاطا ضحكاتهما بحضن طويل لصحفي متسكع، يبدو خارج الزمن، أطل عليهما وكأنه سيخطف قطعة من النار ويمضي إلى حيث يحترق.

كانا يغمزان من قناة الصحفي البوهيمي، ومن علاقته بالدكتور فريد الذي يعرفانه، ويعرفان موقعه في عائلة ريتا، وقد باتت تفاصيل الكثير من لياليه، في حوزة الصحفي المتهتك، الذي يركل أيامه بقدمه وكأنه في ملعب لكرة الزمن.

في طريقها من الهافانا، مروراً بمقهى فندق الشام، ثمة مجموعات من الصحفيين الأجانب حطت في العاصمة السورية، وعلى مفترق

الصالحية انتصبت كاميرا تلفزيونية احترافية وقفت وراءها صحفية مبتدئة تملي على المارين إجابات عن أسئلتها، أسئلة يمكن اختزالها في سؤال واحد، وكان سؤالها: هل ستحتاج بلادنا إلى استيراد التجربة الديمقراطية من محطات الفتنة؟

حين باتت سوسن بمواجهة الكاميرا، أمسكت بها الصحفية من ذراعها، وجرتها إلى مواجهة الكاميرا مرددة السؤال بالنغمة ذاتها التي وجهته بها إلى عابرين آخرين.. وبإيقاع هو الأقرب إلى الأناشيد المحفوظة التي تدّخرها ذاكرات تلاميذ المدارس الابتدائية، وكانت تقرّب اللاقط من فم سوسن وكأنها عازمة على دسه في بلعوم ضيفتها، التقطت سوسن اللاقط من يد المذيعة، وبهدوء وحيادية، أجابت:

ـ لا.. ولكنه اغتصبني.

الحيرة، والقلق، كما الاستنكار، علامات ظهرت فوق وجه الصحفية الشابة، التي انتزعت اللاقط من يد سوسن مستعيدة زمام الدفة.

قالت لها الصحفية:

ـ ما علاقة سؤالي بإجابتك؟

أجابتها سوسن:

ـ حين تأكل الثلج، لا يعني أن تتبول ثلجاً.

قالت ذلك، ونزعت ذراعها من يد المذيعة مستكملة رحلتها نحو شارع 29 أيار، لتنعطف نحو الزقاق المؤدي إلى بانسيون مريم.

كانت دمشق في تلك اللحظات، وكأنها تعوم فوق سؤال لا إجابة عنه، كانت المركز، وقد فقد جذوته، المركز الذي لا يشكل نقطة في الدائرة، فالخريطة السورية، وقد أفردت لها مساحة واسعة على مبنى مكتب طيران تدمر، كانت برأس طائر فمه إلى الشمال الشرقي، وبدا الخط المستقيم الذي يحدها من الجنوبي ـ الشرقي، وكأنما صياغة

مستقلة عن إرادة الجغرافية.. حين توقفت سوسن أمام مكتب الشركة، كان موظفو الشركة غافين وراء مكاتبهم وحواسيبهم مقفلة.. وكانت الرحلات الجوية شبه معدومة ما بين سوريا والعالم الخارجي، فالحرب التي تقرع الأبواب، وحكايا التدويل، وإطلاق الشقاقات داخل صفوف الجيش، بدت وكأنما تخص بقية أنحاء الخريطة ما عدا العاصمة.. العاصمة التي ظلت على صمتها، فيما الرصاص ينهمر على هوامشها.

تلكأت سوسن بمشيتها، وفكرت بأنه يمكنها للتو أن تصرخ بوجه العاصمة، فالاغتصاب لا يمثل هتك الجسد بالنسبة لسوسن، بالقدر الذي يمثل هتك الإرادة، ولهذا تحسست صوتها بأصابعها، كانت تطلق أصواتاً لا معادل لغوياً لها، ولكنها أصوات تعني فيما تعنيه احتجاجاً على اغتصاب مضى، ثم استعاد نفسه في زجاج شركة طيران تدمر وقد عكس صورتها بالحجم الكامل.. طولها المعتدل، عينيها الزائغتين، صدرها النحيل، أردافها الأكثر سعة من تحقيق التناسب المطلوب لجسد أنثى، وكان مغتصبها قد شاركها الطريق ذاته الذي يقطع مركز العاصمة، تاركاً وراءه مداعبات شرسة، مداعبات لا تشي برجل يعرف طبائع المرأة.

سألت نفسها إن كانت عازمة على المضي بصراخها، وعثرت على إجابتها في ترداد صوتها المكتوم، مؤكدة على:

ـ المرأة لا تُغتصب إن لم تكن جثة!

قالت ذلك، متفحصة نبض أوردتها لتتيقن ثانية بأنها ليست جثة، وكررت المحاولة أملاً في أن لا تجد شرياناً ينبض فيها، ربما كمتكأ نفسي تداري به ضعفها السابق، واستلاب إرادتها، ومضت تدقق في تفاصيل الخارطة مرة أخرى، باحثة عن مواقع المنتحرين الذين ضمّنهم فرج العلي فياض دراسته.

هنا، ووضعت يدها فوق مدينة القامشلي، أكراد، وعرب، وآشوريون، وأيزيديون، وعلى مسافات بعيدة، قرباط انحدروا من سلالات مهجورة، في جغرافيات مجهولة، وطّنتهم الحكومة قسراً.

لم يصب الكثيرون من الأكراد المحرومين من الجنسية في تلك المناطق بالقنوط، نتيجة تتبع الوثائق التي تثبت أنهم جزءٌ من السكان الأصليين لهذه المناطق، كان (تمر الكردي) واحداً من أولئك، وكان من أقرب أصدقاء فرج العلي فياض (العربي)، ومنه ابتدأ فرج العلي فياض بحثه في المنتحرين.

فالسيدة العجوز التي وجدت مدلاة، وعنقها مربوط إلى حبل المشنقة، كانت جدة تمر هذا، وكانت قد أصيبت كالكثيرات من العجائز الكرديات، باليأس من حكمة الله، حين تشرد أبناؤها وأحفادها، تاركين إياها وحيدة، بعد سلسلة من الاضطهادات العرقية التي طالت العائلة، نتيجة لمجموعة من القوانين التي لم تجد من يكبح أهواءها، والتي قادت تمر، إلى البحث في المقابر ليوثّق حقيقة أن جده عبد الرحيم مدفون في هذه المقبرة، وأن تاريخ دفنه يعود إلى عام 1958، ووالد جده، سليمان، مدفون في المقبرة ذاتها، ولكن جثته تاهت بين هياكل عظمية اندثرت، غير أنه على يقين بأنه دفن هنا، مطلع العقد الثاني من تسعينيات القرن الماضي، وكان على علم بأن والدات جداته، وأكثرهن جمالاً «هانئة» قد دفنت على مقربة من زوجها، وبأن مجموع المنتحرين ممن وردت أسماؤهم في وثائق فرج العلي فياض، هم كذلك يعرفون مقابر آبائهم وأجدادهم، وبأن جميع هؤلاء المدفونين ما بعد إعلان الوحدة السورية ـ المصرية، بكوا من القوانين الجائرة التي صاغها ضابط سوري صغير، وتوارثتها الحكومات اللاحقة، وصولاً إلى حكم حزب البعث، وكانت قوانين انتزعت الجنسية عن مجموعات واسعة من أكراد الشمال السوري.

سوسن وبصورة غير متوقعة، أحالت كل الانتحارات إلى ما أسمته الهوية، واعتقدت أن العصابات اغتصبت الهوية، وأن مجموع الأكراد الذين أُخرجوا من أراضيهم، مرة تحت تسمية أراضي الغمر، ومرات دون احتياج إلى تسمية، وتحولوا إلى ماسحي أحذية وندل في مقاهي العاصمة، هم من المغتصبين أيضاً، وإذا كان تمر قد انتقل إلى دمشق، مع من تبقى من عائلته بعد أن فقد جدته، ليسكن منطقة وادي الرز القريبة من ضاحية دمر، قد انتظم مع شباب الانتفاضة في المواجهات مع القوات الأمنية، فلسبب ربما يعود إلى انتحار جدته.

وكانت سوسن، قد تأكدت من أن جهداً غير مبرر كان قد بذله يسوع المسيح في تحذيراته عبر وصاياه العشر، وأنه كان بإمكان هذا الرجل اختصار كل التحذيرات الواجبة، بتحذير واحد.. تحذير يقع تحت عنوان: لا تغتصب!

كانت على يقين من أن المرأة تستطيع تدنيس الرجل، لمجرد أن ترفع تنورتها مرغمة، وكانت ترى بأن كل أشكال العنف، بما فيها العنف السياسي، هو رفع التنورة قسراً، وعلى أي حال كان عليها أن تزيح عينيها عن الخريطة، لتتابع سيرها باتجاه بانسيون مريم، وقد بات على مقربة ذراع منها.

ـ 13 ـ

لم يكن ناصر بحاجة إلى أن يتأمل المتغيّرات الواقعة على البانسيون منذ وصول رضا، ولم يكن ليفطن الى أن شعر مريم بات يتأرجح فوق أكتافها، كما لم يلحظ أن ستارة الصالة قد انزاحت قليلاً، بعدما فتحها رضا كاملة ثم أعاد إغلاقها تاركاً مسافة للضوء كي يدخل منها.

كان ناصر يتناول وجبته في فراشه مشاركاً قطته، ذاك النوع من القطط الذي يطلق همهمات النائم وهو في عز يقظته، كان يمكن ضبط الوقت الوطني على نهوض قطته إيميليا من نومها لتتجه إلى حجره كي يطعمها، وكان قطه ألكسندر، متكاسلاً على الدوام، وحين يعبث بالطعام يتحول إلى قط متوحش.

إيميليا، تزوجت نفسها، وكذلك ألكسندر، وكلاهما لم يتزاوجا خلال الفترة الطويلة التي عاشاها مع ناصر، وكان بدوره قد تزوج نفسه، ولكنهما، إيميليا وألكسندر، تحفّزا على صوت قرعات الباب، التي بدت طرقات متشككة مترددة، ثم تكررت بالإيقاع ذاته، وبعد وقت بدا أطول مما ينبغي، تحوّلت الطرقات إلى طرقات متواترة، مستفزة.

في غرفة أنيس، بدا رضا وكأنه مرضعة، كان يحث أنيس على أن يفتح فمه، مؤكداً أن هذه الشوربا من أطيب وألذ ما يمكن للمطابخ

أن تبتكر، وكان يؤكد أن الحساء (نفَس)، وأن نفس مريم وحده كافٍ ليحقق شفاءً عاجلاً.

ـ والله يا عم، كل إنجازات الصيدلة لا تساوي نفَس مريم في الأكل.. المرأة نفَس!

كان أنيس يجاري رضا، ويبتلع الشورباء، وكان رضا يحتاط أن لا يتناثر السائل فوق بيجاما أنيس، ولهذا أحاط رقبة أنيس بمنديل كبير، بدا معه أنيس طفلاً مستسلماً لطفولته.

بدا الثلاثي.. مريم، رضا، وقد أحاطا بسرير أنيس، وكأنهم يشكّلون مشهداً لعربة، وكان رضا قد اتخذ شكل الحوذي الذي يدير اتجاهاتها.

ـ كُلْ.. هذا لا يكفي.. عم أنيس تعال نرمم جسدنا.. عم أنيس ما زلت شاباً، عم أنيس لا تمت كما كل مرة!

لم يكن بوسع مريم أن تفهم تكرار رضا لعبارة: «لا تمت كما كل مرة»، وكانت في قرارتها تتساءل إن كان قد سبق لأنيس أن مات، ومن ثم استعاد حياة أخرى، ولكنها كانت متيقنة من أنها ستداري دموعها، ومن أنها قد انجرفت بكليتها إلى هذا الحوذي القادم من مكان لا تعرفه، من أسرة تجهلها، من حضن بنت من عمره، بنت تتسلق كتفيه، ليركض بها ثم يهز كتفيه ليسقطها أرضاً.

أودعت مريم أنيس أمانة بين يدي رضا، واتجهت على وقع خبطات مطرقة البانسيون لتفتح بابه، وحين أطلت سوسن وقد حضنت أوراقها فوق صدرها وحقيبتها تلوح فوق كتفها، بدت وكأنها قادمة سيراً على الأقدام من مرارة تستدر الشفقة.

ـ نعم يا بنتي! قالت مريم، ودون انتظار إجابة سألتها: أظن أنك تبحثين عن رضا؟!

ـ نعم يا خالة! قالت سوسن.

دخلت مريم الصالة، وتبعتها سوسن، وكان من حق مريم أن تخمّن أن هذه البنت عشيقة رضا، ولكنه حالما دخل الصالة، بدا رضا على غير ما خمّنت.. لم يصافح سوسن، ولم يبتسم لها، وكل ما فعله أن قال لها:

ـ أهلاً سوسن، خير؟ هل تنوين القيام برحلة إلى الدحداح لتقديم الورد إلى أصدقائك الموتى؟!

فوجئت مريم، بكل هذه الصلافة، وبالقسوة التي يحاكي بها رضا سوسن، وحين تطلعت إليه زاجرة، متسائلة، قال رضا متجهاً بكلامه إلى مريم:

ـ سوسن تقدّس أمرين في حياتها.. المسرح الملتزم، والمقابر!

ثم أوضح:

ـ كلما وصلت مشياً إلى شارع بغداد، متجهة إلى ساحة التحرير، تمر في طريقها إلى بائع الورد وتشتري وروداً ثم تدخل المقبرة وتودع ورودها فوق قبر لا تعرفه، إنها هاوية موتى!

على الرغم من رفضها لما يقوله رضا، ابتلعت مريم مرارتها، ثم أحاطت براحتيها كتفي سوسن، وخارج كل التوقعات التي تشير إلى عزلة مريم، ضمت مريم سوسن، كمن ستسحب براحتيها هيمنة الموت على الحياة في هذه اللحظة، ثم سحبت سوسن من يدها لتقول لها:

ـ دعك من هذا الجلف.. تعالي معي!

دون أن تناوله مظروف الأوراق المودع لديها انسلت سوسن وراء مريم، وكانت سوسن، على غير ما اعتادت، أكثر استسلاماً من أي وقت مضى، فمن بين ما درجت عليه في حياتها المشتركة مع أصدقائها، أنها لم تكن لتتقبل أية مفاجأة، كانت تستطلع التفاصيل الصغيرة والكبيرة، وتتوقف محنية رأسها إلى صدرها قبل أن تقول: «لا.. لا يناسبني!».

وما لا يناسب سوسن كان أوسع وأكثر مما يمكن التكهن به، فهي لا تزور الأماكن التي لا تعرفها، ولا تختلي بشاب إن لم تكن قد تجوّلت في رأسه وخياله ورغباته ونزواته، ولا تتوافق مع فرق الممثلين الذين يبصقون ضحكاتهم في الأعمال الدرامية ما بين مشهد ومشهد، ولا تتقبل أن يتقدم منها مدير إنتاج مسلسل ليقول لها: مساءً بانتظارك في مكتبي لنعمل تجربة كاميرا.

وحين كانت تزور مقبرة الدحداح، وفي يدها إكليل ورد تزرعه فوق قبر لا تعرف صاحبه، فذلك لقناعة راسخة لديها، وهي قناعة يمكن اختصارها بالقول: الموتى لا يفاجئوننا!

وهي جالسة على سرير مريم، لم تزح مريم عينيها عن سوسن، كان لون سوسن معدنياً، وبدت منهكة، وزاد من إنهاكها، إيحاء الزركشات التي تزيّن سترتها القصيرة المنتفخة، المقلمة بخطوط عامودية بألوان صفراء ميتة.

أومأت مريم برأسها وعينيها، وكأنما تدعوها إلى الهدوء، والتقبل، وبطبيعة الحال لم تكن مريم قادرة على ترجمة دوافعها (أياً كانت هذه الدوافع) باللغة والمخاطبة، فهي لم تقم حواراً مكتملاً مع أي من البشر منذ سنوات لا تقل عن ثلاثة أرباع عمرها، إن مجمل الحوارات التي أقامتها مع الآخرين خلال هذه المدة الطويلة، ربما لم تتعدَ ما يملأ ساعة أو ساعتين، ومجمل الكلام الذي أصغت إليه لن يزيد كثيراً عن هذه المدة، ولم يكن ليخطر في بالها أنها ستستدعى يوماً إلى مثل هذا التحدي، حيث وجدت نفسها مرغمة على الدخول في حوار، يعالج هذه البنت من جراحاتها.

عادت مريم ثانية إلى إيماءات رأسها وعينيها، وحين رأت مسكريتها في يد سوسن، انتعشت وكأنها عثرت على خلاصها:

ـ خذيها إن أحببت، أنا لا أستخدم الماكياجات.

لسوء حظها، لم يحدث أي تغيُّر على سوسن، ما دفع مريم لتحاول مجدداً، مستعيدة الماسكرا من يد سوسن، لتفتحها، وحين فتحتها لتتأملها، تذكرت أنها مجموعة من الدوائر اللونية المتيبسة، كناتج عن الهجر لسنوات غارقة في الماضي، عندئذ ابتسمت مريم وقالت:

ـ حين كنت صبية صغيرة، اشترتها لي ماشاالله.

ـ من هي ماشاالله؟! سألت سوسن.

ـ يووه، إنها...

على نحو مفاجئ صمتت مريم، وأدارت ظهرها متجهة نحو خزانة ملابسها لتفتح الخزانة، ثم أشارت إلى سوسن أن تنظر إلى ما في داخل الخزانة من ثياب، كانت مدفوعة برغبة أن تقدّم هدية ما لسوسن، هدية بديلاً عن الماسكرا المتيبسة، وكانت متخوفة من أن تخذلها فساتينها المورّدة التي التهمتها أسنان العث، أو فتك بها الزمن، وحين ابتدأت بإخراج فساتينها، توقفت عند واحد من الفساتين ثم وضعته على جسدها وكأنها تقوم بتجربته على جسدها أولاً.. كان فستاناً أسود، منقّطاً بدوائر بيضاء، وبلا أكمام، وبصدر كاشف تصل فتحته إلى أعلى البطن بقليل، وكان خيط حريره يمنحه حركة متموجة، وإلى جانبه زنار من الجلد الأبيض.

ابتسمت مريم، وبدت وكأنها تحاكي الفستان في هذه اللحظة، فقد قالت:

ـ يووه إنها موضة السبعينيات.. مؤكد أنك لم تعد مناسباً!

ثانية عادت مريم لتصحيح خطأ ما لا تعرف ماهيته، ولكنها تعرف أنها وقعت فيه، ولهذا عملت بكل جهدها على انتزاع كل فساتينها وتكويمها إلى جانب سوسن لتقول لها:

ـ خذي ما شئتِ.. ها!

التفتت مريم إلى نقرات خفيفة فوق زجاج باب غرفتها، وحين اتجهت متسائلة وفتحت الباب، ظهر رضا وبيده صينية القهوة.

دخل رضا الغرفة، وبروح احتفالية، قال لها:

ـ القهوة يا ست مريم.. قهوة رضا.

قال ذلك وناولها الفنجان، ثم ناول فنجاناً آخر إلى سوسن، ولوّح بصينية القهوة ليقول لها:

ـ على المرء أن يتقن أكثر من مهنة، إن صناعة القهوة من الصناعات التحويلية التي تناسب بلادنا..

ثم أكمل بالروح الاحتفالية ذاتها:

ـ وغلي الماء كذلك صناعة تحويلية، فأن تحول الماء البارد إلى ماء ساخن فهذا معناه أنك تقوم بصناعة تحويلية، وكذلك إعداد الشوربا هو صناعة تحويلية.

صمتهما، والمناخ الكتيم الذي وجد نفسه فيه، جعلاه في موقف حرج، فقد ظن بأنه ليس أكثر من مهرج سمج في سيرك جمهوره يغفو، وبما يشبه المكابرة، قرر أن يتابع طامحاً للفوز بكسر يباس مشهده، وعندئذ تقدّم خطوة نحو سرير مريم متأملاً الفساتين المتكومة. والتفت إلى مريم ليقول لها:

ـ كم كانت المرأة امرأة!..

ثم دقق أكثر ليتابع: كانت الموضة تأخذ بالحسبان أن تكون المرأة مثيرة، الإثارة واحدة من أهم ميزات الموضة، اليوم باتت الملابس النسائية خنثوية، فما يصلح للرجل يصلح للمرأة، لو كنت مصمم أزياء، لعدت إلى موضة الخمسينيات!

قال ذلك وانحنى ممسكاً بالفستان الأسود ذي النقاط البيضاء، ثم رفعه ملوّحاً به أمام مريم، وكأنما يجرّبه على جسدها.

ـ يلزمه كندرة بيضاء، ثم شد الحزام على الخصر، شعر أسود، مظفور بوردة، منحدر على الأكتاف، عينان سوداوان مشعتان، وساقان كما لون المرجان، وسيكون من الأفضل إن انحدر من الكتف شال أبيض من الدانتيلا، وسيعزز ذلك أن تمشي متمايلة قليلاً.. قليلٌ من الليونة في الحركة.. إن امرأة واحدة قادرة على خلق أهم الصناعات التحويلية في هذا الكون.. إنها تحوّل الرجل من رجل ميت إلى رجل حي!

التفت إلى جمهور النظارة، وكأنه عازم على المضي في أداء دور مهرج السيرك، وحين لم يرَ صفقات جمهور المتفرجين، أعاد الفستان إلى حيث مكانه، وانسحب ببطء تاركاً فنجانين من القهوة في غرفة مريم، واحد بيد سوسن والثاني يرتجف بيد مريم.

استقبلت مريم ما قاله رضا، كما لو أنه رسائل مشفّرة، كذلك سوسن تلقت كلامه بالإحساس ذاته، فقد بدا صوته وكأنه مطرقة تكسر جدران سجن مريم، وتلقته سوسن كما لو كان استرسالاً في تأكيداته القديمة، تأكيداته التي تقول بأن المسرح الملتزم فظ، وأن سترتها الرجالية بالغة الفظاظة، وأن كندرتها الرجالية كذلك، وبأن طريقتها في تدخين السجائر أيضاً، وبأن تنكرها لأنوثتها لا يعدو أن يكون جريمة بحق النوع.

كانت الحوارات ما بين جيل كامل الشباب قد أخذت هذا المنحى، ففي الوقت الذي اعتقد فيه فرج العلي فياض أن حشمة المرأة تساوي المرأة، اعتقد جلال أن ثقافة المرأة ومواقفها هي المرأة، وليس مهماً ما ترتديه أكان نقاباً أم ميني جيب، وبالتأكيد لم يكن بالوسع تغيير سلوك سوسن، فيما لم تكن ريتا منشغلة على الإطلاق بهذا النوع من الحوارات، فقد تنوعت في انتقاء ملابسها، تبعاً للخيارات المالية المتاحة، والتي سمحت لها بأن تتجول في أسواق دمشق وبيروت، لتنتقي ما تشاء من الملابس والأزياء التي تستهويها، ومن بين ما استهواها العباءة

المغربية الطويلة الفضفاضة، بفتحة تصل حتى ما بين الفخذين، وقد كشفت عن سروال بالغ القصر يكشف فخذيها.

فور خروج رضا من غرفة مريم، انتابتها مشاعر ضيق واختناق، ولم تعد سوسن بالنسبة إليها موضوع سؤال أو موضوع شفقة، رأتها كتلة من تعقيدات، وضاقت بها أكثر حين فتحت حقيبتها وانتشلت لفافة من أردأ أنواع التبغ، وباتت تنفث دخان لفافتها محدثةً مزيداً من الضيق في المكان، وقد نثرت لفافتها رائحة خانقة.

تمنت مريم في أعماقها أن تنهض هذه البنت من على السرير، وأن تتجه إلى الصالة ومن ثم تنعطف نحو باب البانسيون، لتغلق وراءها هذا الباب ولا تعود إلى لمس مطرقته أبداً، وحين حلَّ الصمت الثقيل على غرفة مريم، وقد بدا الوقت مضاعفاً، تململت سوسن مكانها، ثم لفت حقيبتها تحت إبطها، ومن بعدها:

ـ ست مريم، هل أستطيع أن أحكي مع رضا على انفراد؟

قالت سوسن ذلك، بلهجة توحي كما لو كانت أمراً وليس رجاءً، وحين هزت مريم رأسها موافقة، استدركت:

ـ هنا في غرفتي؟

ـ لا.. حيث تشائين! أجابت سوسن.

ـ تعالي معي!

غادرت مريم الغرفة وخلفها سوسن، وحين توسطتا الصالة، اتجهت مريم إلى غرفة أنيس لتفتح بابها متجهة إلى رضا.

ـ رضا.. تود البنت محادثتك على انفراد.

خرج رضا نحو الصالة، ليقف أمام سوسن، كانا بمفردهما، فقد دخلت مريم غرفة أنيس.. قالت سوسن لرضا:

ـ هل وصلتك أوراق فرج؟

أجاب باستنكار بالغ: وما الذي أعطيتيني إياه؟ أليس أوراقه؟

ـ أكيد، ولكن!

ـ ولكن ماذا؟

ـ هل قرأتها؟

ـ يووه.. حين يكون لدي وقت سأقرؤها.

ـ ولكنها هامة.

ـ ماشي.. سأقرؤها.

قال ذلك ثم استدار نحو غرفة أنيس، وكأنه يقول لسوسن: مع السلامة!

لم يدعها تقول له، أن ريتا كررت اتصالاتها لأكثر من مرة مؤكدة أهمية هذه الأوراق، ولم ينتزع منها اعترافاً يؤكد أنها قرأت جزءاً من هذه الأوراق، مبررة بالقول: بدافع الفضول.. ثم أعدتهم إلى المظروف. ولم يدعها تطلق صراخها في وجهه، ليمسك بها من يدها ويهزها ثم يقول لها: سوسن.. دواؤك ليس عندي!

منكسرة وذابلة نزلت سوسن سلم البانسيون، وحين اتكأت على الدرابزين الحديدي الصدئ، مستكملة نهوضها بعد أن جلست لثوانٍ معدودات، أدركت أنها تقدّم نفسها على الصورة الخاطئة على الدوام، وأكدت لنفسها أنها كما كل أنثى، تحلم وترغب وتحزن وتبكي، وبأن لها صوتاً هامساً وجسداً ليّناً، وبأنها في هذه اللحظة على وجه التحديد، فاقدة لزمامها، فعواقب الدورة الشهرية تنهكها، والمناديل المتوفرة في الأسواق تسرب البلل إلى ثيابها، والأسواق فقدت الفوط النسائية ما بعد العقوبات الاقتصادية التي أحاطت بالبلاد، فبات وجود فوط (ليبرس) السويدية، المحشوة بالجيل الخالص لضمان الامتصاص، بات محصوراً بصيدليات محددة، لم تهتدِ إليها سوسن بعد.

حين دخل غرفة أنيس، وكان غافياً ومريم إلى جانبه، بدا أنيس كما لو أنه ملاكٌ عجوزٌ نائم، كان ينام ويده اليمنى فوق قلبه فيما يده اليسرى ممدة إلى جانبه فوق الأغطية.. نظرت مريم إلى رضا بعتب وملامة ظاهرين:

ـ لماذا تعذّب هذه البنت؟!

بعد صمت، تأمل رضا قسمات مريم، وبهدوء يكشف عن رجل يطفح نضجاً، أجابها:

ـ مريم.. ثمة طفيليات تنبت في المستنقعات، هذه الطفيليات تعلق على سيقان السباحين وأجسادهم العارية، وتترك أوراماً فيها، يمكن إماتة هذه الطفيليات برش الملح فوق الجسد، ولكن الأورام الناتجة عنها لا تُزال سوى بالسكين المحمى على النار.. عندي ملح، ولكنني لا أعرف كيف أستخدم السكين المحمّى.. صناعة السكاكين تتطلب حدّاداً.. أنا لست بحدّاد.

قال ذلك وغادر الغرفة تاركاً مريم إلى جانب أنيس، ومعها ترك إحساساً يقول بأن هذا الفتى بالغ الحزن والرجولة، وبأنه ليس مجرد فكّاك ألغاز أو صانع صدف.

حثتها إجابته إلى الخروج من إعيائها لمعرفته أكثر، بل حثتها إلى حلم الإنجاب، وكانت تعرف أنه لم يعد بوسعها تحقيق تلك اللذة، فقد تجاوزت سن اليأس منذ أكثر من عقد مضى.

ـ 14 ـ

في طريقها إلى مكتبة النوري، وكانت ريتا عازمة على مقابلة جلال أمام بوابتها، تعثرت أقدامها بالروائح الواخزة التي تتكوم تحت جسر فكتوريا، واصطدم كتفها برجلين أحدهما سمين قصير القامة، يوبّخ طفلين عاريي الأقفية، يتغوطان تحت الجسر غير آبهين بعيون المارة، كان الرجل يصفعهما صفعات متتالية، وكانا يفران متعثرين بسراويلهم التي ما زالت تنحدر أسفل ركبهم، وحين توقفت، رمقها الرجل الثاني، وكان أقل سمنة، بنظرات بدت وكأنها مستفسرة، ثم التفت إليها ليقول، بلهجة لا تخلو من المجاملة:

ـ هؤلاء الصبية يجلبون العار إلى بلدنا!

كانت تظاهرة لمجموعة مؤيدة من السكان على مسافة قصيرة من ريتا، وكانت تنقّل نظراتها ما بين الصبيين الفارين بأقفيتهما العارية، وبين التظاهرة المؤيدة التي حطت أمام بوابة فندق سميراميس، فيما كانت بائعات رومانيات يفردن بضائعهن فوق كراتين كبيرة، ويجادلن بكلمات عربية حول أسعار الكنزات والقمصان وقبعات الصوف، قبعات بألوان وردية وزرقاء من قياسات مختلفة، وبدورهن، لم يكنَّ عابئات بفضلات الصبيين الفارين، ولا بالرجلين اللذين تخصهما الكرامة الوطنية، ثمة مشاعر خوف اعترت ريتا في تلك اللحظة، ولكنها وقد

تمرّست على قطع أزقة عشوائيات العاصمة، ما بعد تعرفها على جلال ورضا وفرج العلي فياض وكذلك سوسن، أكملت طريقها دون أن تكتم ضحكتها من مشهد الصبيين اللذين وقفا على الشارة الضوئية المقابلة للفندق، بمحاذاة التظاهرة، وقد مدا عضويهما الصغيرين المختونين، باتجاه الرجلين اللذين يطاردانهما.

ضحكت ريتا، ثم كتمت ضحكتها محيطة فمها براحتها، متابعة الطريق إلى مكتبة النوري، وكانت تقطع الطريق بالاتجاه المخالف، مما جعلها تحفّز حواسها متنبهة للسيارات التي تقطع الطريق باتجاه مبنى المحافظة، ومتداركة أن لا تصدمها سيارة عابرة.

في حقيقة الأمر، لم تكن ريتا اعتادت التجول في المدينة على قدميها، فقد كانت تتنقل بسيارتها الخاصة، بل كانت تتركها أحياناً، وتنتقي أياً من السيارات المصطفة في مرآب والدها، وهي سيارات من ماركات متنوعة، ولكنها كانت تجهد نفسها في الاقتراب من طبقة اجتماعية، تراجعت من مواقع الطبقة الوسطى إلى مواقع الطبقة الفقيرة ما بعد انسداد فرص العمل، والارتفاع المذهل في أسعار السلع، والبطالة الجارفة التي استولت على البلاد، كما الجفاف القاتل في المنتجات الوطنية ما بعد السياسة الضريبية وقد نكّلت بالمنتجات الوطنية، لحساب فتح الأسواق للبضائع الأجنبية، وهي سياسة قادتها حفنة من رجال النفوذ والمال، احتكروا الثروة والسلطة، ما جعل حياة عائلة من مثل حياة عائلة جلال، وهي عائلة برعاية والدين متعلمين، تبدو وكأنها حياة تقف على الحافة، متأرجحة تحت وطأة قلق السقوط إلى الهاوية، إذا ما حصل أن وقعت أية هفوة في حساب حياتها المالية، وربما وبسبب من هذا الوضع الذي آلت إليه العائلة، بدا جلال شخصية محافظة، شخصية شديدة الحرص أن لا تهدر شيئاً من دخل عائلتها، ليحسب بدقة متناهية أية خطوة إنفاق سيكون مرغماً على خطوها.

حين وصلت إلى بوابة مكتبة النوري، كان جلال قد وصل، برفقته باحثة ومؤرخة إنكليزية كهلة، تعد أبحاثها لمجموعة الأزمات الدولية، باحثة تعقّبت الكثير من نشطاء شباب، استدلت عبرهم إلى جلال، وبادرته بأول أسئلتها:

ـ هل نستطيع التعاون؟

ـ بماذا؟ أجابها جلال.

ـ بالتحقيق في مسببات الثورة في سوريا.

حين نطقت معرّفة ما يحدث في سوريا بأنه (ثورة)، اعتقد جلال بأنها تحمل مواقف مسبقة من القضية التي جاءت لتحقق بها، وكان متحفظاً على هذا النوع من التفكير الذي يعتبره: مواقف مسبقة.

بكلمات مقتضبة، قال لها جلال إنه لا يتقن اللغة الإنكليزية بما يجعله شريكاً في عمل بحثي على هذا المستوى، وأنه سيستعين بصديقة تقوم بترجمة المعلومات والوثائق التي سيحصلان عليها، وحين وصلت ريتا، قال للباحثة الإنكليزية:

ـ سيدة ميريل.. أعرّفك.. إنها ريتا!

ثم التفت إلى ريتا ليقول لها:

ـ ميريل، باحثة ومؤرخة، وهي بصدد بحث عما يجري في سوريا.. هل أنت جاهزة للترجمة؟

لَفَت ريتا، كمّ الخواتم الفضية التي ترتديها ميريل، كما لفتها شال البروكار المضاعف، وقد لفّته حول عنقها، وبعد أن مشى الثلاثة، من الاتجاه ذاته، وفي المسار ذاته الذي أتت منه ريتا، كان الصبيان، قد عادا إلى مكانهما ذاته، ليشدا بأصابعهما ثياب ميريل، طالبين منها مساعدة، وهما يتكلمان اللغة العربية صارخين بأصوات مبالغ بارتفاعها، وكأنهم بذلك يترجمون عبر رفع الصوت إلى لغة السائحة.

استعجلت ميريل خطواتها لتلحق بخطوات جلال، وكانت ريتا راغبة بأن تفتح حقيبة كتفها لتنثر كل ما تحويه من نقود على هؤلاء الصبية، ولكنها عادت واستعجلت خطوتها لاحقةً بهما، فيما تابع الصبيان الركض وراء الثلاثة وقد باتت ريتا هي هدفهم. لقد كان الصبيان يعرفان بالحدس والغريزة والخبرة، أن ريتا طريدة مناسبة.

حملت ريتا حزمة من الأوراق النقدية من فئات مختلفة، ووزعتها على الصبيَين، ليفرا مجدداً وهما يتهامسان بذهول وفرحة، وكانت ريتا وقد تأخرت خطواتٍ عن جلال وميريل، همت مجدداً للحاق بهما، حتى باتت بموازاتهما.

ـ من أين نبدأ؟ سأل جلال.

أجابته ميريل:

ـ دومن.

صحّح جلال قائلاً:

ـ تقصدين دوما؟

لم تجد ريتا سبباً لترجمة هذا النوع من اللغات السهلة، ولكنها لحظت بأن مجرد السير مع الأجانب يتسبب بإرباكات أمنية، قد تقود إلى اعتقالها واعتقال جلال، وربما ستنجو ميريل من الاعتقال بسبب جنسيتها الإنكليزية، والحماية التي توفرها السفارات لرعاياها، وما حدث فعلاً، أن رجلاً بدا متسكعاً، كان يمشي وراءهم خطوة بخطوة، بدءاً من المنطقة الفاصلة ما بين جسر فكتوريا وصولاً إلى مستديرة المحافظة، وحين توقف الثلاثة أمام نصب يوسف العظمة، وكانت ميريل قد سحبت كاميرتها من الحافظة، تقدم المتسكع من ريتا ليقول لها هامساً:

ـ ما الذي تفعله هذه الأجنبية هنا؟

في البداية ازرقّ وجه ريتا، ولكنها لم تلبث أن استحضرت قوة مختبئة فيها، لتقول للرجل:

ـ ما شأنك؟ ومن أنت.. ها؟ إنها ضيفة القصر الرئاسي.

امتقع الرجل، وباتت شفاهه ترتجف، وبعزيمة مضاعفة قال لها:

ـ تشرفنا يا آنسة، قصدي خدمتكم!

ـ بماذا ستخدمنا.. ها؟ قالت ريتا.

ـ والله يا آنسة أنا أبحث عن السواح.. أنا أعمل دليل فنادق هنا في منطقة البحصة، إذا أردت أية خدمة اتصلي بي.. اتصلي بي فقط، كل ما في الأمر أن تشيري إلي وسأكون في خدمتك.

قال ذلك وانعطف راكضاً باتجاه بوابة المحافظة، فراراً نحو منطقة البحصة.

حين التفت جلال باتجاه ريتا متسائلاً، ومن بعده التفتت ميريل، بدت ريتا وكأنها صانعة انتصار عظيم في حياتها، ثم أطلقت صوتاً من اشتقاقات موسيقا الروك التي تسكنها، وبعده التفتت إلى ميريل وقالت باللغة الإنكليزية:

ـ ميريل.. أنا كاذبة عبقرية!

بعد أن أكملت ريتا ضحكتها الروك، التي أطلقتها ثانية، التفتت لتشير إلى جلال قائلة: انظر إنه صاحبك!

من الطريق المؤدي إلى فندق الشام، كان نبيل البستاني يقترب باتجاههم، وكان يحمل حقيبته كما عادته على الدوام، ولم يكن البستاني ليعبأ ببنطاله المرخي تحت خاصرته، ولا ببقايا المخاط المتيبس في فتحتي أنفه، ولا بالتناقضات الصارخة ما بين جاكيته الشتوي وقميصه الصيفي المشجّر.. وقف ليصافح جلال مبتدئاً بالقول:

ـ هل شاهدتني على محطة البي بي سي بالأمس؟

ودون أن ينتظر إجابة تابع:

ـ أتوقع لعبة خطيرة تتم من تحت الطاولة.. إنها موسيقا الكراسي، من يصل أولاً يعثر على الكرسي.. لعبة دولية فظيعة، ستعيد ترتيب المنطقة برمتها.

كانت ميريل تتطلع إلى البستاني، وكأنها راغبة بأن تعرف ما الذي يقوله، ولكن البستاني التفت إليها معرّفاً بنفسه، ليقول لها باللغة الإنكليزية:

ـ نبيل البساتني، باحث ومؤرخ، وأستاذ أدب مقارن في الجامعة.

ثم أضاف:

ـ واليوم أكتب مقالات متناثرة على المواقع الإلكترونية وفي صحيفة السفير اللبنانية.

كان بوسع نبيل البستاني الاستفاضة أكثر، ولكنه تطلع إلى ساعته ليقول:

ـ ما زال الوقت مبكراً، هل تأتون معي لنشرب القهوة؟

قال ذلك باللغة العربية ثم ترجم ما قال لميريل. ودون أن يتيقن من موافقتهم، قطع البستاني الطريق وانساق الثلاثة وراءه، وعند الإشارة الضوئية سألت ميريل جلال:

ـ هل هو معلّق سياسي؟

ـ نعم. أجابها جلال.

ـ هل هو من المعارضة؟

ضحك جلال ولم يجب، ولكن ريتا حضّته على الإجابة، فهي أيضاً لا تعرف، سألته ريتا مكررة سؤال ميريل، وطالبته بالإجابة عن السؤال:

ـ قل لها!

ـ لا أستطيع.

ـ لماذا؟

ـ لأنني لا أتكلم لغة بذيئة.

التفتت ريتا إلى ميريل لتقول لها:

ـ لن يجيبك، لأنه يتكلم لغة بذيئة.

ضحكت ميريل لتقول:

ـ ولكنني أحب اللغة البذيئة!

حينئذٍ همس جلال لريتا التي سترجم قائلاً:

ـ ممارسته في السياسة، كما الجنس عبر الواقي، لا هو بدنس ولا هو بطاهر.

لم تحتمل ميريل المفارقة في هذه الصورة، فقد شدت على خواصرها من الضحك، ثم ربتت على كتف جلال قائلة:

ـ إنك قادر على الوصف باختزال مدهش!

لم يبدُ البستاني كما وصفه جلال وهو فوق كرسيه في مقهى ساروجة المكشوف، فقبل أن تتجه إليه ميريل بأي سؤال، أكد لها أن السلطات في البلاد ستجرّنا إلى حرب أهلية، إنها:

ـ هي من يرتب للاقتتال الأهلي، ولا حلّ سوى تدخل عسكري، بقرار من المجلس الدولي.

كان كلامه حاسماً ويقينياً، وكان يقطع كلماته بالاعتذار من كونه قد أقلع عن التدخين مجدداً، وبأنه يرغب في تدخين النارجيلة، مقترحاً على ميريل أن تشاركه برأس نارجيلة واحد، ثم: رأس واحد بمبسمين.

وشرح لميريل، ما الذي يعنيه الرأس الواحد قائلاً: إنه الوعاء الذي نضع به التبغ، وحين انتهى من وصف الرأس، بدأ بوصف المبسمين

بالقول إنهما قطعتان بلاستيكيتان نمتص الدخان عبرهما، وبعذوبة وطرافة أضاف:

ـ بوسعنا استخدام مبسم واحد.. سيكون هذا من دواعي سروري!

ما لفت جلال أن ميريل كانت تسجل ما يقوله البستاني على كرّاس صغير بالغ التنظيم، وكانت تصغي بالكثير من الحرص إلى ما يقوله البستاني، وحين توقف منتشياً من وصول النادل وهو يحمل النارجيلة، تطلعت ميريل إلى المقهى المكشوف، وجالت ببصرها مستطلعة عشرات الشباب الذين يجلسون على المقاعد الخشبية، وهم يلعبون ورق الشدة، ويضحكون، وينفثون دخان النراجيل المعسّل.

سألت ميريل متوجهة إلى البستاني:

ـ من يجلس هنا، لا يلحظ بوادر حرب أهلية، بل لا يلحظ أن ثمة أزمة تحيط ببلادكم!

نفث البستاني دخانه فوق أنفه، وعدّل من جلسته وأجابها بالقول:

ـ إن الحرب ستطول المناطق السنّية ـ العَلَوية، ستكون حرباً طائفية، وهذه الحرب واقعة اليوم في منطقة الزهرة الحمصية العَلَوية، مع جوارها السني كمنطقة الخالدية، ولا بدَّ أن تنتقل بالتتابع إلى الجوار الجغرافي السني ـ العلوي الآخر لتعم سوريا.

في واقع الحال لم يكن جلال قادراً على أن يفهم ما قاله البستاني بدقة، ولكنه فهم الاتجاه العام الذي يتحدث عنه، وعلى الرغم من رغبته الجدية في أن لا يتدخل في الحوار الدائر ما بين المؤرخة الإنكليزية، والبستاني، بدا مستفزاً، ولهذا قاطع البستاني بالقول:

ـ بالأمس كنت على البي بي سي تتحدث عن الوحدة الوطنية.

كان كلام جلال يوحي وكأنه سيطلب من البستاني أن يصمت، وحالما نظرت إليه ميريل، وكأنها تتوجه إليه لائمة قال لها:

ـ إن ما يحدث في سوريا، ليس حرباً سنّية عَلَوية، إنه بسبب تحوّل السوريين إلى شدّادي أكمام، نعم، شدّادي أكمام من مثل الصبيَين اللذين لحقا بنا تحت جسر فكتوريا.

وافقه البستاني على ما قال، وبما يشبه استباق سوء الفهم، توجه بكلامه إلى جلال ليقول له بالعربية:

ـ إنني أوافقك على ما تقول، فالمسألة طبقية في النهاية، إنها مسألة تعني رفض الشعب لهذه التفاوتات القاتلة التي بات يرزح تحتها.. بالمناسبة أعجبني وصفك للمتسولين بشدّادي الأكمام.

بثقة لا تخلو من حس الإدانة، قال له جلال:

ـ ما أعنيه بشدّادي الأكمام، ليس فقط أولئك الصبيان الذين يتسولون طعامهم.. شدّادي الأكمام مصطلح أوسع من ذلك إن شئنا، فالذين يتسولون الأجنبي في الحلول مكانهم لحل مشكلتهم الوطنية.. هؤلاء أيضاً من شدّادي الأكمام.

احتقانات البستاني، والردود المتضمنة دلالات تقول ما يزيد عن اللغة، جعلته يكرّر النظر إلى ساعة يده لينهض واقفاً، مستأذناً بالرحيل لسبب من موعده الذي يجب ألا يُؤجل، وحين ودّعهم مغادراً، كان يمضي ووجهه إلى الخلف، ودون أدنى شك، كان يتمتم كلمات شاتمة، كلمات تطول جلال والمصادفة الواطئة التي جمعته به.

تساءلت ميريل، إن كان العَلَويون يبحثون عن حرب أهلية، أو إن كان السنّة يختارون خياراً كهذا، وكان على جلال أن يوضح لها أنه ينتمي إلى عائلة عَلَوية، وأن معظم معتقلي اليسار السوري طيلة أربعين عاماً كانوا من العَلَويين، وأكد لها أنه سيزودها بما يكفي للتدليل على هذا، وأن ما يحدث في سوريا، إن بقيت سوريا هي سوريا، فللسوريين اختياراتهم التي يمكن التعبير عنها بكلمات سهلة، وبمفردات ليس من

الضروري التوسع بها.. إن كل ما يرغبون به، وما يطمحون إليه هو: صندوق الاقتراع.

ثم أضاف:

ـ وقد بات الطريق إليه صعباً بعد أنهار الدم التي اجتاحتهم.

ـ ما الذي حدث؟

كررت ميريل سؤالها لأكثر من مرة، بعد أن بدت إجابات جلال أقل دقة مما يتطلبه مؤرخ متطلب، قال لها مشيراً إلى ريتا:

ـ ريتا ثارت على مناهج الدراسة التي تمنع تدريس الروك أندرول في المعهد العالي للموسيقا.. أنا أثور لأنني أطمح بأن أترشح لرئاسة الجمهورية، وهذا لن يكون من حقي ما دمت محكوماً بصيغة الرجل الواحد الذي سيحكمني إلى الأبد.. أهالي دوما ثاروا بعد المصادرات والاستملاكات الجائرة التي طالت أراضيهم لحساب أصحاب النفوذ من ديناصورات البلد التي لا تشبع، مئات الآلاف من الشباب ثاروا محاكاة للنموذج التونسي والمصري.. الكثيرون ثاروا نتيجة الملل، ما رأيك بأن تسألي ريتا.. لماذا ثارت؟!

وهي تتأمل الحس الساخر لدى جلال، وملامحه لا تشي بكائن ساخر، رددت ميريل، كلمة دوما، لأكثر من مرة، ثم نظرت إلى جلال قائلة وكأنها تتدرب على النطق:

ـ دوما، ليس دومين.. دومين.. دوما.. دومين دوما.

إجابة جلال، بمثابة إعلان عن تأجيل حوارهما، فقد كان متوجساً من الرقابة الشديدة التي تعمّ المقاهي، وكان مثقلاً بالخوف على فرج، وهو يعلم تمام العلم، أن ارتحال فرج المفاجئ، والذي لم يمهد له، لم يكن بدافع استقصاء ما يحدث على خطوط تماس الخالدية ـ الزهرة، حيث الخطف، والخطف المعاكس، وحرب السكاكين، كان رحيله بمثابة

امتحان آخر للنفس، وقتل إحساسه بالعطالة الذي لم يكن ليخرجه منه انحباس نطقه، وعندما كرر جلال محاولاته في الاتصال بفرج كانت الإجابة المسجلة: الرقم المطلوب خارج نطاق التغطية.

كرر المحاولة لأكثر من مرة، وانتقل قلقه إلى ريتا، والتقطت ميريل إشارات القلق، وكان مقهى ساروجة ما يزال يغص بالشباب اللاهين الذين تحوّلوا فجأة إلى مجموعة تشتبك بالأيادي، وسط صراخ بنات يعملن على الحؤول دون استمرار اشتباكاتهم.

سألها جلال عن قائمة الوقت وجدولها الزمني، فأجابت ميريل:

ـ أعتقد أنني سأمكث في دمشق مدة أطول مما كنت أظن.

ـ هل من عوائق؟ سألها.

ـ سأحاول الوصول إلى مناطق ساخنة.. جسر الشغور أو حمص.

ـ واليوم؟

ـ سأعود إلى الفندق، لدي مجموعة من الرسائل، سأكتب اليوم لابنتي.

ميريل التي نهضت عازمة على دفع فاتورة المقهى، سبق أن دخلت البلقان، وكانت عملت على مجموعة من البحوث التي أرّخت لانهياراته، كذلك دخلت العراق، وشهدت بأم العين السيارات المفخخة وهي تنثر الجثث فوق الأرصفة، ولم يكن عمرها وقد تجاوزت العقد السابع ليحول دون أن تتابع تجولها في المناطق الأكثر اضطراباً من العالم، غير أنها لم تكن تعبأ بالوقت كما يفعل المؤرخون الشباب، والصحفيون الذين توافدوا إلى العاصمة السورية.. كانت سيدة مسترخية، تضيف إلى ليلها ضمادات من شرائح الخيار لتحيط عينيها محتاطة من التجاعيد التي تعمل على الحد منها، وكانت تغالب نفسها وهي تغادر ساروجة، لتقف عند بائع النراجيل ثم تشتري خرطوم نارجيلة من النوع الرخيص

الذي لا يصلح سوى لتثبيت الذكرى، لتضيف إلى مشترياتها، زجاجة النارجيلة وهي من ماركة: روميو وجولييت.

كانت على درجة من الدهشة، قادتها إلى التقاط مجموعة من الصور التذكارية مع البائع، وقد توسطتهما الزجاجة، وقد بدت جولييت بثوب مرجاني منفوخ الأرداف، وإلى جانبها روميو بقبعة فارس، وسروال مضموم من الأسفل.. ثم طبعت قبلة على جبين البائع العجوز وقد ظهر محرجاً أمام جيرانه من البائعين الذين يرسمون في الهواء إشارات تدلل على عجزه الجنسي، وعلى تنبيهه بأن وقته قد مضى.

لاحظ جلال الموقف، والتقطت ريتا تفاصيله، وكانا يستديران نحو المكان الذي وقفت فيه ميريل، ثم يحثّا الخطى نحو بانسيون مريم.

ـ سأحاول! قالت ريتا.

ـ تدبري أمرك! أجابها جلال.

كانت ريتا قد احتقنت تماماً، وكانت قد أوشكت أن تبلل نفسها، غير أن ما زاد من تعثرها هو ملامح الغروب وقد نشر لونه على المدينة.. الغروب وقد أخذها إلى التخبط في خطوتها ومن ثم الاصطدام بالمارة والأرصفة.

ـ سأتخلص من التبول اللاإرادي، ولكن كيف لي أن أتخلص من العشى الليلي؟!

تساءلت ريتا، مكررة القول: «إنها مسألة إرادة»، و: «أنا متأكدة من صلابة إرادتي»، وبعد توقف تلاه صمت لم يطل، ضحكت حتى امتقع وجهها، ثم أخذت نفساً عميقاً جلست من بعده أرضاً لتقول لجلال وكأنها خارجة تواً من معركة:

ـ تماااام.. لقد بللت نفسي!

بدا معطف ريتا، وكأنما صنع خصيصاً لمثل هذا الموقف، فالمارة المستعجلون، لن يتنبهوا لما يختبئ تحته، والمسافة ما بين مطلع ساروجة، وبين بانسيون مريم، لا تتجاوز على وجه التقريب خمسمئة متر، مروراً بمحاذاة ساحة المحافظة، ومطعم الريس، ومن ثم سينما السفراء، فالمركز الثقافي الروسي، انعطافاً نحو فندق القيروان، ومقابله تماماً وجدت ريتا نفسها وهي تنظر إلى شرفة البانسيون، عازمة أن تنادي طالبةً رضا. ولكن جلال نظر إلى ساعة يده، ليقول لريتا:

ـ تأخرت عن الجماعة.

قال ذلك موحياً بأن ثمة سراً لن يبوح به، فالجماعة تعني فريقاً ممن يشتغلون بالسياسة، ولم تكن ريتا لتتقبل أن تتحول إلى بنت فضولية، كانت تتجنب هذه الصفة على الدوام، لترشّد أسئلتها، لتقتصر هذه الأسئلة على ما تظن أنها أسئلة ستريح المجيب عنها، ولكنها كانت بحاجة أن تتجه إلى بيت أهلها، اعتقاداً منها بأن ما عليها فعله على وجه السرعة، هو خلع سروالها وما تحته، وتغسيل فخذيها وتعطيرهما ببودرة الأطفال، ومن ثم لا بأس.

ـ من سيمسك بيدي؟ ها!

ـ ولمَ كل ذلك؟ اذهبي إلى بيتكم، ما الذي يحثك على لقاء رضا؟

ثم أشار لتاكسي عابرة، وما إن توقفت التاكسي حتى دفعها إلى المقعد الخلفي ملوّحاً بيده.

كانت انتصار مسترخية فوق كنبة مستطيلة في صالة بيتها، وبيدها جهاز التحكم متنقلة ما بين محطة تلفزيونية ومحطة أخرى، ولم تكن لتقيم وزناً للتأخر المتكرر الذي بات سمة لسلوك ابنتها، وكانت تخطط، مع كل تطور في اتجاه الأحداث في البلاد للهروب العاجل، مستعينة بالجنسية الكندية التي تحملها.

فور أن دخلت ريتا الصالة، التفتت إليها أمها لتقول لها:

ـ ريتا.. تعالي، اجلسي هنا! وأشارت إلى المقعد المقابل.

اعتذرت ريتا من أمها موضحة: ثوانٍ وأعود.. ثوانٍ فقط.

الخلوة التي تعيشها انتصار، باتت ضاغطة عليها، وترجيع أسئلتها على النحو الذي تقدمه المحطات التلفزيونية، والمحللون السياسيون، جعلها مسكونة بمشاعر الموت تحت أنقاض بيتها، خصوصاً إذا ما انتقل ملف البلاد إلى مجلس الأمن الدولي، ليتخذ المجلس قراراً بالتدخل العسكري ومن ثم تكرار النموذج الليبي.. سيكون بيتها القريب من القصر الجمهوري على مرمى نيران الناتو، وسينقض الطيران محدِثاً انفجارات صوتية مرعبة، وسينهار كل ما رتبته أيديها وما صنعته في تاريخها، والذي جُمع على هيئة أثاث منزلي بنماذج متنوعة.. صالة استقبال من خشب الجوز المطعّم بالخط العربي والأصداف الأعلى سعراً، صالة استقبال أخرى مبسوطة على النموذج الأمريكي، وصالة ثالثة كل أثاثها وصل من الهند، وغرف نوم تزيد عن عدد أفراد الأسرة.. معالق فضية محاطة بخيوط من الذهب الخالص.. تُحف تمتد إلى عمق الحضارة الرومانية، وهي مجموعة من الآثار المشتراة من منقّبي آثار يأتون إلى بيتها خلسة، وخزانة ممتلئة بالفراء، بما يمكن إذا ما أعيدت الحياة إليه، أن يشكل غابة من الحيوانات المتلحفة بالفراء.. غابة من السناجب والدببة والأرانب البرية.

حمّام غرفة ريتا، كان أقل بذخاً من بقية حمامات المنزل، ولكن مصممي راعوا في اختيارهم لصنابير المياه أن تكون بمقابض ذهبية، كذلك إطارات المرايا الموزعة على حائطيه، وهما مطعّمتان كذلك بخيوط الذهب، وإذا ما كانت ريتا، مثل كل البنات، منشغلة باستطلاع جسدها، فطالما اعتقدت أن هذه المرايا تعيد تشكيل الجسد وفق تقنية

المرايا.. المرايا الباذخة هي من يصنع الجسد الباذخ، هكذا كانت تعتقد، وسيضيف إليها اعتقادها هذا، أن الجسد الذي في المرآة ليس جسدها، إنه الجسد المنتحل، الجسد الكاذب، فالأجساد الحقيقية، هي تلك الأجساد التي تراها في المرايا المتوفرة لدى مجمل سكان العاصمة.. فمرآة سوسن ستكون أكثر دقة وتعبيراً من مرايا حمّامها، ولهذا لم تكن لتأخذ على محمل الجد، ذلك التناسب الخلاق ما بين ردفيها وانسيابهما إلى فخذيها وقدميها بأصابعهما الناعمة، ولم تكن لتحتفل بصدرها وقد صعد قليلاً إلى الأعلى ممتداً إلى عنقها وقد تقمّص عنق غزالة، ولا إلى وجهها المضاء ببياض مسكون بحياء يتربص به الخطر.

ـ أمي، هاجري أنت! قالت ريتا.

وبلغة يكتنفها الرجاء أضافت:

ـ أنا لا أحب كندا، ولا أطيق البرد.. أنا أحب دمشق، لن أهاجر معك!

لحظة الصمت التي أعقبت إجابة ريتا، أعقبتها قناعة لم يعد ثمة شك فيها لدى أمها انتصار، ومفاد هذه القناعة أن انتصار بلا أهل ولا عائلة، وبأنها مجرد حارسة لأثاث منزلي.. إجابة ريتا استدرجتها إلى يقين أنها ستذهب إلى موتها وحيدة مهجورة، تاركةً بنتاً ليست ابنتها، وزوجاً ليس زوجها، وأباً مرمياً في مصح عقلي، هو أقرب إلى السجن منه إلى المشفى.

كان عليها أن تغرق في اكتئابها أكثر، وكان عليها أن تؤكد للدكتور فريد أنها لم تعد تطيق النظر في وجهه، وكانت قد أجابته صارخة وهاتفها النقّال يهتز في يدها:

ـ اذهب وحريمك إلى المزبلة!

وبعد ذلك غرقت في طوفان من الدموع، أعقبه صمت جارف.

ـ أمي! نادتها ريتا.

أزاحت انتصار صوت ابنتها براحة يدها وعادت إلى نشيجها، ليغدو يأسها ظاهراً للعيان، ثم نهضت ومشت، ثم عادت تحمل مفتاحاً نحاسياً ضخماً، وشالاً طويلاً مطرزاً، ومن ثم لفت رأسها بالشال المربوط إلى المفتاح وأدارت المفتاح حول عقدة تعصر رأسها.

كانت آلام الرأس قد اشتدت بانتصار، ولا مكان للظن هنا، بأن آلام الرأس هذه تعود إلى أسباب سيكولوجية، وليس من الممكن إحالتها إلى نوع من الدفاعات الذاتية، التي يحيي فيها المرض مرضاه، ولكن ما حدث لم يكن بعيداً عن توقع كهذا، فقد كانت انتصار كلما عصرت رأسها ازدادت يقيناً بأن هذا الرأس هو رأسها هي، وبأنها تمتلك إضافة إلى الأثاث المنزلي الذي تحرسه، تمتلك رأساً يتوجع.

لغتها الصارمة، وكلماتها الجارحة التي قالتها انتصار للدكتور فريد، صيدلاني العائلة، كانت كفيلة بأن تجعله لا يجرؤ على معاودة الاتصال بها، ولكنه أجاب ملهوفاً على المكالمة الهاتفية التي تلقاها على هاتفه النقّال، المكالمة التي خصّص لها نغمة سجلت ضحكتها، فسمع صوت ريتا على الطرف الآخر.

ـ أمي!

ـ ما بها؟ أجاب فريد ملهوفاً.

استبد الخوف بريتا، وهي تقف إلى جانب فريد في الممر الضيق الموحش لمشفى الشامي، وضاعف مخاوفها الضحكات المنبعثة من غرف مرضى يتمددون وسط زوار يعودون مرضاهم حاملين باقات زهور الغاردينيا المرتفعة الأثمان التي تستورد خصيصاً من هولندا، واشتدت وحشة المكان حين لفّت ذراعيها حول خصرها، وكان واحد من مرافقي أحد المرضى وقد زرع خاصرتيه بالأسلحة، يدقق النظر

في الدكتور فريد بإيحاءات وقحة، تنبئ عن كراهية عميقة للدكتور الذي ينتمي إلى الجنس الثالث، كان الحارس المحمّل بالأسلحة يهمس لحارس ثانٍ يقف إلى جانبه، لتتلو همساته ضحكاتهما وهما يشيران إلى الدكتور فريد.

رغم طوله الفارع، تكوّر فريد حول نفسه، ما جعله أقل قصراً من ريتا، وأخذ لونه لون الطحلب، بدا وكأنه يحتمي بريتا، غير أنه استحلب قواه، ليقول لريتا:

ـ لا بأس، نرجو الله أن تخرج انتصار من هذه الأزمة!

لم تكن ريتا لتعرف ما هي الصلوات التي يمارسها فريد وهو يروح ويؤوب منفرداً في الممر الضيّق، ثم وهو يستند إلى حائط الممر وقد بات يبكي.

حين تقدّمت ريتا منه مواسية، قال لها إنه وعد الله في هذه اللحظة، وأن الوعد لله هو أهم من أي وعد آخر. كان فريد نقياً كمن دخل الجنة تواً، وكان يقترب من ريتا متنشقاً بشرتها، متابعاً دعاءه إلى الله أن يتدخل في الإجراءات الطبية لوحدة العناية المشدّدة.

شعرت ريتا بأنها أمام كائن آخر لم تكن تعرفه، وكانت عازمة أن تدخل غرفة العناية المشدّدة لتهمس في أذن أمها قائلة:

ـ حسناً.. انهضي وسنهاجر إلى كندا!!.. أنا أحب البرد، من قال لك أنني أكرهه؟!

حين خرجت واحدة من الممرضات قاصدة غرفة الممرضات، تقدّم منها الدكتور فريد متسائلاً:

ـ ما هي الحالة؟

اكتفت الممرضة الشابة بالقول:

ـ ادعوا لها!

غير أن الممرضة الشابة، كانت تهرع إلى غرفة الممرضات لاستدعاء طبيب، عجوز، مشهور لا يُستدعى إلا لمعاينة الحالات الميئوس من شفائها.

ما بين وصول فريد، واستدعاء إسعاف المشفى، وبعد ذلك نقل انتصار إلى العناية الفائقة، كان هاتف ريتا المحمول قد سجّل مجموعة من الاتصالات (الفائتة)، وكان جلال هو الأشد قلقاً بسبب عدم إجابتها على مكالماته، فيما سجّلت على شاشة هاتفها، رسالة حملت الأحرف الثلاثة من اسم فرج العلي فياض، وفي رسالته:

«كنت سعيداً معك، ولكنكِ لم تحسبي لي أي حساب.. أمي حاكت شالاً لكتفيك.. أتمنى أن لا تبردي أبداً!».

ـ15ـ

يمكن لناصر أن يخمّن، أن سيارة نقل الأثاث، التي تنزل أسرّة، ومقاعد، وأفرشة من فندق القيروان، المقابل لبانسيون مريم، هي إشارة صريحة إلى أن هذا الفندق قد أُلغي من الخدمة، وكانت المرأة السمينة التي تنفض سجادة بالأمس، وقد تدلت بثدييها من الشرفة، ودون سبب يمكن معرفته، هي من تعطي الأوامر لعمال العتالة بترتيب الأثاث فوق ناقلة متوسطة السعة، دون أن تلتفت إلى حارس المؤسسة الاجتماعية العسكرية، وكان يحملق فيها، مرخياً بندقيته على كتفه.

كان صوت المرأة وهي تعطي تعليماتها النزقة بإعادة وضع أسطوانات الغاز الفارغة فوق الأسرّة، ينفذ إلى قلب ناصر، فهي آخر امرأة استطلعتها عينيه، وهي وإن كانت بالغة السمنة، ومتهدلة الأوراك والقفا، فهي بالمحصلة امرأة، ولن يكون رحيلها سوى قرار بإعدام النساء اللواتي يعنّه على استكمال حياته، وهو يوطّد عقده بالزواج من نفسه.

جميع نوافذ القيروان بدت معتمة، باستثناء نافذتين اثنتين، نافذة لم يكن بمقدوره تفحص من وراءها، بالنظر إلى كونها تقع على زاوية منحرفة عن نافذته بما لا يدعها تكشف عمن يقف خلفها، وثانية بسقف واطئ تتدلى منه مربعات من الجبصين الذي يتحول إلى خشب مزيف،

وكانت غرفة قد خلت من كل الأثاث، وجُرّدت من ثريا السقف، كما من الستائر.

حين دقق النظر فيما آل إليه الفندق، أحاطه إحساس عميق بالعزلة، فمن نافذته، لم يعد بوسعه الإطلال على أي من الكائنات التي تتحرك، ومن نافذته مدّ بصره في محاولة جديدة ستوطّد إحساسه بالعزلة، بعدما تيقن أن ليس ثمة نافذة واحدة يمكن أن تسعفه، فنوافذ العمارات الواقعة على شارع 29 أيار بعيدة، والمبنى المقابل لشرفته من جهة اليسار، ما زال مبنىً مملوكاً للجيش ومهجوراً بكامله، باستثناء الطبقة الأرضية حيث المؤسسة الاجتماعية العسكرية.

كان قطه ألكسندر، قد وقع تحت ثقل روح ناصر ومواجعه، فقد كوّر نفسه فوق مخدة ناصر مطلقاً همهمات النائم ولم يكن بالنائم، وكانت قطته إيميليا، تتوارى تحت سريره على غير عادتها، وحين انتهت المرأة السمينة من ترتيب الأغراض في الشاحنة لتصعد إلى جانب سائق الشاحنة، فيما العتالون يتشبثون بالسلم المنصوب على صندوقها، بدت رئتا ناصر وكأنهما بالونين مثقوبين في صدره، وكان يستجمع قواه كي يأخذ هواءً كافياً لإعادة الهواء إليهما، كان يستلقي فوق سريره ثم ينهض ضارباً صدره، ومن بعدها يعود إلى الاستلقاء وقد أحاط وجهه بمخدته، منتزعاً المخدة من تحت القط ألكسندر.

فجأة، التفتت مريم نحو غرفة ناصر، فقد حدثت جلبة كبيرة، ثم همدت بسرعة، أعقبها مواء موجع صادر عن القط ألكسندر.

ليس من السهل تقبّل مثل هذه الجلبة، فقد سكن ناصر هذه الغرفة منذ 1985، ومنذ سكن كانت الغرفة وكأنها مهجورة تماماً، وكان ناصر قد درّب قطته، وألكسندر على وجه التحديد، أن يموء هامساً، وها هو ألكسندر قد بات في سن الشيخوخة، فقد قطع عامه السابع إلى

جوار ناصر، دون أن يخطئ ولو لمرة واحدة في التعبير عن نفسه، كان يمارس شراسة فظيعة حين يباشر التهام طعامه، ولكن شراسته لم تكن لتتجاوز استخدام فمه على آخره، يحيط طبقه بيديه الاثنين، يلوّح بذيله، هذا كل ما في الأمر، ولم يتعدَّ ألكسندر في شراسته هذه حدود التعبير عبر الجسد.

مريم التي نهضت على ارتطام ألكسندر بباب غرفة ناصر، فتحت باب الغرفة بلهفة، مدفوعة بالخوف على ما يمكن أن يكون قد حدث داخل جدران هذه الغرفة، ولكنها تراجعت إلى الوراء خطوة وهي تضع يديها على فمها، محدّقة تنظر إلى القط ألكسندر، وهو يموء تحت قدمي ناصر، وناصر يركله ركلات عنيفة متتالية، هي أقرب إلى الهستيريا منها إلى تعمد العنف أو الأخذ بقوانينه.

صرخت به:

ـ ناصر.. ما الذي حدث؟!

ما إن دخلت مريم، حتى دلف ألكسندر من باب الغرفة متجهاً إلى الصالة، وما إن تابعت مريم لتقول لناصر: أراك قد جننت!

ما إن قالت ذلك، حتى وضع ناصر راحتيه فوق فمه وراح يبكي مردداً:

ـ ها هو.. ما إن فتحت الباب حتى تخلّى عني!

نهنهات ناصر، لا بدَّ أنها كانت تصل إلى غرفته، حيث القطة إيميليا وحيدة في هذه اللحظة، وهي وإن كانت من القطط المرحة التي لا تتوقف عن هزّ ذيلها، غير أنها كانت قد أصيبت بالأسى في تلك اللحظة، وكانت وحدتها قد تبدّت في تغطية نصف جسدها، وقد دست رأسها تحت أغطية السرير، ولفّت ذيلها بين فخذيها، وقد همدت حركتها وتحوّلت إلى أنفاس تتلمس الحذر.

لم تكن مريم تعرف شيئاً عن ناصر، ولا عن الأيام الفائتة من حياته، فطيلة ثلاثة عقود بجوارها، لم يستحضر ذكرى واحدة تشي بمعلومة عن حياته الفائتة، ولم يبدّل خلالها من سلوكه أبداً، كان ناصر، قد اتخذ من هذا المكان حصناً له، وكان داخل حصنه ملفوفاً بالأسرار والصمت والابتعاد عن أيّ من البشر الذين يطلّون بأعناقهم محاولين استطلاع ما وراء أسوار حصنه.

كان يكتفي بالفرجة على أسرار فندق القيروان، وكان ينتزع من غرف ذاك الفندق أجساداً تتعرى وتتبدل مع كل مواسم الملاهي الليلية المتوزعة على أطراف العاصمة ومركزها، وحين كان يخرج من البانسيون، كان يخرج ليقوم بعمل واحد محدد، عمل يستغرق فجره إلى أن تسطع الشمس فوق سماء العاصمة، إذ يأخذ طريقه من شارع 29 أيار، نحو شارع الأمين، وهناك، يتبضّع أكياساً من رؤوس الدجاج وأجنحة الدجاج ومخلفات الدجاج المذبوح، ليتابع طريقه إلى مزرعة كلاب نور، حيث يمضي إلى الكلاب المقفوصة، ويرمي لها بطعامها، وبين صفّي الأقفاص التي وضعت فيها الكلاب الشرسة، كانت تنتابه نوبات صداع شديد من نباح الكلاب الذي يأكل رأسه.

ولكنه ومع الوقت، بات معتاداً على أنه ما إن يعود إلى سيارته الشاحنة، حتى يتسلل الخدر إلى رأسه، ثم يرتاح من آلام الرأس وهو يشق طريقه من طريق المطار باتجاه 29 أيار، ليعيد سيارته إلى مكانها في أزقة مجهولة متفرعة عن الشارع وملاصقة لمنطقة عين الكرش التي تتوسط المدينة.

كانت دورة حياته قد مضت على هذا النحو، دون أيّة محاولة منه ليستبدل بها دورة حياة أخرى، مع أن مؤهلاته، ربما تجاوزت أجنحة الدجاج ورؤوسها، أقلها خبرته في اقتفاء الأثر، وهو من عمل لمدة ليست بالقليلة في منظمة التحرير الفلسطينية، حيث كانت أكبر مهامه

وأكثرها خطورة وتوتراً، تعقبه لرئيس الوزراء الإسرائيلي آرييل شارون، إلى جزيرة قبرص، وكان شارون قد اختار فندق هيلتون لإقامته.

كان فصيل فلسطيني يعمل لحساب أبو جهاد خليل الوزير، قد اتخذ قراره باغتيال رئيس الوزراء الإسرائيلي، وحُصرت مهمة الاستطلاع بناصر، كان شارع مكاريوس، على مقربة من كنيسة يوحنا المواجهة لفندق هيلتون في العاصمة نيقوسيا، وعندما وصل شارون إلى الفندق مصحوباً بطوق من السرية يصعب اختراقه، راح ناصر يتساءل إن كانت مجموعة التنفيذ جاهزة.

قبل وصول مجموعة تنفيذ الاغتيال من بيروت إلى لارنكا، أُعدمت المجموعة، وألقيت جثث أفرادها في عرض البحر، ولم تتأخر مطابع المنظمة عن نشر ملصق لأفرادها الثلاثة وكل منهم يسند كتفه إلى كتف الآخر، مع كلمات مؤثرة تشيد ببطولتهم، وكان مما هو أشد غرابة، أن ينجو هو، وكان طيلة أيام من الانتظار التي أمضاها في كنيسة يوحنا، كان يتأمل جدران الكنيسة ناصعة البياض، كما يجرفه دوي مزاميرها ويسحره زجاجها الذي يشع ذهباً.. كان يثابر على الذهاب إلى الكنيسة، معتقداً أنه في رحلة وداع للدنيا، وكان قد اختار هذه الكنيسة باعتبارها بيت الله.. البيت الذي ليس بوسع سوى الله أن يتعقب زوارها.

مجموعة من ثلاثة شباب قُتلوا، قتلتهم الدسيسة المزروعة فينا، هذا ما قاله ناصر يوم سلّم سلاحه وخرج من قبرص إلى بيروت مسكوناً بالحذر.

ـ نحو أي البلدان سأتجه؟!

كانت دمشق محطته، هي جغرافية المصادفة، وإقامة المصادفة، وكانت مريم ما زالت تتلفح بشبابها.

حين استذكرت طلته الأولى، كان فتىً منهكاً يحمل حقيبة تزنّر كتفيه الاثنين، وحين سألها إن كان سيعثر على سرير في البانسيون، بدا وكأنه يغفو على بابها.

ـ نعم، لدي غرفة!

قالت له مريم، ثم وضعته أمام قائمة من الشروط، هي الشروط ذاتها التي وضعتها أمام رضا بعد ثلاثة عقود، هي الفارق ما بين وصول الأول، وقد بات واحداً من مفردات البانسيون، ووصول الثاني، وهو من لم يمضِ على وصوله سوى ليلة واحدة.

كان ألكسندر العجوز، يجر شعره وجسده مستطلعاً طريقاً ما في الصالة، وكانت مشيته متثاقلة، فقائمتاه الخلفيتان بدتا كما لو أنهما قد خصصتا للجلوس فقط، كان يجلس فوقهما ثم يتدحرج وهو يعيد محاولة السير على أربع، وما إن أطل رضا نحو الصالة، متمتماً بكلمات ترحّب بألكسندر، حتى تكوّر ألكسندر ملتصقاً بالباب وكأنه يداري موته.

بدا ألكسندر عتيقاً كما خشب باب البانسيون العتيق الضخم، وفي اللحظة ذاتها التي نهض فيها مجرجراً قامته ليتكئ على الباب محاولاً الفكاك من المكان، خرج ناصر من غرفته ووراءه مريم، نظر ناصر إلى ألكسندر مستشعراً طعم الخيانة، ثم تطلع إلى مريم ليقول لها:

ـ ها هو ذا، ما إن أتيحت له الفرصة ليغادر، حتى هز ذيله وغادر!

تقدّمت مريم من ألكسندر، وكان رضا يراقب وهو يعيد الصوت متردداً، ثم أمسكت بألكسندر محيطة القط بذراعيها، وفتحت الباب لتُخرج القط من الصالة، ثم أغلقت الباب خلفه.

جلس ناصر مسنداً ظهره إلى جدار الصالة، والتصق كتفا مريم ورضا وهما يقفان مقابله، وكانت مريم تدير نصفها إلى ناصر وسط

صمت كسرته قعقعة معادن مغلاق باب غرفة رعد الأسمر الذي خرج إلى الصالة مستفسراً:

ـ ما الذي حدث؟ سأل رعد الأسمر، متوجهاً بسؤاله إلى مريم.

نهض ناصر جاثياً على ركبتيه ليقول لرعد:

ـ في الأمر خيانة!

ـ من خان من؟ سأل رعد الأسمر.

ـ ألكسندر خان ناصر.

أجابه رضا، وهو يتأمل وجه ناصر، وبعدئذ استدار إلى مريم ليقول لها:

ـ من يفتح باب سجنه خائن، أليس كذلك يا مريم؟

للمرة الثانية بدءاً من سكنه في هذا البانسيون، ولم يكن قد مضى على إقامته سوى ليلة واحدة وبعض اليوم، يخاطبها رضا باسمها هكذا، دونما استباق الاسم بلقب (سيدة)، وللمرة الأولى، يخرج أنيس من سريره بعد يوم من الأنفلونزا وكانت الحمى قد زالت عنه، ليقف وجسده يتأرجح وإمارات الإجهاد بادية بجلاء على جسده، وهو يصغي إلى رضا، وكان رضا يقطع الصالة وكأنما يؤدي أداءً مسرحياً على صلة بالتراث التراجيدي الإغريقي وهو يكرر:

ـ ألكسندر خان ناصر يا مريم، لأنه تحرر من سجنه!

لم تكن مريم لتتجاهل أن يناديها أي من السكان باسمها، ولكنها كانت ترجع صدى اسمها بلذة جارفة، مستعيدة هذا الاسم وهي تتهجى حروفه حرفاً حرفاً، وكأنها تستذكره: م ر ي م.

لقد عثرت في قلب هذه التراجيديا، على شيء حميم، وكانت تسعى عبثاً لاستعادة ماضيها في استنكار من يذكر اسمها قبل استباقه بلقب سيدة، ذلك أنها شعرت بأنها الآن هي هي.. وأن اسمها يعنيها

بمفردها، وأن ما يتعيّن عليها في هذه اللحظة هو أن تستعيده كاملاً، وعندما التفتت إلى أنيس، كان رضا ما يزال يهمس:

ـ ياه يا مريم، كم تبدو الخيانة مكلفة!

ذُهلت مريم بقدرة رضا على رسم هذه الصورة الساخرة الجارحة لتراجيديا القط ألكسندر، وبدا ذكاؤه بالنسبة إليها، ثمرة روح متقدة وعقل متقد، كما التقطت حس المسؤولية الأخلاقية الجارف لدى رضا، حين قال دون مداراة ولا مجاملة، وهو يمسك بكتف ناصر:

ـ كل ما فعله ألكسندر أن غادر زنزانته تاركاً جلّاده في الزنزانة!

نزع ناصر يد رضا عن كتفه بشراسة مبالغ بها، ورفع قبضته في وجهه مهدداً، ثم أرخى قبضته ثانية وسط تحفّز رعد الأسمر، واندهاش أنيس وعجزه، واستسلام مريم لمشهد لا شك بأنها عثرت فيه على ما يمنحها البهجة، ثم أرخى قبضته من أمام وجه رضا المبتسم، ليقول له رضا بالأداء ذاته الأقرب إلى المسرح:

ـ ما إن رفعت قبضتك حتى ارتخت ركاكيبك، أنا على ثقة بأن ألكسندر لم يكن يعرف أنك بركاكيب مرتخية، ولهذا كان ينام تحت قدميك وهو يرتجف.

قال ذلك وتطلّع إلى أنيس متجهاً بخطوتين نحوه:

ـ آه.. عم أنيس، ها أنت نهضت بالسلامة.. الحمد لله، ما كنت أفعله هو فقط محاولة إيضاح الصورة، ثم أردف:

ـ عم أنيس، اشتاقت مريم إلى قهوتك!

استدار رضا تاركاً مجموع سكان البانسيون في الصالة، ليتجه إلى غرفة ماشالله، وفور أن غاب وقد دلف إلى الممر الواسع الفاصل ما بين الغرفة والصالة، تمتم رعد الأسمر:

ـ أخ القحبة.. دمرتني!

في غرفة ماشاالله، ما يزال السر مختبئاً وراء قوارير زجاجية مخبرية، كما في نظرات الصورة المعلقة للسيدة التي تنظر إلى الكاميرا وقد التفتت بجسدها نصف التفاتة، وما يزال يتعيّن على رضا أن يجيب عن سؤال: من هي ماشاالله هذه؟!

وفي الصالة، كان أنيس قد أصغى إلى كل كلمة قالها رضا، ليحفظها كما لو كانت مقاطع من مسرحية، وكان صامتاً كالمعتاد، وكانت مريم تشعر شعوراً عميقاً بأنها محفوفة بالمخاطر، وبأنها بحاجة إلى التنفس، ما دفعها إلى مغادرة الصالة والاتجاه إلى غرفتها لتأخذ جرعة من بخّاخ الربو عازمة على أن توسّع قصباتها الهوائية، وانتقلت عدوى الأسرار من غرفة ماشاالله إلى كل زوايا البانسيون وغرفه، بما جعل جميع سكانه محاطين بمشاعر السر، وقد ضاعف مواء ألكسندر من ضغطه.

على عكس ما يمكن توقعه، كانت المواكب السيارة لمحبي كرة قدم، تخترق شارع 29 أيار احتفالاً بفوز فريق برشلونة على منافسه، وكان يتقدم الموكب شاب وقد أخرج نصف جسده من السيارة وهو يردد هتافات متحدية للفريق المهزوم متوعداً بالفوز مجدداً وفي كل مباراة قادمة ستشهدها ستادات الكرة الأرضية، وكانت السيارات التي تطلق أبواقها، تحث ألكسندر على أن يحتمي تحت كومة من القمامة التي ألقتها زواريب الحارة، وأكثرها أثراً، وسادات ممزقة، وأفرشة لا يمكن توقع استخدامها، كانت السيدة البدينة قد كومتها أمام مدخل فندق القيروان، على مقربة من المؤسسة الاجتماعية العسكرية.

لم يسبق لقطط الشارع أن شاهدت قطاً على هذا النحو من الفراء الباذخ، غير أنها كانت تتقافز من حوله ملتقطة بقايا وجبات جاهزة، رماها مجهول من ساكني حارة بانسيون مريم، وكان ألكسندر يتطلع إلى بقية القطط وقد بلغ منه العجز ما بلغ.

وفيما كان الجندي الشاب، يحدّق إلى هذه القطط، وقد أرخى سلاحه فوق كتفه، تقدّم من ألكسندر، ساحباً بيده قطعة من بقايا دجاج، ووضعها أمام ألكسندر، ثم فتح الغطاء كاملاً عنها، طاوياً بذلك اسم المطعم الذي كُتب بخط نسخي مشيراً إلى واحد من أشهر مطاعم وجبات الدجاج السريعة في العاصمة، منتظراً أن يتقدم ألكسندر خطوة باتجاه العلبة، ومكرراً بما يشبه الرجاء:

ـ تعال كل.. لا تكن سخيفاً! تعال كل وإلا سيأكلها غيرك!

تابع الجندي عثرات قوائم ألكسندر وهو يجر جسده متجهاً إلى شارع العابد ملتصقاً بجدران الشارع. كان ألكسندر يغالب عجزه، وها هو ذا يتابع سيره حتى تقاطع شارع العابد، حيث ستتوقف سيارة عابرة، محدثة بكوابحها صوتاً ارتجت له أوصال المارة، وبعدئذ رقد ألكسندر بسلام في أكثر المقابر قداسة، وقد تحوّل إلى كتلة من الفراء تعلوها سماء ماطرة.

لم يكن المارون من شارع العابد، ليعيرون انتباهاً لاستمارات شهادات الموت، ولم يكن من الوارد أن يمسك أي منهم بأطراف شرشف للملمة جثة ألكسندر ورفعها عن الإسفلت، كانوا يعبرون قافزين فوق الجثة، متابعين سيرهم، ثم يلتفتون إلى الخلف مدارين تعثر خطاهم، أما ناصر وقد بدأت روحه تهدأ شيئاً فشيئاً، فقد نزل سلم البانسيون في رهان عقيم على أنه سيعثر على قطه أسفل درجة أو على باب العمارة على أبعد تقدير.

سأل ناصر الجندي الحارس عما إذا ما صادف أن رأى ألكسندر، ولكن الجندي الحارس، قاوم مشاعره الحزينة، وأجاب:

ـ تعني قطاً أبيض ضخم الجثة؟ آه فهمت!!

وأشار بيده نحو شارع العابد.

حين وصل ناصر إلى شارع العابد، كان لديه متسع من الوقت، ليتأمل رجلاً عجوزاً يتكئ على قبضة مظلته، وهو يحول دون أن تصطدم عجلات السيارات العابرة بجثة ألكسندر، مانحاً الجثة شيئاً من الاحترام الضروري الذي لا بدَّ أن يصاحب الموتى في رحلتهم الأخيرة.

انحنى ناصر وقد خلع قميصه، وأمسك بجثة ألكسندر وكأنه يمسك بوردة، ثم لفّ القميص حول الجثة وعاد بها إلى البانسيون.

بدا وهو يحمل الجثة واقفاً في صالة البانسيون، وكأنه قد استعاد مشاعر الموت، إذ لا أحد ينكر المشيئة الإلهية، ولكن هذه المشاعر ستلقي بثقلها فوق روح ناصر المهملة، التي ستستعيد بريقها في مواجهة المصير المحتوم، وهو المصير ذاته الذي سيواجهه هو، فقد بات على قناعة أنه لن يجد فرصة مماثلة للفرصة التي أتيحت لألكسندر، وأنه قد يواجه هذا المصير دون أن يتجرأ أي من المارين، على أن يقلب جثته، ويلفها بقميصه ويحملها، كاشفاً عن صدره العاري، وكتفيه العريضين، كما فعل هو مع ألكسندر وقد ربطته به صداقة حميمة، نادراً ما جمعت إنساناً بقط.

تطلع أنيس إلى ناصر بتأنٍّ، ومن ضمن ما كان ينوي القيام به، هو واجب التعزية الذي يمنح الموت جلالة خاصة، تتجاوز الإجلال الذي يقدمه الأحياء للأحياء، وحين تقدم نصف خطوة باتجاه ناصر، كشف عن وجه شاحب، وحدقتين متصلبتين، ثم مدّ يديه وكفيه للأعلى وكأنما يعتزم أن يتلو صلواته.

لم يطل ناصر الوقوف أمام أنيس، فقد تركه في الصالة، ومضى إلى غرفته، مغلقاً الباب خلفه، باحثاً عن القطة إيميليا، كانت إيميليا ممددة وقد طوت ذيلها، وغطت رأسها بكامله.

بعد دخول أنيس الصالة بثوانٍ معدودات، ظهرت مريم، وما كادت أن تتلفظ بالسؤال: ما الذي حلَّ بك؟ حتى أدار أنيس ظهره متجهاً إلى الغرفة يغالب ساقيه البائسين.

ـ إذا ما صادفت حالاً مماثلة.. انتبهي إلى السيارات وأنت تقطعين الطريق!

قال ناصر لقطته وقد لوت ذنبها وهي تتمدد فوق ملاءة سريره، ثم رفع الغطاء عن رأسها، متنبهاً إلى أن عينيها تخلوان تماماً من مشاعر الحب، أو الخوف، وعند ذلك بدّل من نبرة صوته ليقول لها:

ـ أنا ذاهب لدفن ألكسندر!

ثم تابع يرجوها، أن بإمكانها أن تغادر المكان إذا ما شاءت ذلك، وأن بوسعها البحث عن مصير آخر.

ساعة الرقبة، وسلسلتها الفضية المدلاة في يد أنيس، كما الخاتم الذي لمع حجره الكريم وهو يقلّبه تحت ضوء القنديل، كانا يمثّلان ما تبقى من ثروة أنيس، وكان عازماً في هذه اللحظة أن يبدد ما يملك، وعلى وجه أكثر دقة، أن يورّث ما يملك، فقد حطت لحظة الموت هذه فوق جناحيه، وكأنما أعادته إلى ترجماته الأولى، مستحضراً الانتحار الروحي في البداية والجسدي فيما بعد، لنموذجه الأكثر حضوراً وكثافة في هذه اللحظة، والمقصود بنموذجه هنا: ستاندال، الذي لم تفسده الفلسفة، والذي أطلق أجمل نكتة إلحادية: «إن العذر الوحيد لله، هو كونه غير موجود!».

ـ16ـ

حاولت ريتا التماس الأعذار لنفسها، ولكنها لم تكن بقادرة على تجاهل رسالة فرج الهاتفية، فقد أدركت ودون سابق معرفة، أن فرج العلي فياض كان يعشقها، وإلا فما معنى أن تحيك أمه شالاً لكتفيها؟

كانت رائحة منظفات بلاط المشفى النفّاذة تجرح أنفاسها، وهي تعيد قراءة رسالته، في محاولة للخروج من كمين نصبته لها الذاكرة المشوّشة، ثم تستدرج التفاصيل الصغيرة التي لا تعني شيئاً إذا ما تُركت على حالها، ثم تعيد ترتيب ما جمعت، وفي كل صورة من منتجات الذاكرة، كان ظهور فرج يعني وجهاً أكثر ألماً من وجهي جلال ورضا، وكانت تعتقد بالكثير من النزاهة، أن مبعث ألمه هو عجزه الجزئي عن النطق، وتلعثمه في الكلام، وهو ما سيقود فرج العلي فياض على الدوام إلى تفضيل الصمت على البوح بما يخبئ من عواطف، وما استرعى انتباهها، أن فرج، طالما أودع قصاصات أوراق صغيرة، فوق طاولات مقاهي الشباب التي ارتادوها قبل وقوع الاضطرابات في البلاد، وكان يزيح أوراقه لتكون على مرمى نظراتها.

للمرة الثانية، تصل رسالة هاتفية على هاتفها النقّال، ومن المصدر ذاته: faf، وكانت شاشة الهاتف فارغة من أية كلمة، الأمر الذي زاد من إقلاقها، وكانت على يقين من أنها لو كانت تعرف مكانه، لذهبت

إليه سيراً قاطعة طرقات موحلة في هذه المدينة المتواضعة، ولكن جهلها بمكانه، كما غموض مصير أمها، حالا دون أن تفعل ذلك، وسيضاف إلى السببين السابقين، أن أنفاس الدكتور فريد ضاقت، وأن شفتيه ازرقتا كما شفاه الموتى، ولولا ماء الكولونيا الذي تنشقه، لكان قد أصيب بالغيبوبة حتماً.

بكثافة، وبشيء من الورع، ارتقى الدكتور فريد إلى صلواته، ولم يكن ليخطر على بال أي من الممرضات اللواتي يعبرن ممر الطبقة الأولى من مشفى الشامي، أن فريد المسلم، متحوّل دينياً، وأن ما يفعله في هذه اللحظة، أنه يتلو صلواته، صلوات غامضة، ليس من السهل التعرف على أساس لها.

ولم تكن ريتا، التي نأت بنفسها عن استطلاع حياة والدتها، أن تتنبه إلى أن الدكتور فريد لا يشرب المشروبات الغازية، كما لا يشرب القهوة، وكذلك اعتبرت أن الخواتم الخشبية التي التفت حول أصابعه، لم تزد عن كونها واحدة من تعبيرات المثليين الجنسيين الذين يعيرون انتباهاً خاصاً لأجسادهم، ربما أكثر من الأحاديين الجنسيين الذين يتوهمون امتلاءً جسدياً، ما يجعلهم أكثر تصالحاً مع الجسد، وفي النهاية، لن يجدوا سبباً لإرضاء جسد تصالحوا معه مسبقاً.

ـ لا بدَّ أن ينقذها!

قال فريد لريتا، مفترضاً أنها ستعرف على من تعود الـ (ها)، وكان يقصد أن يقول: لا بدَّ أن ينقذ الله انتصار!

غير أن الجلبة التي حدثت في المشفى، منعته من الإجابة عن سؤال ريتا، سؤالها المتصل بالدين الذي اختاره الدكتور لنفسه.. سؤال ريتا وقد ظهر في عينيها، بدا مؤجلاً، فقد دخلت مجموعة من المسعفين، وهي تركض وراء نقالة مُدد فوقها واحد من الرجال المهمين الذين

تعرّضوا لمحاولة اغتيال، لم يكن بوسع ريتا ولا الدكتور فريد التعرف لا على نتائجها ولا على هوية الشخص المستهدف منها، لولا الشتائم الهامسة، ولاحقاً الصارخة، التي سمعاها من المرافقين الذين أحالوها إلى المجموعات المسلحة التي انتشرت على طول البلاد وعرضها حسب الرواية الرسمية الحكومية، وكان دخول مجموعة المسعفين، قد تسبب بإخلاء سرداب المشفى بكامله، ما أدى إلى أن يحضن فريد ريتا، ويسحبها إلى الخارج، وهو يتمتم، مكرراً، ولكن بصوت أقل أملاً وأكثر رجاءً من السابق:

ـ لا بدَّ أن ينقذها!

مدد فريد يديه على جانبيه مسترخياً، وحين تلألأت النجوم المرجانية أمام عينيه، وكان المطر قد توقف وتحولت السماء إلى سماء صافية، أخذ يقول لنفسه:

ـ أعرفه.. أعرفه. ثم التفت إلى ريتا ليقول لها: لقد نجوت من مصاعب كبرى، ولا بدَّ أن ينجيني!

الساعة التاسعة والنصف مساءً، كانت أحجار ساعته ومؤشرها تلمع، وكان الوقت قد طال على انتصار وهي في العناية الفائقة دون أية معلومة ولو صغيرة، تشي بما آل إليه حالها، ولكن جميع المؤشرات كانت تدلل على جلطة دماغية، ما يعني أن الاحتمالات التي ستواجهها محدودة إما بالموت، أو الشلل أو السبات الذي يمتد إلى سنين طويلة.

حين وصل قدري إلى المشفى متسائلاً عن مصير زوجته، ارتد باحثاً عن ريتا، وحين وصل ألقى نظرة سريعة على الدكتور فريد، ثم وبالنظرات غير المبالية ذاتها، التفت إلى ريتا ليقول لها:

ـ اذهبي إلى البيت.. لا داعي لبقائك هنا.. الأطباء أكثر خبرة منا بما عليهم فعله.

في هذا الوقت، التفتت ريتا إلى مدخل المشفى، حيث خرجت سيدة محاطة بأولادها، وهي تنشج بدموع حارة وصوت مفجوع، وكانت قد أُبلغت بوفاة زوجها.

- يوه.. قال قدري متذمراً من المرأة، وتابع: اسمعا..

ثم توجه إلى فريد ليقول له: خذ ريتا إلى البيت.. سأمكث أنا في المشفى.

كمن تحمل أثقالاً وتغرق في قاع بحر، جرجرت ريتا قامتها متكئة على ذراع الدكتور فريد، وكانت وهي تداري أن لا تصطدم بالأرصفة في طريقها إلى سيارة العائلة، قد مدت يدها لتناول الدكتور فريد مفتاح السيارة إلى حيث سيقود بها.

- لن نذهب إلى البيت. قالت ريتا.

- إلى أين سنذهب؟!

- إلى حيث...

ثم صمتت، وكأنها تستدرج ذاكرة ضائعة، ودون أدنى قصد منها قالت: إلى ألغورا كافيه.

اختارت ريتا ألغورا، وكانت عازمة بداية أن تقول لفريد: «إلى بانسيون مريم»، غير أن محاكمة عاجلة جعلتها تبدل اختياراتها.

رحب نادل مقهى ألغورا بضيفيه، تماماً كما يليق بنادل لواحد من مقاهي النجوم الخمسة، وكان تلفاز المقهى، يبث أغنية لسيلين ديون.. كانت نظرات النادل خالية من أي معنى، تماماً كعيني حشرة، وحين وضع كاسات الماء التي أخذت شكل وحجم كرات البايسبول، وابتعد بقامته الفارعة بعد أن حجب الرؤية عنها، كان واحداً من نجوم التمثيل في العاصمة يجلس إلى طاولة مقابلة.

بدا الممثل النجم، وكأنه قد خُطف تواً من مقبرة، بدت تجاعيد

وجهه ولونه الداكن والازرقاق المحيط بعينيه، وكأنها إشارات عن إجهاد مزمن قد أصاب روح الممثل الثمل، الذي كرع زجاجة البيرة الخامسة دون استخدام الكؤوس المخصصة لها.

نهض متجهاً إلى ريتا، ودون أي استئذان جلس إلى الطاولة، وقال لها: انظري.. وأشار إلى الشاشة، ثم تابع:

ـ لا أعرف على وجه الدقة ما وجه الشبه بينك وبينها!

ثم أفرد منديلاً ورقياً كتب فوقه:

«عيناك وتر كمان.. يعزف لي وأنا لا أعرف الرقص.. في السر أرقص لك.. لك وحدك!».

قرأ الممثل النجم ما علق على المنديل الورقي، ثم أضاف:

ـ الحياة رواق عندما يكون فيها بنات بمثل جمالك!

لم تطلب ريتا، ولا لمرة في حياتها أن يغازلها أحد، وكانت المعاكسات التي تواجهها في تجولها في الشوارع، لا تعني بالنسبة إليها ما يزيد عن كونها تعبيرات طيبة من بشر بوسعها الوقوف معهم، ثم تقديم الشكر لهم، غير أن التفاتة النادل، وقد تقدّم من الطاولة معيناً الممثل النجم على النهوض، ومن ثم أخذه إلى الخارج، والعودة إلى ريتا ليعتذر بالنيابة عن الممثل، جعل ريتا تتساءل عن الخطأ الذي ارتكبه الممثل النجم، والذي يستدعي اعتذاره.

ـ لم يحدث أي خطأ! قالت ريتا، مختصرة الطريق على حوار مع النادل، ثم بكت.

كادت دموعها أن تخنقها، وكادت تتلمس مليارات السنين الفائتة من عمر البشرية، حيث للإنسان أم.. قالت ذلك لفريد، بلغة توحي وكأنها قد عثرت لأول مرة في حياتها على علامة من علامات الزمن.

ـ هل ستموت؟ تساءلت ريتا باكية.

ـ سيتدخل.. قلت لك سيتدخل! أجابها فريد.

ـ لا أتخيّل أنها ستُحشر في قبر!

بكت ريتا مطالبةً فريد بأن يقول لها:

ـ لا.. مستحيل أن تموت!! صدقيني، مستحيل أن يحصل هذا.. القبر لا يليق بها!

ـ 17 ـ

على الجانب الآخر من مزرعة كلاب نور، كانت المساحات الجرداء قد امتدت إلى ما اعتقد ناصر بأنه ما لا نهاية، وحين أتم ناصر دفن قطه، ركب سيارته الشاحنة، وسط هدير محركها الضاج، عائداً إلى المزرعة ليلاً على غير عادته، قاطعاً مسافة طويلة وسط ليل يبدو لا نهائياً أيضاً، ليل لم يحل دون لا نهائيته سوى امتداد صوامع الحبوب الممتدة شاقولياً، التي بدت وكأنها أشباح في هذا الليل المضاء بنجوم متناثرة، ثم اقترب ناصر متجاوزاً سكة الحديد، التي تحمل قطار حلب ـ دمشق، وقد تبدّت أضواؤه من مسافة بعيدة، وهو يتدحرج متقدماً صوبه قاطعاً هذه الأراضي المقفرة.

ما بدا زفرة واحدة، تحول عبر الطريق من سكة القطار إلى بوابة المزرعة، وكأنما نهاية عمر بكامله، وحين دخل مزرعة كلاب نور، بدت المزرعة أكثر ظلاماً وتحريماً، كانت ممراتها الدغلية بين أقفاص الكلاب، وقد علق على حذائه دبق أرضيتها، كانت ممرات أكثر خطورة مما يمكن لأي من البشر الناجين توقعه، وكان حارس المزرعة السوداني قد أشار إليه منبّهاً، وقد نهض على هدير محرك سيارة ناصر:

ـ لا تفتح أياً من الأقفاص.. وصلتنا الليلة كلاب شرسة!

مع أنه قد مضى على وجوده خمسة أعوام يعمل في مزرعة نور،

وحراسة بوابتها وكلابها، وكان يعيش مع غلامه في المزرعة، مع ذلك لم يكن العامل السوداني قد صادف أن رأى نوع الكلاب الستة التي وصلت ظهيرة اليوم محمولة بقفصين ضخمين، فُتحا بعد أن زج الكلاب الستة في الأقفاص المملوكة للمزرعة.

كانت الكلاب الستة وكأنها كلب واحد، وكأنها توائم ستة منسوخة واحدها عن الآخر، كلاب مستفزة، بلا أذناب تقريباً، وبرؤوس بالغة الضخامة، وبجلد أسود يلمع كما لو كان مدهوناً بالزيوت، وكان ارتطامها بسقوف الأقفاص التي وُضعت فيها، والضجيج الذي يحدثه هذا الارتطام، وهي تقفز ضاربة برؤوسها السقوف المصنوعة من ألواح التوتياء، قد نشر في أرجاء المزرعة جواً من التوتر انتقل إلى بقية الأقفاص، وبضمنها أقفاص الكلاب المنزلية التي تعيش ما بين أفخاذ مالكيها، وكانت الكلاب الستة تنبح بصوت جهمني واحد، ثم تهمهم بأصوات بعثت في الحارس السوداني مخاوف موت لم تكن قد صادفته فيما سبق، وقد حضن جسده متكوراً إلى جانب غلامه، مقفلاً باب غرفته.

حين فتح باب المزرعة ودخلت سيارة ناصر، استفاقت الكلاب الستة من صمتها، وعادت مجدداً إلى الارتطام بسقوف أقفاصها، وصحت الكلاب الأخرى من همودها مجددة نباحها. ترجّل ناصر من سيارته متجهاً إلى عامل المزرعة السوداني، وبعد أن أغلق البوابة قال له العامل السوداني:

ـ معلم ناصر.. هذه ليست كلاباً.. هذه شياطين.. في مزرعتنا ستة شياطين!

وسط إضاءات المزرعة الشحيحة، واهتداء بقنديل اليد المحمول، تسللت نظرات عامل المزرعة السوداني ذي الثمانين عاماً إلى وجه ناصر، ثم قال له:

ـ معلم ناصر، توضأت وصليت الليلة خمسين صلاة، أنا خائف على روحي منها!

لم يكن ناصر قادراً على أن يجيب على أي من مخاوف العامل السوداني، كان ذابلاً مثل عود نعناع مسلوق بالماء المغلي، كان قلبه مهزوماً، ولم يكن ليتساءل عن حقيقة ما بعد الموت، أو عن لحظة إزهاق الروح وتسليمها، وكل ما فعله أن تساءل إن كانت هذه الشياطين الستة بقرون فوق رؤوسها، أم إن كانت حاسرة الرأس خالية من تلك القرون.

لم يعتد أنيس، على أن يتأخر ناصر عن سريره، وكان رعد الأسمر قد دخل الصالة وعاد لأكثر من مرة، وقد انتقلت عدوى قلق أنيس إليه متسللة عبر الصالة نحو زجاج غرفته، وكانت مريم تذهب إلى مكان آخر، إلى حيث دفع رضا الكرسي المتنقل وهو يقول لها:

ـ مريم، تعالي نرمي بهذا الكرسي إلى الشارع.. لن يكون من بيننا من يحتاج لها.

ومن بعدها، تساءل بروح عذبة:

ـ ما هو السر في أن يكون اسم هذه الغرفة ماشاالله؟!... من هي ماشاالله هذه؟!

استقبلت مريم أسئلة رضا بابتسامة مزيفة، واكتشفت على نحو مفاجئ أنها بحاجة هي الأخرى للإجابة عن سؤال رضا، وكان سؤالاً منسياً، طوته سنوات من عمر مريم، سنوات كانت فيها أكثر شبهاً بريتا، الطول ذاته تقريباً، والعينان الناعستان وبريق سوادهما هو ذاته تقريباً، والاستكانة الطيبة للملاحظات العابرة هي الاستكانة ذاتها، والبيانو هو البيانو ذاته الذي عزفت عليه ريتا وشعرها يموج

فوق أصابعه، فيما تضع ماشالله قدحاً من النبيذ الأحمر على حافته لتصفق لابنتها:

ـ برافو مريم... برافو! ستعزفين في الكنيسة أجمل المقاطع، وسأضيء لك الشموع.

ـ لم يكن هذا المكان بانسيوناً، كان بيت العائلة، نعم هو بيت العائلة، أو هكذا كان...

قالت مريم لرضا، ثم صمتت، وحين ألح عليها أن تتابع، أجابته:

ـ رضا.. لا تضيّع وقتي!

ـ الوقت؟!

تساءل رضا مستهجناً، ثم تأمل مريم دون أن ينبس بأية كلمة، غير أنه كان على يقين أن الوقت في هذا البانسيون، ليس أكثر من الوقت الذي يمر على صفيحة ليكوّم فوقها الصدأ.

بدا رضا وكأنه حكيم عجوز يتساءل، ولم يغيّر وجهه الطفولي المضاء من هذه الحقيقة، كان عازماً على تتبع حكاية ماشالله، وكان يدرك أن الوقت بالنسبة إليه في هذه اللحظة، هو رفع الغطاء عن سر ماشالله، عن القوارير الزجاجية الممتلئة بالغبار التي تعلو سطح خزانة الغرفة، عن عيني المرأة المحدقتين في وجهه عبر الصورة المهورة بتوقيع كارابيت، وعبر الأقفال المعدنية المتأرجحة على باب الغرفة، استجابة لخروج مريم النزق من الغرفة، وقد خبطت الباب خلفها.

حين وصلت إلى الصالة، سألها أنيس، برجاء وتلعثم:

ـ ناصر لم يعد... شو؟!

تابعت مريم السير إلى غرفتها دون أن تجيب عن سؤاله، وكان رعد الأسمر، قد اقترب من أنيس ليهمس له:

ـ أنا خائف!

هنا بدأ صبر أنيس ينفد، فقد كان قلقاً من أن يعطي لرعد الفرصة في إطلاق ثرثراته التي تتجول في بغداد، بين البيوت المدمرة، والبشر الراحلين التائهين، المتوقفين على أبواب السفارات طلباً للهجرة، كان متخوفاً من أن يبدأ رعد حكاياته التي تطول الحرب، وتتوقف عند جسر بغداد، حيث تكررت لقطة الدبابة التي تتحرك ببطء وهدوء وأمان فوق ذاك الجسر، وسط ليل تضيئه قناديل حمراء، تظلل المدينة بالصمت والخوف والموت.

قال له رعد الأسمر، وكان يحمل رقعة من الرقع التي يصممها لمصانع الملابس في سوريا، إن الكثير من المعامل توقفت، وأنه يصنع هذه القطع لأنه اعتاد أن يبتكرها، وأن:

ـ سوريا تتجه إلى الحرب الأهلية..

ثم أضاف:

ـ كما أن الخطف بات وارداً.. أي والله، يا عم أنيس!! ما تعرف مين يخطف مين.. ألم تسمع بأعمال القتل التي تحصل؟! خمسة آلاف رجل ضحايا اليوم!

لم تكن شكوك أنيس في مصداقية رعد الأسمر لتحول دون أن يرتجف، فقد كان رعد الأسمر دائم المبالغات، خصوصاً فيما يتصل بالأرقام، فالمئة بالنسبة له، لا تعدو أن تصبح عشرة آلاف أو مئة ألف، لا لشيء، سوى لأن الأرقام متشابهة، كما أنها لم تكن لتعني شيئاً جوهرياً أمام الموت، وحين كان رعد الأسمر يعيد مؤكداً أن ضحايا الحرب في بغداد قد بلغت سبعة ملايين قتيل، وأن ضحايا الحرب بمجملها قد جاوزت العشرين مليون قتيلاً، لم يكن يقصد أن يكذب.. كل ما في الأمر، أن الأرقام بالنسبة إليه هي مجرد إيقاعات صوتية، وكانت الحسابات ترهقه.

تردد أنيس في الخروج إلى الشرفة ليتطلع إن كان ناصر قد عاد، وقال حاسماً تردده:

ـ سأذهب إلى النوم!

ثم مضى مصوّباً أقدامه إلى غرفته دون أن ينسى أن يلقي نظرة باتجاه زجاج غرفة مريم.

عثرت مريم، وهي تفتح خزانتها، على قبعة تعود لأمها ماشاالله، قبعة صغيرة مزدانة بريشة طويلة، وقفازين أبيضين يصلان حتى الكوع، وحين ارتدت قبعة أمها وقفازيها، وتوقفت أمام مرآتها، ابتسمت ملوّحة لنفسها وكأنما بدت مسافرة، وبعد أن تثبتت من كونها تشبه ماشاالله، أعادت التنقيب في خزانتها باحثة عن حقيبة اليد التي تناسب القبعة، وتتماشى مع الفستان العاري الكمّين، المهور بوردات البيلّادونا الصفراء المتناثرة فوق قماشته.

ـ البيلّادونا.. نعم إنها البيلّادونا!

قالت مريم لنفسها، عازمة على استعادة أسرار تلك الوردة القاتلة، وحين قرع رضا باب غرفتها، أطلت مريم بكامل ملابسها الجديدة، ظهرت بكامل ملابس السهرة: القبعة والفستان والقفازين الأبيضين، ولم تكن قد اختارت كندرة، ثم قالت لرضا:

ـ بيلّادونا.. ما الذي تعرفه عنها؟!

لم يكن يعرف أن البيلّادونا، هي الزهرة ذاتها المنتشرة في شرفات العاصمة، وأن اسمها باللغة العربية «ستّ الحسن»، ولم يكن ليتوقع أن يكون لهذه النبتة ما يمكن أن يشكّل سبباً لأية حكاية لا يمكن أن تمحى.

خرجت مريم من غرفتها لتضيء كامل زوايا الصالة.. القناديل الجانبية.. قناديل السقف، والثريا التي رُسمت حباتها بدقة عبقرية.

أعاد أنيس حك أسنانه بأصابعه وكان يشعر بألم فظيع في لثته، واتجه إلى الصالة محيطاً عينيه براحتيه، فقد بدا الضوء مبهراً، وما زالت نوبات الألم العصبي تنتاب وجهه، وبعد أن رفع راحتيه ونظر إلى مريم، بدا مأخوذاً وهو يبحث عن الوقت الكافي ليستوعب ما تغيّر فيها.

في قرارته، امتنع أنيس عن مقارنة مريم هذه، بمريم التي يعرفها، وكان عازماً أن تكون مريم الجديدة، هي ذاتها مريم القديمة التي لا تُمس، ولكن عزمه اصطدم بحقيقة النظرات الشغوفة التي تنبعث من عينيها وهي تتطلع إلى رضا.. نظرات متوسلة، تضيع في رجاءات مخدرة، كما لو أنها تبحث عن ملجأ.

ربما لم يسبق لأنيس أن تمنى أن تذهب السيدة للنوم في غرفة السيدة، ولكنه وقد بات هزيلاً، انكمش في مقعده مكتفياً بالفرجة، سألت مريم وهي تتجه إلى رضا:

ـ أين ريتا؟

ـ لماذا؟! أجابها رضا.

ـ أرغب في أن أستمع إلى عزفها!

ـ اعزفي أنت..

قال رضا، ثم تقدّم من مريم ممسكاً بأصابعها، وأضاف: العزف كما السباحة لا يُنسى.. ثم فرك راحة يدها بين راحتي يده مؤكداً: هذه فركات للتحمية!

في هذا الوقت، ازدحمت ألغورا كافيه بزبائنها: فنانين يلعبون ورق الشدة، فضوليين يستهلكون مدخراتهم النقدية، عاهرات يرتدين أفضل الملابس وآخر صيحات الموضة، ويرفعن أصابعهن ملوحات لزبائن متطلبين بما يشير أن: الليلة بألف دولار!

ليلة، نعم، ولكن مع إضافات تجعل الليلة الواحدة تساوي عمراً

بكامله، ليلة يختلط فيها عسل النحل بالشمبانيا، بالأرداف المهتزة التي تتراقص على إيقاعات طبول ضاربة في التوحش، باستحمامات تفرك كروشاً وأجساداً متهدلة، بصرخات ليل يتبعثر فوق أسرّة معطرة بنشوات غادرت وأخرى انبطحت محلها.

بدت دمشق، في الطريق من ألغورا إلى حي المالكي، مدينة مهجورة، وكانت سراديب مشفى الشامي ما تزال على حالها، مع تغيُّرات طفيفة تفضحها أعين الممرضات اللواتي يأخذن غفوات متقطعة.

ـ شلل نصفي.

كانت هذه هي النتيجة المتوقعة، وقد باتت الخلاصة المؤكدة، وبينما كان الطبيب العجوز يواسي ريتا قائلاً: «الكثير من حالات الشلل النصفي عولجت وعاد مريضها إلى عافيته»، كانت ريتا، تعيد في خيالها تأثيث منزل العائلة.. ستغيّر موضع المقعد لتضع مكانه الكرسي النقّال حيث لا بدَّ لوالدتها من أن تطل على المدينة من شرفتها، ستبحث عن مائدة طعام يناسب ارتفاعها قوائم الكرسي النقّال الذي سيصبح مقعد الوالدة، وستختار لركبتي أمها منديلاً واسعاً من البروكار الدمشقي، وأضافت وعداً قطعته على نفسها: سأشذب أظافرها كل يوم، وسأحممها بماء الورد، وسأعقد شعرها ضفائر مع كل فجر! واسترخت فوق كتف فريد، فيما دموعه تهطل.

ـ تعالي نذهب إلى البيت!.. غداً ننقلها من المشفى. قال لها فريد.

كان قدري عازماً على مغادرة العاصمة، وكعادته لم يكن ليبلّغ عائلته وجهته، وكانت حقائبه قد تبعثرت على مدخل بيت العائلة، وحين وقف أمام ريتا قال لها:

ـ لا تخافي، أمك بسبع أرواح كما القطط!

غار بؤبؤا عيني الدكتور فريد، وهو يستمع إلى ما يقوله السيد،

لقد كانت نظراته خالية من أية انفعالات، ولكنه أغمض عينيه وأعاد فتحهما محدّقاً بريتا ليقول لها:

ـ تعالي نعدّ المكان لاستقبال أمك!

ـ لا يوجد الآن ما هو أكثر ضرورة من شراء كرسي متحرك.

قالت ذلك، وكانت ذاكرتها في هذه اللحظة قد توقفت في بانسيون مريم، في غرفة ماشاالله، أمام الكرسي المتحرك بمقبضيه المفضضين وجلده اللمّاع الأسود، وكانت رسالة جلال الهاتفية قد وصلتها، تماماً كما وصلت إلى الكثير من أصدقائه المنضوين تحت لواء الاحتجاجات الشبابية: استشهد فرج العلي فياض على مدخل حي الخالدية.

ـ 18 ـ

بوضوح يكتنفه شيء من الخيال، رأت سوسن آلافاً من فراشات الليل الصفراء تحوم حول ضوء غرفتها، وكانت تعلم أن فصل الشتاء يعني فيما يعنيه، اندثار هذا النوع من الحشرات الطائرة، وما إن فتحت باب شقتها، حتى أطل جلال وبلاط الغرفة الرجراج يهتز تحت قدميه، ودون أن تسأله، انعطفت نحو المطبخ وقد أوقدت تحت إبريق الشاي لتعود إليه ثانية.

ـ ما به؟ سألت سوسن.

كان بيت سوسن القابل للانقباض، تحوّل إلى مكان أكثر قتامة مما هو في حقيقته، مكان بدا كما لو أنه يساوي ما بين الاحتقار والإعجاب، ولم تكن رائحة العفونة المنبعثة من السجادة سوى تحصيل حاصل، فيما كان واضحاً بأن صورة تشي غيفارا المعلقة فوق سجادة جدارية صغيرة، وعلى مسافة منها ملصق لمسرحية أطل منه وجه سوسن، صورة مهملة، مجرد صورة لبطل الكاريبي وقد علّقت لتُنسى، وعزّز الإحساس بضيق المكان، الوسخُ المتراكم من أعقاب السجائر المنثورة بعبث ظاهر فوق سجادة الأرضية والفراغات التي يظهر منها بلاط الغرفة.

حين عادت سوسن، حاملة كاسات الشاي بيد، والإبريق بيدها الأخرى، كررت سؤالها: ما به؟!

ـ من؟

ـ فرج العلي فياض؟

مثل حراشف السمك، توارى جلال حول جسده، ثم وقف متجهاً إلى الحائط، مصحّحاً صورة تشي غيفارا من اعوجاجها.. ثم التفت نحوها وقال:

ـ قُتِل!

تابعت سوسن سكب الشاي في الكاسات المزنّرة بخط ذهبي متآكل، ثم التفتت إليه قائلة، وكأنها لم تتلقَ خبراً:

ـ كنت أتوقع.

اتجهت سوسن إلى روزنامة الحائط، وكان تاريخها يعود إلى أكثر من أسبوع مضى، ثم التفتت إلى جلال لتسأله:

ـ ما هو تاريخ اليوم؟

أجابها: 2012/1/21، صحّحت سوسن تاريخ الروزنامة، ثم عادت لتجلس ملتصقة به، ثم ابتعدت قليلاً لتحيط ركبتيها ببطانية، متحاشية البرد الذي تسلل إلى جسدها.

ـ هل عرفتم أين؟

ـ نعم.. على مدخل الخالدية.

كانت نشرات الأخبار قد برهنت بكثير من صور الهواتف النقّالة، عن وقوع مجازر وتصفيات في العديد من المدن السورية وأريافها، وكانت التصريحات الحكومية المقتضبة، تشير إلى اعتماد الخيار العسكري في وجه التظاهرات، باعتباره الخيار النهائي، مشيرة إلى أن المتظاهرين اتخذوا طريق العنف، وأن مجموعات من عناصر تنظيم القاعدة قد تسللوا من المناطق الحدودية، ووصلوا إلى المناطق المشتعلة، وبات واضحاً أن تكرار استخدام مصطلح التطهير، يشير إلى أن ثمة

حملات عسكرية ستكون متتابعة، وزاد من الأمر وضوحاً الهجرات الجماعية نحو العاصمة، وكان القادمون يحملون أنباء متضاربة.

ـ ورضا؟ سألت سوسن.

ـ لا أظن أن مكروهاً أصابه.. ما يزال عند مريم.

ـ وأنت؟

ـ لا بأس.. فليكن ما يكن!

في طريقها إلى مقبرة الدحداح بعد ظهيرة اليوم، وصلت سوسن دون أن تحمل ورداً في يدها كما اعتادت، غير أنها تجولت بين أنقاض القبور، وهي تقرأ فوق رخامها الرسائل المنقوشة، التي تثبت هوية الموتى.

لم تكن وقد عثرت على حقيقة التماثل ما بين الرسالة والأخرى، التي تجمعها الفاتحة وطلب الرحمة، لتظن بأن ما سيُكتب على شاهدة قبر فرج العلي فياض ليستقيم إذا ما كان متشابهاً مع تلك الرسائل، ولم تكن لتظن أيضاً بأن الرسالة التي سيحملها إلى الآخرة متشابهة مع رسائل الموتى الذين ما زالوا مكشوفين على العراء ولم يُدفنوا، كانت تتصور أن ثمة من سيحتاط للموقف ويعلّق فوق قبر فرج العلي فياض دمية بذراع مقطوع وخف وردي.

بمشقة، وبما يشبه الاختناق، قالت لجلال:

ـ حاول أن تتخفى.

ـ وأنتِ؟!

ـ أوه.. أنا؟ إذا لم يقتلوني هم، سيقتلني الملل.. أعرف قَدَري.

لم تعد سوسن في هذه اللحظات، بل منذ زمن تجاوز سنوات ليست بالقليلة مقارنة بعمرها وقد بلغت الثلاثين عاماً أو أكثر بقليل، لم تعد البنت الهجومية المحاربة، كما لم تعد بنتاً حالمة، ولعلها أيضاً لم تكن

بنتاً عاقلة، وكانت حتى وإن بدت بنتاً تطلق الكثير من المواقف التي يظن سامعها بأن من يطلقها كائن معني بالشأن العام، على شاكلة تكرارها لشعار (المسرح الملتزم)، أو تلك العبارات التي قالتها لريتا في طريقهما بين أزقة الحجر الأسود، كانت وإن بدت كذلك، فإنما تتعمد ذلك استبعاداً للحوارات السئمة التي ينفقها المثقفون بمهارة، أعلى شأناً بما لا يقاس من مهاراتهم في إنتاج الثقافة والمعرفة، مهارات يثابرون على شحذها، إمعاناً في ترتيب مواعيد جنس مجاني يمارسونه مع بنات يتلمسن الثقافة والإنتاج المعرفي.

كانت في سريرة نفسها تعرف أنها ليست البنت المرغوبة، ولا المثيرة، ومع ذلك فلطالما تلقت عروضاً جنسية من مثقفين يطلقون عبارات هي أقرب إلى الشعر، ويرفقون ضحكاتهم بمفردات جنسية صريحة، وينطقون بعُقَدهم من عمق قاع مخيف من الحرمان الجنسي.

التفتت سوسن إلى جلال قائلة:

ـ جلال.. أرغب في أن أطلب منك طلباً!

ـ ماذا؟ أجاب جلال.

ـ أرغب في أن تنام معي!

ساعتين أو ثلاثاً، وجلال مستسلم لمصيره، بدا وقتاً بالغ الطول، فالقصف الذي استُخدمت فيه الأسلحة الثقيلة، أحاط بمجموعة من بلدات العاصمة، فقد اقتحمت قوات الجيش هذه البلدات بحثاً عن منشقين من الجيش لجؤوا إليها، وبحثاً عن مجموعات مسلحة دخلت في معارك طاحنة مع السلطة.

كان دوي الأصوات يهز الأبنية المحيطة بساحة العباسيين، ومنطقة النافعة، ومناطق عديدة من العاصمة، ولم يكن بوسع جلال مغادرة شقة سوسن.

كان بنطلونه يضغط عليه من جهة الركبة، وكان ينام إلى جانب سوسن بكامل ملابسه، كان راغباً في تغيير وضعه والتمدد على ظهره، غير أن السرير المخصص لنائم منفرد، لا بدَّ أنه أرغم جلال على أن ينام مستلقياً على جانبه، وذراعه يحيط جسد سوسن فيما ذراعه الأخرى تسند رأسها، بدا متيقناً أن رغبته منطفئة، على العكس من اتقاد سوسن التي طلبت من جلال إعادة ممارسة الجنس للمرة الثانية.

لم تنقضِ خمس دقائق حتى اعتدل جالساً، ليسأل سوسن:

ـ سوسن أنت تحبينني؟!

دون اكتراث أجابت:

ـ بمعنى رجل وامرأة؟

ـ أكيد!

ـ لا!

صحّح جلسته، ثم نهض واقفاً، ليلتقط جوربيه، ويبدأ بارتدائها، وكان ضوءٌ يتسلل من المطبخ يكشف عري أكتاف سوسن وجزءاً من وجهها.

ـ إذن؟ تساءل جلال.

ـ إذن نمت معك.. هل شعرت بالإهانة؟!

ـ بالطبع!

اعتدلت سوسن لتجلس تاركةً ساقيها ممددتين تحت البطانية الرطبة، ثم مدّت ذراعها لتكشف عن كامل ثدييها وجذعها وتناولت من علبة سجائرها واحدة وأضرمتها. كان دخان السيجارة يبعث في جلال غثياناً مضاعفاً، وكان بحاجة لأن يعصر بلعومه بسبابته ويتقيأ، فقد حفر البرد فيه حفرة بالغة الثقل، وكان مرهقاً من مجرد حتى استيعاب صدمة إجابتها.

ـ أشعل الضوء! قالت سوسن.

حين وصل إلى القاطع وأنار الغرفة، نظر إلى سوسن ليجد جرحاً قديماً أسفل رقبتها وقد خُيِّط على عجل، وكما لو أنه يلاعب نفسه ريثما يحين وقت الفجر ليغادر، سألها متلمساً جرحها:

ـ ما هذا؟!

ـ الآن؟!

تساءلت سوسن ثم أطلقت ضحكة متقطعة، ولكنها لم تكن قادرة على التوقف عن الضحك وهي تنهض عارية متجهة إلى الحمّام لتغسل نفسها.

حين قرفصت، وقد توقفت عن الضحك، قالت بصوت مرتفع، بأنها مستغربة اندهاشه من أنها لا تحبه، ثم سألته بصوت اختلط مع أصوات المياه المتدفقة من الصنبور ومن بين ساقيها:

ـ الآن لاحظت الجرح في رقبتي؟

وأضافت ساخرة:

ـ يا الله كم كنت تحبني! مع ذلك نمت معي، وما دام الأمر كذلك فها نحن متساويين، اثنان من الحيوانات يمارسان الجنس وعظامهما تطقطق من البرد، وإذا كنت سترفض تشبيهنا بالحيوانات، لا بأس، إذن عاهران يمارسان الجنس، عاهر وعاهرة، ولا أدري إذا ما كان القانون يسمح لي بإطلاق صفة عاهر على رجل، من جهة المرأة أنا متأكدة أن السجون ممتلئة بعاهرات قبيحات لم يجدن من يحمل عبئهن، ولكنني لا أظن أن سجيناً واحداً محكوم بالعهر، أقصد بالدعارة... أقصى التوصيفات القانونية في هذا المجال التي تطول الرجل هي: تسهيل الدعارة، أعني القوادة.

كانت تحكي، وهي تتجه إليه وقد انتهت من غسيل ساقيها،

واستكملت وهي تنحني باحثة عن سروالها الداخلي، وحين عثرت عليه وحاولت إدخال قدمها في فتحته وهي تتعثر، توقفت لتسأله:

ـ إذا كنت راغباً في التكرار... ثم همهمت: كي لا ألبس.

استكملت سوسن ارتداء سروالها الداخلي وهي تقول له:

ـ أكثر ما يجهدني في الحياة أمران: الأول هو ارتداء كلسوني، والثاني هو المثقف الثوري.. من طرازك، مثلاً، لا تزعل، أقول مثلاً.

رفع جلال بصره، ثم، ولفرط انفعالاته تعرّق، لقد خانته أقدامه من متابعة السير في دروب بدت معوجة، كان عاجزاً عن توجيه نفسه نحو أي الأمكنة سيمشي، ليتبقى ملاذه الأخير، هو أن يشد جسده، ويتابع سيره، وقد عثر على مقهى صغير، مقهى تلفت لافتته الكبيرة، المضاءة بألوان بنفسجية، النظر، لافتة كُتب فوقها: «مقهى الباكوات»، وحين دلف إلى المقهى، كان المقهى فارغاً تماماً، وكان نادل المقهى، العجوز البالغ السمنة، وهو مالكه على كل الأحوال، يكنس الأرضية، التي تكومت أعقاب السجائر فوق بلاطها.

تساءل نادل المقهى، إن كان زبون آخر الليل هذا يطلب شيئاً، وحين توقف عن متابعة كنس الأرضية سأل:

ـ أهلاً يا أخ، هل من خدمة أقدمها لك؟!

ـ إذا أمكن، فقط أريد أن أجلس.. أن أستريح قليلاً.

رفع نادل المقهى كرسياً ملقى فوق طاولة، ثم أشار لجلال بيده أن يجلس.

فوق الطاولة ثمة أكوام من أوراق لعب الشدة، لاحظ جلال ذلك، وقبل أن يقلّب ورقة الآس في يده، استغرق لثوانٍ معدودات في الصيغة الرياضية المعقدة التي صُمم عليها هذا النوع من التسلية، وقبل أن

يستكمل ولو إجابة واحدة، كان النادل يتقدم نحوه، وبيده كاستا شاي، ليجلس إلى جانب جلال مؤكداً:

ـ نحن في هذا الوقت لا نستقبل زبائن.. في هذا الوقت نكون قد شطّبنا.

نهض جلال عازماً على المغادرة، غير أن النادل العجوز الضاحك، أمسكه من ذراعه ليقول له:

ـ اجلس، أنت لست زبوناً، بدليل أنني لن آخذ منك ثمن الشاي.. اجلس يا رجل!

تأمل جلال جدران المقهى وسقفه، ودقّق ملياً في أغطية الطاولات وفي سماور الشاي، وذهب في استطلاعه البصري إلى حدود أن تأمل اللوحة الجدارية الكبيرة التي احتلت مساحة واسعة من الجدار الذي يقع خلف ظهره.

كانت لوحة لأميرة مضطجعة، وشعرها الأشقر يتبعثر فوق كتفيها، فيما كان عنقها الطويل محاطاً بعقد من الفضة، وقد تدلّت من العقد قطعة أخذت شكل النجمة ثمانية الأضلع، بنمنمات مرسومة بدقة متناهية، يتوسطها حجر أرجواني مشع مبرق، وكانت الأميرة المضطجعة المحاطة بوصيفاتها تنفث دخان النارجيلة، ولم يكن الماء الرجراج المرسوم في قعر النارجيلة، أقل إتقاناً من نجمة عنق عقد الأميرة، كما لم يكن أقل جمالاً من خلخال دقيق الصنعة أحاط بقدمها.

ـ من رسم هذه اللوحة؟ تساءل جلال.

ـ زبون عندي، أجاب النادل، ثم قال: حتى ولو أعجبتك فلن أستطيع إهداءك إياها ولا بيعها.. كما ترى إنها مرسومة على الحائط.. خسارة، سيُهدم الحائط وتضيع اللوحة.

ـ لماذا سيُهدم؟! سأل جلال.

ـ المقهى مع معظم بيوت الحارة مستملك.

ـ مستملك؟!

ـ نعم.. مستملك للدولة.

ـ لماذا؟

ـ نحن لا نسأل الدولة لماذا، نحن نُبلّغ فنُخلي.

ـ واللوحة؟

ـ يوه.. سهلة، أعطني جداراً أعطك لوحة، ما دام صاحبنا الرسام على قيد الحياة فالمسألة سهلة.

ـ ما هي أجرته؟

ـ ولا شيء.. خسارة في لعبة الشدة.. الرجل يخسر على الدوام، مع ذلك لا يتوقف عن اللعب والمقامرة.

ومدَّ رقبته هامساً: القمار. ثم استعاد نبرته مصححاً وضع عنقه:

ـ كل خسارة بلوحة، لم يتبقَ واحد من زبائني إلا وصار في بيته لوحة، تعال غداً ولاعبه واكسب لوحة!

أصوات القصف، وإن كانت بعيدة، غير أنها بدت مسموعة، ولكن النادل ودون أن يُعدّل من جلسته قال:

ـ لا تلتفت إلى الخارج، دعك من كل ذلك، الجميع يأخذ البلد إلى المزبلة، هذه البلد بلا أم.. ليس لها من يبكي عليها.. الكل يعمل على تدميرها! ثم أضاف قائلاً:

ـ أعتقد أنك تلعب القمار.. ها؟

بدا سؤال النادل غريباً، وحين تطلّع إليه جلال مستنكراً، قال النادل بلغة واثقة، كأنه يعطي درساً:

ـ يا ابني القمار ليس في ورق الشدة فقط.. القمار كذلك في

السياسة وفي النساء وفي كل شيء.. أنا مثلاً أقامر وأنا أجلس معك في هذه اللحظة، من يقنعني مثلاً أنك لست قاتلاً أو لصاً؟!

قال النادل ذلك واتجه إلى الداخل ليعود بفراش إسفنج، وبطانيتين اثنتين، وألقى بهما فوق الأرضية، ثم قال لجلال:

- محسوبك ينام هنا.. هذا المقهى هو البيت، وهو القبر، وبعد قليل، بعد دقائق سأقول لك: تفضل، مع السلامة، لا تنسى أن تزورنا على الدوام!

قال ذلك، ثم نظر إلى ساعة يده، وقال وهو يغمز بعينه اليمنى:

- بعد قليل ستأتي، وسأشغّل المطحنة. ثم تابع ضاحكاً: ما زال ظهري ظهر حصان! - وأشار فاتحاً أصابعه الخمسة - وحياة عينك خمس مرات متكررة فوق هذا الفراش... تصور لو كان لدى محسوبك سرير واسع وحمام ساخن وعسل الملكة!

لم يكمل النادل، حتى دخلت امرأة لا بدَّ أنها المرأة التي تأتيه في هذا الوقت المتأخر، كان لونها قريباً من لون الحنّاء التالفة، ولا بدَّ أن ثمة احولالاً ظاهراً في عينيها البالغتي الصغر، وهي خمسينية كما بدت، غير أنها في الحقيقة لم تكن لتتجاوز الثلاثين عاماً، وما يزيد من الإحساس بإفراط الزمن، هو ارتداؤها لما يشبه الأسمال البالية، إضافة إلى العطر المنبعث منها، وهو عطر وخّاز، نثراته في الهواء تتسبب بدموع في عيون من يشمّه.

ابتسم النادل لجلال، وكأنه يدعوه إلى المغادرة، وكانت ابتسامته تنم عن إحساس جارف بانتصار الذكورة على ما سواها، وحين غادر جلال المقهى، كان صفيح الباب الخارجي ينزل بطيئاً، دون أن يحد التباطؤ في إنزاله، من الصرير الجارح الذي يطلقه في ليل شديد الصمت والأسرار والمخاوف، فيما ما تزال الانفجارات تكرر أصداءها.

حين سأله صاحب مقهى الباكوات، إن كان طالباً، هز جلال رأسه إلى الأعلى وإلى الأسفل، بحيث لم يكن من الممكن التعرف على حقيقة الإجابة أكانت نعم أم لا، وحين أحضر كأسين من الشاي، كان راغباً أن يشرب فنجان قهوة، وحين ودعه مغادراً ما بعد وصول المرأة الحولاء إلى المقهى، أودع جلال النادل السمين الشائخ، أودعه عند معشوقته، وقد ترك في رأسه ما يشير إلى أن لهذا الرجل مجداً قديماً، مجداً لا بدَّ أن العجوز صاحب العشيقة الحولاء قد دمّره بيديه.

خلال أكثر من عقدين بقليل، كان جلال يتلقى من والديه روح الاستقامة، فقد بدا، منذ كان في المرحلة الإعدادية، رجلاً، كان كذلك، وكانت دراسته للقدود الشرقية، والنوتة الموسيقية، والأسطوانات التي ملأت جدار مكتبته، وفي معظمها أسطوانات لأم كلثوم، ورياض السنباطي، وموسيقيي عصر النهضة. كل ذلك أعطاه إحساساً بأنه رجل، وما ضاعف من هذا، ارتداؤه للملابس الأنيقة، وقد دقق والداه على الدوام في أن يرتدي ابنهما ربطة عنق وبذلة وحذاء لامعاً، وأن يجلس دون اعوجاج في قامته إذا ما استقبلت العائلة ضيفاً، ولم يكن جلال قد شارك، ولو من باب الفضول شباب جيله هستريا‌هم، شباب يتمددون فوق السيارات المصطفة في منطقة الغساني، ومنطقة نورا، ثم يلعبون مستخدمين أحذيتهم لتكون بديلاً عن كرة القدم، ولتتساقط أحذيتهم فوق رؤوس المارة..

بدت أناقته، كما استقامته، فجوة في حياته، وكان وهو يثابر على إغلاق هذه الفجوة يصطدم بمن ينهب تراثه العائلي المثابر على مناقبية الطبقات الفلاحية الوسطى التي حملت مطالع الاستقلال الوطني فوق أكتافها.

كان والداه قد مكثا، بانتظار أن تجد البلاد حلاً، وكان والده قد اختصر موقفه مما يحدث بلافتة صغيرة، كتبها بماء الذهب فوق

قطعة من قماش القنّب: «إذا وقعت الفتنة، فاكسر سيفك، واصعد الى أقرب صخرة واجلس إلى أن توافيك المنية، أو تأتيك ضربة شقية!»، كان والده كما والدته، متخوفان من انجراف البلاد إلى الصيغة الليبية، أو العراقية، وكانا على دراية بأن ابنهما اتخذ طريقاً غير الطريق الذي اختاراه لنفسيهما، ما خلق شرخاً في العائلة، شرخاً لم يَحُل دون أن يستمر جلال في التواصل مع والديه ليطمئن على صحتهما.

عندما قُلّد والده وساماً، على إنجاز علمي في مجال الصيدلة، وكان هذا قبل ما يقارب الخمس عشرة سنة، ألقى خطاباً على مدرج الجامعة، كان خطاباً مُكثّفاً ومشرقاً، متوجهاً إلى الأجيال القادمة، غير أنه نسي أن يتقدم بالشكر إلى القيادة السياسية التي منحته وسامها، وكانت النتائج إبعاده عن التدريس، وعزله عن مختبرات الكلية، وتحويله إلى وظيفة مكتبية ثانوية، يخالط فيها الكتبة، والمحبطين، والفرّاشين، والنساء اللواتي ينقلن مطابخهن إلى طاولات مكاتبهن، وسط خرخرات كاسات المتة.

كان جلال على ثقة بأن قلب والده لا يخفق للقيادة السياسية في البلاد، وأنه ليس من أنصار السلطة، وأن موقف والده من الأحداث، لا يتجاوز كونه موقفاً يعكس روح الصيدلاني الذي يدقق في نسب طبخته بما لا يسمح له بالانتقال إلى مركب لا يستطيع التنبؤ نحو أي الشطآن سيُبحر.

مع عودة الانفجارات، واتساع رقعتها، أدرك جلال أن خبر مقتل فرج العلي فياض حقيقة لا جدال فيها، وكان على يقين من أن فرج، بحث في رحلة سفينته الغارقة عن خشبة جانحة يتعلق بها، غير أنه غرق وانتهى، وليست النعيات التي أخذت طريقها إلى جدران الفيس بوك، سوى تكريس أدبي لبطولة مشتهاة يكتبها شباب يشتهون البطولة، وكان حدسه قد حفّزه على أن في أوراق فرج العلي فياض، التي أودعت لدى

سوسن، وانتقلت إلى رضا، ما يحكي حقيقة مقتل فرج العلي فياض. كان مسكوناً بسؤال: ما الذي تركه فرج؟

كان عازماً على متابعة سيره باتجاه بانسيون مريم، ليقرع بابها، طالباً من رضا أوراق فرج، متيقناً من أن رضا لم يقرأ هذه الأوراق بعد، ومتيقناً من أن رضا لن يقرأ ربما ولو سطراً واحداً منها، ولا بدَّ أن يكون استخلاصه هذا معتمداً على شيء من حقيقة رضا، فرضا كما عرفه، لا يقرأ، بل طالما أعلن احتقاره للقراءة، ومنها قراءة الكتب المقروءة مسبقاً التي يشتريها عن الأرصفة، أو تلك المستعارة التي تنتهي تحت سائل البن المندلق فوق صفحاتها، وحال رضا، على العكس من حال سوسن، تلك البنت التي تنجرف وراء الكتب، لتقرأ قاضمةً صفحاتها بأسنانها، دون أن تستند في استخلاصاتها إلى أي من الصفحات التي قرأتها.

وهو يسير، وقد تجاوز اعوجاج مناطق الأزقة الضيقة، كان صوت القذائف يبتعد ويقترب، وكانت السيارات التي تقطع شوارع العاصمة شديدة الندرة، وكان يشعر بأنه وحيد في طرقات بدت أيضاً متوحدة.

لم يكن الكثيرون يجرؤون على السير في شوارع المدينة، ولم يكن الرجل الذي يسند جسده إلى سور مشفى الهلال الأحمر، سوى واحد ممن يتقيئون أخطاء الخمرة، وليست الأنوار المنبعثة من بيوت شارع بغداد، سوى أنوار لبيوت أرّقتها أصوات القصف، فنام سكانها نصف واقفين على عتبات بيوتهم، خوفاً من أن تنهار السقوف فوق أجسادهم.

فيما كان يبتعد عن سور المشفى، توقفت تاكسي مضاءة من الداخل.. كان سائقها من الشباب صغار السن، وكان قد زيّن سيارته بالكثير من الإكسسوارات التي غزت تاكسيات المدينة، لتبدو الكف الزرقاء الملصقة فوق الزجاج الأمامي، وهي تلوح على مسافة شبر من المقود.

سأله الشاب السائق: إلى أين؟

ـ إلى شارع العابد.

التفت إليه السائق الشاب مستغرباً، فالمسافة باتت قريبة، وليس ثمة حاجة إلى التاكسي، وجاء رد فعل السائق أن رفع صوت مسجل سيارته على آخره.

كانت الرحلة التي استغرقت ما لا يزيد على ثلاث إلى أربع دقائق، كانت مصحوبة بمطالع أغنية متهتكة لمطربة شغلت ليالي كاباريهات العاصمة، ودون أدنى شك، كانت مطربة بالغة الإثارة متحدرة من القرباط السوريين الذين انتقلوا من الخيام المتناثرة على طريق الرقة ـ حلب، إلى مناطق فاخرة من المدن السورية، بعد اتساع أسواقهم، وتحوّلهم إلى الاشتغال بالعملة الصعبة بديلاً للعملة الوطنية، ولا بدَّ أن يكون هذا الشاب السائق، قد عمل تحت إدارة واحدة من بناتهن، اللواتي ما زلن يعثرن على زبائن كدرين، وإن بأجور أقل بما لا يقاس من تلك التي يتقاضونها في مواسم السياحة المزدهرة.

حين أخرج جلال قطعة نقدية من جيبه ليناولها إلى السائق الشاب، دفع السائق الورقة النقدية ثانية إلى جلال ليؤكد له:

ـ لا.. إنها مجرد خدمة!

وحين نزل جلال من السيارة، مدّ السائق الشاب رأسه من النافذة صارخاً:

ـ اذهب ونم.. التجوّل خطر!

ثم أطلق سيارته بسرعة فائقة، ما ضاعف من إحساس جلال بغموض الدقائق القليلة التي أمضاها مع سائق التاكسي، تاركاً وراءه سوسن التي لم تستكمل ارتداء ملابسها، وتاركاً رجلاً يتقيأ أمعاءه وهو يستند إلى سور مشفى الهلال الأحمر.

ـ 19 ـ

لم يتبقَ شيء على حاله في منزل السيد قدري، فقد تيقنت ريتا أنه غادر البلاد إلى وجهة لم تعرفها، حاله حال الكثير من رجال المال الذين يعملون مع رجال حازمين وجديرين بالثقة، فما إن تهاوى مركب السلطة حتى بحثوا عن قارب ينجيهم من الغرق.

لسبب يمكن تبريره، لم يكن ليعير بالاً إلى زوجته الملقاة على سريرها في المشفى، لم يكن من العقلاني ولا المنطقي، أن يبحث الغارق عن غارق يحمله على كتفه، ولكن السيد قدري، الذي أرسل سائقاً من العاملين لديه لأخذ حقائبه من المنزل، كان أكثر قسوة من أن تعثر له ريتا على أي من المبررات التي يمكنها أن تنزع عنه صفة الوضاعة، فقد غادر تاركاً حقيبة من الأوراق النقدية، بالعملة الوطنية.

بدت الحقيبة سميكة ومحشوة بأوراق من فئة الألف، ومع الحقيبة لم يترك حتى ولو رسالة صغيرة تنمّ عن علاقة سابقة ما بينه وبين أسرته.

كانت ريتا، وهي تستعيد قراءة رسالة جلال التي أنبأتها عن مقتل فرج العلي فياض، قد فتشت في خزانة أمها، لتخصص جزءاً من الخزانة لمعاطف الفراء، وفساتين الحرير، والشالات الفخمة، والكنادر المتعددة الماركات وأكثرها إتقاناً من ماركة بالي، وكانت قد سحبت

من خزانة أمها، تنورة قصيرة سوداء، وكنزة سوداء، ومنديل رأس أسود، وحين دققت النظر في مرآتها، اكتشفت أن ما يعوزها، هو أن تضفر شعرها إلى الأعلى على شكل كعكة لتأخذ شكل مريم، وتناست حب الشباب الذي طفح فوق مساحات واسعة من وجهها.. نعم، لقد بدت عازمة أن تأخذ شكل مريم وروحها، بدت وكأنها قد تحوّلت من مجرد بنت ذائبة في طمأنينتها إلى سيدة نضجت، وما بدا غريباً، على الأقل وفق قراءة الدكتور فريد، وكان يتأمل تحوّلاتها في تلك الليلة، هو أن ريتا بدت مبتهجة، ومضت إلى إعادة قراءة رسالة جلال الهاتفية، لتعقب بتعليق قصير على رسالته: فرج هذا كان يحبني، وأمه كذلك، كانت تريدني كنتها!

وحين اقترب منها الدكتور فريد، وهو حائر ما بين مواساتها أم مجاراتها في بهجتها الملتبسة، قالت له:

ـ فريد.. هل بوسعك أن تُعدّ لي فنجان قهوة؟ ثم أردفت: أين يمكنك العثور على خيوط ورسومات الكانفا؟!

ـ اعذريه!

قال فريد وهو يكاد يختنق، ولم تكن ريتا لتفهم على وجه الدقة، من المقصود بكلمة (اعذريه):

ـ السيد قدري أم فرج؟ تساءلت ريتا، ثم أردفت: لا.. لن أعذره، ليس من حقه أن يموت قبل أن يخبرني!

كانت ريتا تعلم، أن المبررات التي سيسوقها فريد، مبرراً موت فرج، ومبرراً رحيل والدها، هي مبررات قد تكون منطقية، ولكنها تعلم أيضاً، أن المنطق، قد يتجرد من أية مسؤولية أخلاقية، وكانت تعوزها اللغة المنطوقة، لتقول له ذلك، نعم، كانت أفكار ريتا بالغة الوضوح والشفافية، وكانت اللغة بالنسبة إليها ترتفع كما جدار شاهق، ستكون

عاجزة عن التسلق إليه، أو القفز من فوقه. اتجهت إلى البيانو، وكأنها ستتجه إليه لآخر مرة في حياتها... رفعت الغطاء عن أصابعه، وبعدئذ:

ـ اسمع يا فريد.. ها.. اسمع!

للمرة الأولى، يشعر فريد بالدفء، ولبضعة أسباب كان يشعر أنه مغطى من رأسه حتى أسفل قدميه، بأنه في كنف عائلة، وكانت مرآة الجدار الكبيرة، تعكس صورتهما، ما يحيل العائلة المصغّرة إلى عائلة مضاعفة العدد، عائلة مؤلفة من موكب انتهك كل التفاصيل الطبيعية لبناء العائلة، وكانت خيالاته تسبقه نحو الصباحات القادمة، صباحات سينهض فيها مبكراً ليتجه أولاً إلى المطبخ، وفيه سيعدّ القهوة ويقدّم فنجاناً مذهباً على صينية مذهبة، ليضع فنجان ريتا مقابل فنجانه، وسيكونان معاً برفقة انتصار، وهي تفتح فمها وتغلقه، على وجبة الحليب بالكعك، ومن ثم غسل وجهها بماء الورد كما كانت ريتا قد اعتزمت أن تفعل.

بدت الصباحات القادمة مكشوفة لفريد وهي تنحرف وتتذبذب، دون أن تخفي مخاوفها، وما سيضاعف من هذه المخاوف، تلك المقطوعة الموسيقية التي اختارتها ريتا، والتي تحمل انفعالاً روحانياً قاسياً، كانت ريتا تعزف بلا رحمة، لتسحب الدكتور فريد نحو ليالٍ بدت قاسية أيضاً، ليالٍ كان يقوم فيها بأداء الخدمة العسكرية في دائرة الخدمات الطبية على مشارف سجن تدمر، حيث الخوف يتجسد مع كل صرخة من أقبية ذلك السجن المقزز.

ـ إنها «Amor fati»!

قالت ريتا لفريد، وقد توقفت عن العزف، لتعيد ثانيةً مؤكدة أن اسم المقطوعة هو هكذا: «حب القدر»، وسيكون عليه، وريتا وراء البيانو، أن ينسى القصف في هوامش العاصمة، وسيكون من اللائق الإصغاء

إلى هذه الموسيقا، واستساغتها والتلذذ بها، فالموسيقا التي قد تتسبب بهلاكنا، ربما ستتسبب في إحياء أرواحنا، بعد أن نودّع أرواحنا بين أصابع ريتا، ونستسلم لأقدارنا.

لا بدَّ أن يغفر لريتا أنها اختارت من بين المقطوعات الموسيقية هذه المقطوعة من موسيقا لفاغنر، وفي حقيقة الأمر، لم يكن هذا هو اسم المقطوعة الموسيقية، ولكنها اختارت هذا الاسم، وقد أعطت لنفسها حق التصرف، إذ بدا فاغنر بالنسبة إليها في تلك اللحظة، وكأنه هجوم الغرائز على الحرب الدائرة، بدا بالنسبة إليها وكأنه القوة التي ستلهمها طريق الانتماء إلى القوة، بدا بالنسبة إليها وكأنه سيصحّح من وضع مثانتها، وبدا وكأنما سيعيد إليها بصرها الذي يخذلها حالما يهبط الظلام على المدينة، وتنسحب أشعة الشمس من سمائها.

بدت وهي خلف البيانو، وكأنما تحبل.. كانت تتسلق جدران فاغنر، ثم تهبط عنها لتعود إلى تسلقها من جديد، مشرفة على استنزاف طاقاتها كلها، وكان فريد، وقد وقف مُصالباً ذراعيه، قد وضع فنجان قهوتها فوق منضدة صغيرة، ووضع مقابله فنجاناً آخر، متنازلاً عن عقيدته الدينية التي تحرّم عليه شرب القهوة. كان مسلوباً أمام ريتا، وكان فريد أكبر عمراً من حقيقة عمره، وما إن اتجهت ريتا لتجلس على مقعدها، حتى كررت سؤالها:

ـ ابحث لي عن قماش وخيوط ورسوم وطارة كانفا.

قالت ذلك وكأنما التقطت ما هو صواب في حياتها، وكانت وهي تحكي، تحكي وكأنها استحضرت كل تفاصيل صورة مريم.

ليس مصادفة، أن يصل حارس مزرعة نور إلى عمارة بانسيون مريم، وليس مصادفة أن يطرق باب البانسيون، ليقف وقد لوى عنقه، والدماء المتخثرة ما زالت طرية فوق معطفه، كان الحارس السوداني

واحداً من بين اثنين يعرفان سكن ناصر، كان هو وغلامه فقط يعرفان الطريق إلى هذا السكن، وإن لم يكن أحد منهما يعرف ما الذي يختبئ خلف بابه العتيق المرتفع. ولكن طرقاته فوق الباب (وكان يستخدم قبضته) تسللت إلى أحشاء مريم، ولم يكن أنيس ليبالي بمن يطرق الباب أبداً بعد التغييرات الكبرى التي شهدها هذا المكان، وقد انجرف كل من فيه إلى مساحة هي غير المساحة التي عاشها طيلة عمرٍ مضى.

كانت مريم قد رفعت قارورة من غرفة ماشالله، لتحكي لرضا، وإن باختزال، حكاية زهرة ست الحسن، زهرة «أتروبا بيلّادونا»، تلك الزهرة التي تحمل اسماً آخر: «ظل الليل القاتل»، زهرة تنقل سُمها ببطء، ولن تظهر أعراضها على ضحاياها أبداً، لن يشك أيّ أحد بأعراضها، ولا بنتائجها، وحين بدأت تحكي حكاية بيلّادونا، حكتها لأنها أطلقت عليه هذا الاسم، ليبدو متسائلاً، ولتذهب إلى حيث تزيل عنه قلق سؤاله.

ـ أنت هذه الزهرة.. نعم، أنت بيلّادونا!

قالت له، ثم تابعت:

ـ من خصائصها أنها مُخدِّرة ومُدِرة للبول، ومُهدِّئة ومُضادة للتشنج وموسِّعة للحدقة. ثم تابعت ضاحكة وكأنها تستعيد حدثاً وقع لتوه: جرعة منها وتصاب عضلاتك بالشلل.. أو تُقتل!

لم يفهم رضا ما تقوله مريم، ولكنه كان على يقين من أن حدثاً مأساوياً شهدته هذه الغرفة، ولم تكن مريم قادرة على أن تزيد أكثر، ولا أن تحكي له كيف ذهبت أمها ماشالله، إلى تسميم زوجها، ثم إلى دفنه دون أن يستطيع أحد من الدفّانين التعرف على حقيقة موت الرجل، فقد تمدّد فوق مِحفَة الموتى، بحدقتين مفتوحتين وملابس مبللة، وكانت

ماشالله تناولت جرعتها عازمة على اللحاق به، غير أن جرعتها لم تكن كافية سوى لإحداث شلل صاحبها حتى سجنها، ثم موتها في السجن، وما زالت تحكي بتلذذ فظيع عن الزهرة العبقرية التي استخدمتها في قتله، وكانت هذياناتها هي الطريق الوحيد الذي يحول دون أن تكون جريمتها كاملة، كانت ماشالله قد اعتبرت فعلتها إنجازاً إلهياً، بل أقل من إنجاز إلهي، فقد اعتبرت أن إنجازها هذا قد جاء بتفويض من الله!

ـ الله هو من أمرني بقتله!

حكت كل ذلك بعد دفنه، وكرّرته على مسامع مجموعات من المعزين الذين يذرفون دموعهم المشتهاة على أي من الموتى، يذرفون دموعاً يتساوى فيها جميع الراحلين عن هذه الدنيا.

كانت ماشالله، ممرضة تعمل لدى الكيميائي الهذياني جورج رفح، ومع اجتهادها ومثابرتها، تعرفت على زهرة بيلّادونا، ثم جمعت الكثير من خصائص هذه النبتة، وأعدّت، بالكثير من رجاحة العقل، العقار الناتج عنها، ثم ابتلعه المغدور والد مريم، الذي ورد اسمه في محاضر الشرطة: «عرفان عبد النافع»، نقلاً عن ماشالله.

لم تكن مريم عازمة على المضي أكثر في تفاصيل حكاية أمها، غير أنها كانت برّرت فعلة الأم بالقول:

ـ ولا شيء.. لأنه كان قد سمّم حياتها.. هو من جلب لها هذه النبتة.. كانت تجره إلى أن يُحضّر العقاقير برفقتها.

ثم التفتت إلى رضا، وقد غمزت بعينها:

ـ بالمناسبة، ليس هنالك من زهرة تساوي بجمالها زهرة بيلّادونا، وحده أبي كان أجمل من تلك الزهرة!

قالت ذلك، وما زالت ترتدي قبعتها ذات الريشة، وقفازيها،

وكانت عازمة أن تستكمل أناقتها باستعادة مَسكَرتها القديمة، وإزالة التجاعيد عن وجهها، وحين عادت الطرقات المتوترة إلى بابها، واستعادت صحوها لتنادي أنيس، طالبة منه أن يفتح الباب، كان أنيس يغفو فوق مقعده، أصمّ، مكوّراً رأسه فوق صدره، ما دفعها إلى مغادرة غرفة ماشاالله، وقد أحنت ظهرها، وبيدها قبعتها، في إشارة مهذبة عن احترامها لرضا.

معاينتها للحارس السوداني، أنبأتها بأنه يحمل خبراً قاتلاً، قال لها بإعياء وحيادية، وبلغة جازمة:

ـ هذا منزل ناصر؟!

وقبل أن تجيبه، شق طريقه إلى الداخل، ليتوقف مُتفحِصاً جدران الصالة، ثم قال لها:

ـ لقد فتح أقفاص الكلاب الشرسة.. البقية في حياتكم!

ـ ماذا؟! سألت مريم.

ـ ما كان عليه أن يفتح أقفاصها، لولا رحمة الله لأكلتنا أنا وغلامي أيضاً.

قال الحارس السوداني ذلك، ثم اتخذ ركناً من الصالة واسترخى فوق المقعد، ورائحة أنفاس الكلاب الوحّازة تنبعث من معطفه وقد امتدت إلى الصالة كلها.

لم يفتح أنيس عينيه، ولم يصحُ من نومه، أو يصحح جلسته، ولم يزد الحارس شيئاً على التفاصيل التي حكاها عن مقتل ناصر، كل ما زاده أن جثة ناصر في مشفى المجتهد هذه اللحظة، وأن على أهله استلام الجثة، وأنها: كلاب متدربة على القتل، وأن:

ـ السيدة نور كانت قد نبّهتنا أن لا نقترب من الكلاب الستة، ولكنه، رحمة الله عليه، لقد اعتدى على نفسه!

في حقيقة الأمر، كانت السيدة نور صاحبة مزرعة الكلاب التي تحمل اسمها، قد تقبّلت استضافة الكلاب الستة، كما تتقبل على الدوام استضافة كلاب من فصائل أخرى.. كلاب مملوكة لزبائن يودعون كلابهم في المزرعة ريثما يعودون من أسفارهم، أو ربما لإعادة تأهيل هذه الكلاب، وفي أحيان أخرى لتلقيح إناث كلابهم من سلالات كلاب محترمة، وفي كل الحالات يدفعون بسخاء بالغ، فقد كانت استضافة الكلب في مزرعتها لا تقل في عائداتها عن العائدات التي تحققها فنادق العاصمة المحترمة، فنادق من فئة النجمتين، وفي أحيان أخرى من فئة النجوم الثلاثة.

وفي حالة الكلاب الستة، فقد كانت أجور الإشراف على هذه الكلاب وإقامتها أعلى تكلفة من أجور الإقامة في فنادق النجوم الخمسة، وكان صاحب الكلاب الستة قد نبّه السيدة نور، كما نبّه الحارس السوداني إلى أنها كلاب شرسة.

كان الحارس السوداني قد أبلغ ناصر بحقيقة الكلاب الستة، وحين كان ناصر يحمل مصباحه ويتجه صوب الأقفاص، كان الحارس السوداني جاهلاً بمقاصد ناصر، وهدفه، وكل ما عرفه، هو فقط ما شاهده.

بدايةً، دخل ناصر إلى الممر الأول الطويل لأقفاص كلاب المزرعة، وكان مصباحه يوقظ الكلاب الصغيرة النائمة، وبعد الممر الأول وكانت الكلاب الصغيرة تتعقبه وهي تهز ذيولها وتشتم رائحته، وتتراقص حوله، فتح القفص الأول من الممر الثاني، وكان كلب هرم، يجر قامته خلف ناصر، وناصر يتابع طريقه نحو القفص اللاحق، ليفتح القفص مطلقاً كلبين فتيين من الكلاب السيبيرية البيضاء التي ستبدو أكثر وضوحاً من بقية الكلاب التي تتحسس أقدام ناصر، وتتقافز حوله. وحين فتح القفص الثالث، وكان فيه كلبان من الكلاب الستة، سقط

المصباح من يده، وتناثرت أصوات النباح الشرس في المزرعة، مختلطة بنباحٍ باكٍ، وكأنما ينبعث من كائنات ترجو نجاتها.

كان الحارس السوداني وقد استرخى من تعب قديم ممتد إلى بدايات عمره، كان بحاجة لأن يغفو، وكان رعد الأسمر، قد غادر غرفته ليقف ووجهه إلى باب البانسيون وكان الباب مفتوحاً نصف فتحة.

ـ يا رب العباد!

قال رعد الأسمر. ثم استدار وخبط رأسه بباب البانسيون خبطات متتالية، خبطات انتقلت إلى الشارع المقابل لمبنى بانسيون مريم، خبطات كلما توقفت أعادها رعد الأسمر بإيقاعات بدت وكأنها إيقاعات فائقة الانتظام والدقة.

لم ينهض أنيس من غفوته، وكان رضا، وهو يقف ووجهه إلى مريم، كان راغباً في أن يخرج من الصالة متجهاً إلى اللامكان، إلى حيث تأخذه أقدامه، أقله ما بعد تكرار مريم قولها:

ـ أنت زهرة البيلّادونا.. نعم أنت!

كررت ذلك وهي تنتحب، وكان رضا قد نزل سلم البانسيون متكئاً على عتمة امتدت حتى الشارع، فيما كان صوت الرصاص ينبعث من أماكن ليس من السهل تحديدها، وكان جلال قد وصل إلى بوابة عمارة بانسيون مريم.

وحده الحارس السوداني خرج من البانسيون، دون يد تدفعه، وكانت مريم قد تعثرت بخطواتها وهي تتجه إلى الباب الخشبي العتيق الضخم لتقفله، محكمةً إقفاله.

كانت معادن مغاليقه تطقطق في رأس أنيس النائم، وكان رعد الأسمر قد خرج من غرفته ليتوقف مسبلاً ذراعيه وجفنيه أمام مريم التي سألته: سيد رعد، متى ستغادرنا إلى الدانمارك؟

وحين صحا أنيس على سؤالها، وهو يجوب ببصره في الصالة، وكأنه يصحو من نومه لآخر مرة، سألها: ما الذي حدث؟!

أجابته مريم:

ـ لا شيء.. نم، من الآن وصاعداً، لن نفتح الباب لأحد.. نم، وسأحرس نومك!

الانتفاضة، ليس ببعدها السياسي.. بل باعتبارها اللحظة التي تفتح فضاءات أخرى لبشر ألغاهم العنف واحتكار السلطة.. العنف بشقيه الأخلاقي والجسدي فكان بانسيون مريم هو المساحة التي خبّأت في ثناياها مجموعة من البشر المنسيين.. بشر أداروا ظهورهم للرغبة، وخرجوا من ذاكرة المكان الواسع إلى المكان المحاط بالستائر والغبار.. الانتفاضة هي اللحظة التي فعلت فعلها في استعادة مريم لرغبات الأنثى، وفي عودة أنيس من ذاكرة متكررة إلى ذاكرة مأمولة يحلو له أن يعلنها من خلال خلعه لبذلته التي رافقته من حوارات ستينيات القرن العشرين إلى اللحظة الراهنة.. لحظة إعلان صوت آخر لإرادة مستعادة كانت قد مُسخت تحت وابل من الإهانات ورُهاب الآخر المختبئ في بذلة القاتل..

في روايته يأخذنا نبيل الملحم من تداعيات اللحظة السياسية التي يمكن التعبير عنها ببيان سياسي لطبقة أو حزب أو نخبة إلى عالم آخر.. إلى تحرير الروح الإنسانية.. تحرير الجنس فيها، وتحرير الأمل كما تحرير الجسد الذي يحلو له أن يرقص بعد أن أُصيب بشيخوخة طالت ثم احتجّت على نفسها.. رواية يمكن قراءتها بعين الغد لا بعيون الأمس المطفأة.

الناشر